سُبُلُ الرَّشَادِ في هَدْيِ خَيْرِ العِبَادِ

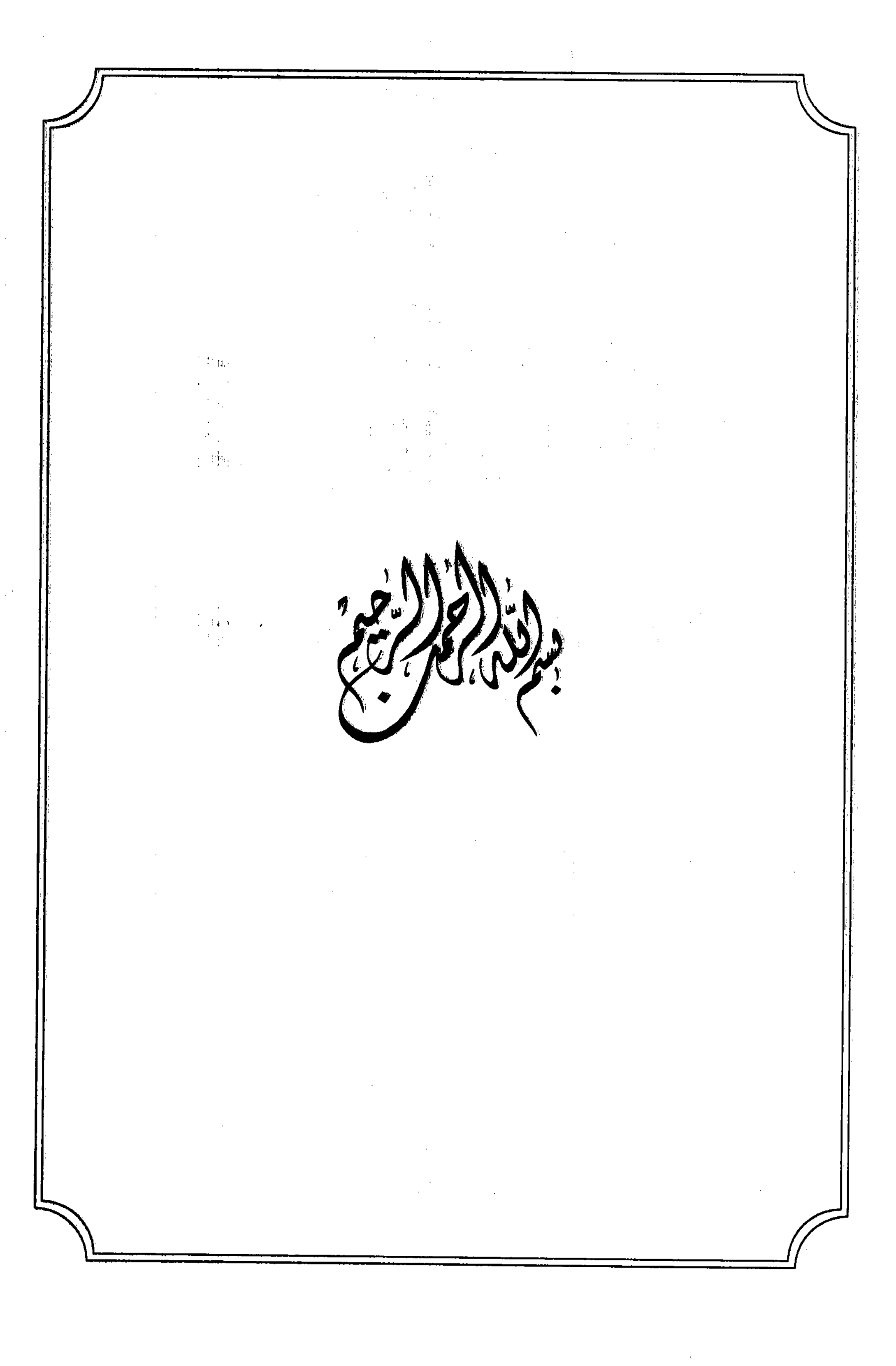
تصنيف

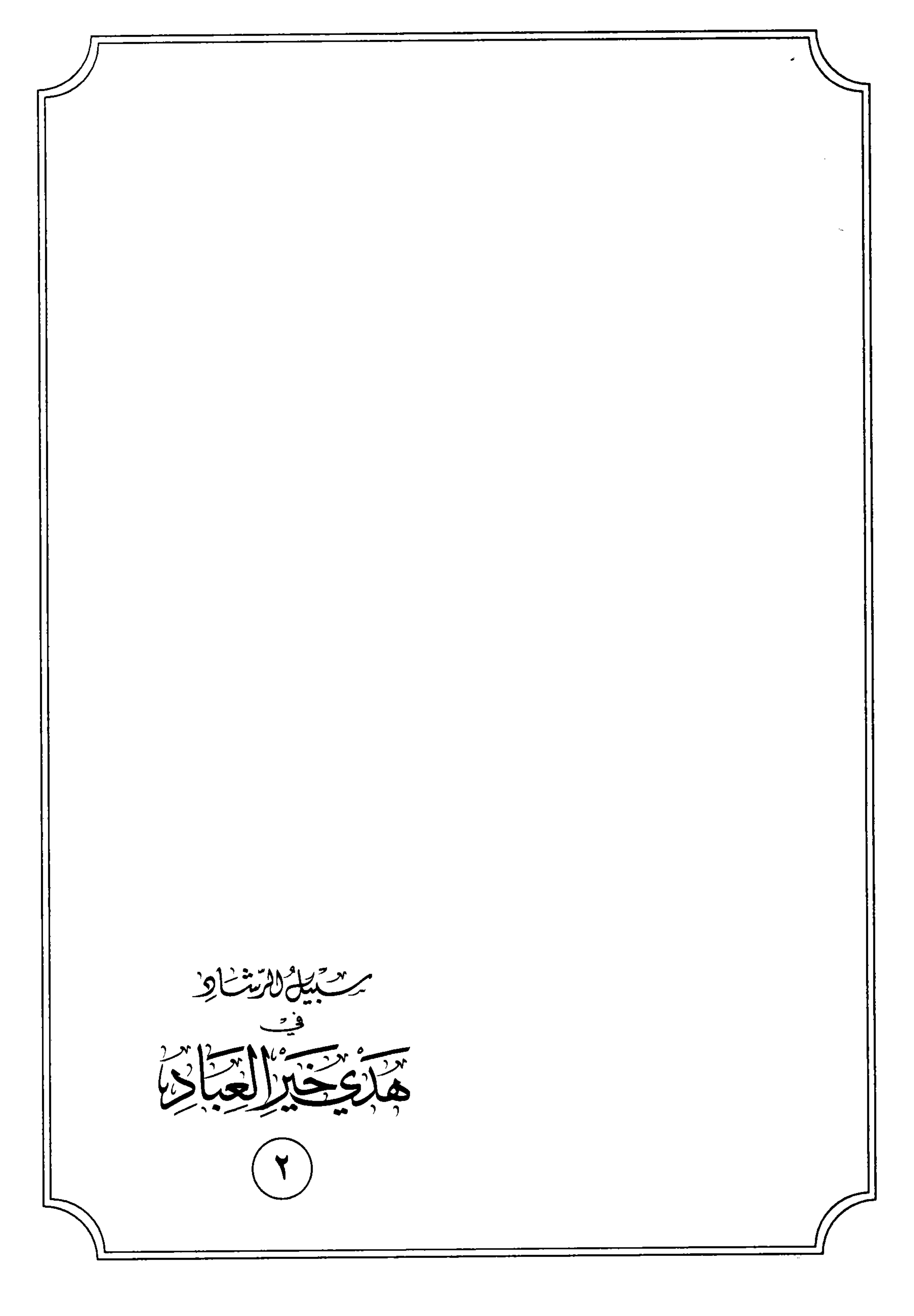
العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي
رحمه الله تعالى
(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)
(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه
أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الثاني

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم



سبيل الرشاد

في

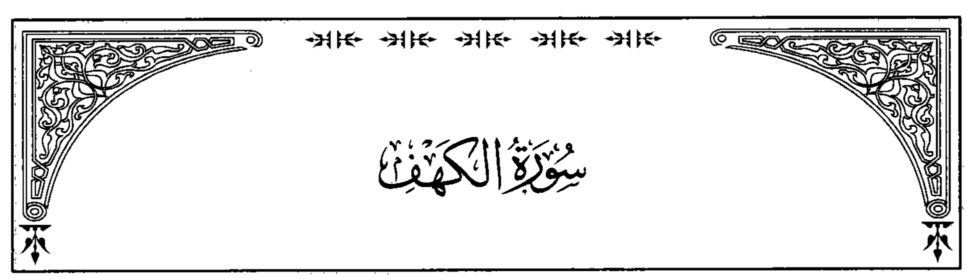
هدى خير العباد

٢

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الدار الأثرية

عمّان - الأردن - تلفاكس : ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢
خلوي : ٠٠٩٦٢/٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب : ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي : ١١١٩٠
الرمز الإلكتروني : alatharya1423@yahoo.com



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٦]

قال (ك): «من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا [وانغمسوا][(١)] في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف، أنهم كانوا فتية شباباً[(٢)]، ألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة، كالبخاري[(٣)] وغيره ممن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعَسَوا».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة ـ يعني: الحلق ـ ف».

(٣) في «صحيح البخاري» «كتاب الإيمان»، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (١٥) (٢٢).

ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، وقد ذكر[١] أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء وعن خبر ذي القرنين وعن الروح[٢] فدل هذا على أن هذا أمر

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أنكر»!

(٢) قوله «قد تقدم»: عنده في «التفسير»، ولم يسبق ذكره في كتابنا هذا، وساقه بطوله ابن إسحاق في «السيرة» (ص١٨٢ ـ ١٨٣)، وفيه أنّ المبعث لليهود هو النضر بن الحارث، ونعت بأنه قدم الحيرة، وتعلّم بها أحاديث (رستم) و(أسفنديار)، وأنه وعُتبة بن أبي معيط ذهبا إلى أحبار يهود بالمدينة، وجاءا بالأسئلة المذكورة!

وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ١٩١ ـ ١٩٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧١)، وابن أبي حاتم ـ وهو ليس في القسم المطبوع من «تفسيره» ـ، وابن المنذر، وأبو نعيم في «الدلائل» ـ كذا في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٧) ـ وعزاه المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٩٤) رقم (٦٨١) لابن المنذر ـ أيضاً ـ، **وإسناده ضعيف**؛ للمبهم الذي فيه. والخبر في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢١ ـ ٣٢٣)، وسند ابن جرير: عن ابن إسحاق، عن رجل من أهل مصر، عن سعيد بن جبير، به. **وصحَّ من حديث ابن عباس بعض أجزاء منه**، وهذا البيان:

أخرج أحمد (١/ ٢٥٥) ـ واللفظ له ـ وأبو يعلى (٢٥٠١) كلاهما في «المسند»، والترمذي في «الجامع» رقم (٣١٤٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٣١٤)، وابن حبان في «الصحيح» (رقم ٩٩ ـ «الإحسان»)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٩) من طرق عن يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال:

«قالت قُريش لليهود: أعطُونا شَيئاً نسألُ عنه هذا الرجلَ، فقالوا: سَلُوهُ عن الرُّوح، فَسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أوتينا عِلماً كَثيراً؛ أوتينا التَّوراةَ، ومَن أوتي التوراة، فقد أوتي خَيراً كَثيراً، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ =

= [الكهف: ١٠٩]، وإسناده صحيح.
وقد ورد أن اليهود هم الذين سألوه. انظر: ما سنعلّقه قَريباً، والله المستعان لا رب سواه.
(تنبيهات مهمات):
أولاً: ساق بعض المفسرين؛ كالزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٠٠)، والبيضاوي في «أنوار التنزيل» (٣٨٢) [الإسراء: ٨٥] ـ مثلاً ـ القصة بسياق عجيب، قال عنه ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٠٢ رقم ٣٠٩): «لم أجده هكذا»، وذكر سياق ابن إسحاق لها، وكذلك فعل المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٨٤) رقم (٦٦٨).
ثانياً: سيأتي قريباً في حديث ابن مسعود ما يدل على أن سؤال اليهود عن الروح كان بالمدينة، وهذا يخالف ما في هذا الخبر، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (ص٢١٣ ـ السيرة النبوية): «ولعله ﷺ سئل مرتين»!!.
ثالثاً: الاحتمال الذي ذكره الذهبي يُلجأ إليه في حال صحة هذه القصة، أما وهي غير ثابتة فلا داعي له، ومن العجب أن محمد عزة دروزة رحمه الله ذهب في تفسيره «التفسير الحديث» (٦/ ٤٢) إلى تصحيح وقوع السؤال بمكة، وشكك في ورودها بالمدينة!
رابعاً: مما يضعف القصة؛ أن اليهود ليس في «توراتهم» ما يدل على معرفة ـ أيِّ معرفة ـ بـ(ذي القرنين).
خامساً: ومما يضعِّف القصة ـ أيضاً ـ: أنه وقع فيه على لسان أحبار يهود: أنهم أمروا قريشاً بأن تؤمن بنبيها إن ثبت بعد الامتحان أنه نبي!! فهذا لا يدخل قطّ في السلوك اليهودي الذي يُصرُّ على نفي النبوة عن كل غير يهودي من أي جنس كان، وعداوتهم للإسلام ولرسوله بعد الهجرة وقبلها معروفة لا تدع مجالاً لتقديم فكرة كهذه الفكرة إلى قريش لتؤمن، ولقد أجاب النّبي عن الأسئلة الإجابة التي لا تدع مجالاً لتردد قريش في الإيمان به، لو صح أنهم أعطوا الرأي بهذا، فلم يؤمنوا!
سادساً: ذهب بعض المعاصرين من الباحثين، وهو نجيب محمد البهبيتي في (القسم الأول) من كتابه «المعلقة العربية الأولى» أو «عند جذور التاريخ» (ص٥٨ ـ ٥٩) إلى رد هذه القصة، وطول في تقرير سعة علم وثقافة (النَّضر بن الحارث)، وأنه كان يعتمد في ذلك على (قصيدة جيلجاميش) ـ وهي المرادة هنا بـ(أحاديث رستم) و(أسفنديار)! ـ، وبناءً عليه؛ استنكر أن يلجأ لليهود في مثل هذه المسائل التي تخلو منها «توراتهم»! وهذا نص كلامه (ص٥٩):

«إن النضر بن الحارث كان بحكم ثقافته، وسعة علمه، واعتمادها في جانب كبير على البيئة التي أخرجت «قصيدة جيلجاميش»، وكان أكثر أصالة في انتحال هذا السؤال، وأولى بالالتفات إليه من اليهود الذين تَخْلو «توراتهم» منه خُلوّاً تامّاً، ومرتميات الجدال المحتَدم بين النّبي ﷺ والنضر هي الأوْلَى بأن تقذف به إلى مثل هذه الأسئلة. =

= أمّا ابتعاث النَّضر وعُتبة بن أبي معيط إلى اليهود فلعله كان، ولكن لسبب آخر لم تصرح الظروف عنه حتى اليوم، فهؤلاء المؤرُخون ـ على ما قُلتُ ـ لا يخترعون، والغالب أنه كان لتبادل الرأي مع طائفة يهددها الدين الجديد بقدر ما يهدد قريشاً، فهو سعي إلى التحالف!! بين دينين يهددهما «الإسلام»!

وأعود مرة ثانية إلى القصيدة فأقول: إنني كنت دائماً مطمئناً تمام الاطمئنان إلى أنها كانت المحور الذي أدار حوله النَّضرُ مناقشاتِهِ مع الرسول في المسجد حول طواف «ذي القرنين»، ولا بد أنها كانت حامية، ولكن هل كان استشهاد النضر بما كان يستشهد به منها في لغتها الأصلية، وبصيغتها الشِّعرية؟ أعتقد هذا، وأعتقد أنه هو السبب الذي أيقظ في نفوس المشركين نسبة النبي إلى «الشعر» ووصفه «بالشاعر». انتهى.

قال أبو عبيدة: أصلُ هذه الواقعة لم يثبت، ونحن في غنىً عن نسبة شيء في هذا الباب إلى رسول الله ﷺ، وأما (النَّضر) وحاله، وثقافته، فهذا ليس من شأننا في هذا الصدد، والله الموفق، لا رب سواه.

وانظره ـ إن أردت الاستزادة ـ في كتاب: «التلقّي والسياقات الثقافية» (ص١٠٨ ـ ١١٠) لعبد الله إبراهيم، نشر عن دار الكتاب الجديد، ليبيا، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٠م.

سابعاً: ثبت سؤال اليهود للنّبي ﷺ عن الروح.

أخرج البخاري (١٢٥، ٤٧٢١، ٧٢٩٧، ٧٤٥٦، ٧٤٦٢)، ومسلم (٢٧٩٤)، وابن حبان (٩٨ ـ «الإحسان»)، في «صحاحهم»، وأحمد (١/ ٣٨٩، ٤٤٥)، وأبو يعلى (٥٣٩٠)، والشاشي (٣٦٩) في «مسانيدهم»، والترمذي في «جامعه» رقم (٣١٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (رقم ١١٢٩٩) في كتاب التفسير، حديث رقم (٣١٩) منه، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٥٥)، والطبراني في «الصغير» رقم (١٠٠٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص١٩٧)، والبغوي في «الأنوار في شمائل النّبي المختار» (٢/ ٥٨٠) رقم (٨٧٢)؛ جميعهم من طريق الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود، قال:

«بينا أنا أمشي مع النّبي ﷺ في خِرَب المَدينة وهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلى عَسيبٍ مَعهُ، فَمَرَّ بنَفَرٍ مِن اليَهود، فقال بَعضُهُم لِبَعض: سَلُوه عَن الروح؟ وَقال بَعضُهُم: لا تَسألُوهُ، لا يَجيءُ بشَيءٍ تَكرَهونَهُ، فَقال بَعضُهم: لَنسألَنَّهُ، فقامَ رَجُلٌ منهُم، فقَالَ: يا أبا القاسِم! مَا الرُّوحُ؟ فَسكَت، فَقُلتُ: إنّه يُوحى إليهِ، فَقُمت، فَلمّا انجلى عنه، قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، قال الأعمش: هكذا في قراءَتنا.

وانظر: «العلل» للدارقطني (٥/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

وورد السؤال عن ذي القرنين في حديث ابن عباس عند البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٠٠)، **وسنده ضعيف**، وفي حديث عقبة بن عامر، عند ابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٨، ط. الحلبي)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٩٦)، **وسنده ضعيف** ـ أيضاً ـ، وانظر =

محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم[١] على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومِهِم ومدينَتِهِم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم، وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد، يقال له: «دقيانوس» وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السمٰوات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحده[٢] أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليهما[٣] وجاء الآخر فجلس إليهم[٤] وجاء الآخر وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**[٥].

= ـ للاستزادة ـ تعليقي على «ذو القرنين وسد الصين» لشيخ مشايخنا محمد راغب الطباخ (ص٢٣ ـ ٢٨).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مقدم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنده».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إليه»!

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إليه»!

(٥) ذكره البخاري في «صحيحه» كتاب الأنبياء (٦٠)، باب الأرواح جنود مجندة (٣٣٢٦). وقال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٣٧٠): «وقد وصله الإسماعيلي من طريق سعيد بن أبي مريم عن يحيى بن أيوب، ورويناه موصولاً في «مسند أبي يعلى» وفيه قصة في أوله...». قلت: أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٣٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٠)، وأخرجه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

والغرض أنه جعل كل واحد منهم يكتم ما هو عليه[١] عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم بأمره[٢] فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به شيء هو[٣] الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال[٤] الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله ﷻ، ولهذا أخبر تعالى بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ ولن لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال فيهم[٥]: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً، ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون[٦]، وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه كما جاء في الحديث، **«يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»**[٧] ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها[٨]، لما يفوت، بها من ترك

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيه». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما بأمره».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو الله». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنهم».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يراجعون دينهم الذي كانوا عليه».

(٧) أخرجه البخاري (٣٣٠٠) من حديث أبي سعيد، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «العزلة والانفراد» (١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٨٠)، لابن أبي الدنيا، فانظره غير مأمور.

(٨) تشرع العزلة بشروط، أهمها: العلم، والزهد، ولذا قالوا ـ كما في «مرقاة المفاتيح» =

. . . .

= (٤/ ٧٤٣) ـ: «(العزلة) بغير عين (العلم) (زلة)، وبغير زاي (الزهد) (علة)». وضوابطها الشرعية ثلاثة أمور: الأول: أن لا تدع الجمعة والجماعة. والثاني: عدم التوسع في المباحات. والثالث: اختيار الأصحاب، وهي بهذه الضوابط تشرع في حق بعض الناس، بل قال الخطابي في كتابه «العزلة» (ص٢٢٥): «فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضرّ شيء على الجهال».

والعزلة لا تكون إلا في حق «من لم يتعيَّن عليه فرضٌ؛ من جهاد، أو تغيير منكر، وتعلُّم أو تعليم، أو مانعٍ شرعي ممن يجب طاعته شرعاً؛ من أحد الوالدَين، أو إمام، أو قاضٍ، أو خصمٍ له حقٌّ واجب، أو حق مسلم لازم أو راجحٍ، لم تعارضه خوف فتنةٍ في الدِّين؛ فينبغيَ من حدِّ صاحب (الخلوة) أن لا يصل إلى حدِّ العقوق والجفاء، والله المستعان ما لم تُخَف فتنة»، أفاده ابن الوزير في «الأمر بالعزلة في آخر الزمان» (ص٤٩، ٥٣).

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه «الغنية» (١/ ١٧٤ ـ ط العراقية): «ولو اعتزل الإنسان الناس مهما اعتزل؛ لم يكن له متّسعاً في الشرع اعتزال الجمعة والجماعات».

ولذا أوصى الشافعي صاحبه يونس بقوله: «يا يونس! الانقباض عن الناس مكسبةٌ للعداوة، والانبساط إليهم مجلبةٌ لقرناء السُّوء؛ فكن بين المنقبض والمنبسط»، كذا في «شرح نهج البلاغة» (١٠/ ٥٢).

قال علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (٤/ ٧٤٣): «والمختار هو التَّوسُّط بين العزلة عن أكثر الناس وعوامِّهم، والخلطة بالصالحين، والاجتماع مع عامتهم في نحو جمعهم وجماعاتهم».

والحاصل أن العزلة تكون كلية تارة وجزئية أخرى، خادمة لمطلوب أو مقصود، كما بيّنه الشاطبي في «الموافقات» (٣/ ٥٣٠ ـ بتحقيقي).

وقد ذكر العلماء جملة من (الآداب) لمن أراد (العزلة)؛ منها: أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس أولاً، ثم طلب السلامة من الأشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفات الاختلاط ثالثاً، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعاً، ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر؛ ليجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش عليه وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم والإصغاء إلى أراجيف البلد؛ فإن كل ذٰلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب.

وبالجملة، يقطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا؛ اضطره التوسع إلى الناس، وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه عن كد المواظبة في اليوم ساعة؛ ففيه عون على بقية الساعات، ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وعما في أيدي أهلها، وطريق ذٰلك أن لا يقدر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي على أنه لا يصبح؛ فيسهل عليه صبر يوم واحد، وإلا؛ فلا يسهل عليه الصبر عشرين سنة أو قدر تراخي الأجل.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به؛ فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، =

الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك، في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ أي[1] الذي أنتم فيه ﴿مِّرْفَقًا﴾ أي: أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هُرّاباً إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدهم قومهم، من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك، فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمى الله خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجآ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه، مع أنهم يمرون عليه وعندها، قال النبي ﷺ، حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[2]. وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم[3]، وأعجب من قصة أصحاب الكهف»[4].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

= وانظر: «الإحياء» (٢/٢٤٣)، و«مفتاح السعادة» (٣/٢٤٣ ـ ٢٤٤)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص١١٧، ١١٨).

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أنس.

(٣) لم تسلم من تهاويل القصاص، وأراجيف الكذابين، وبيّنت قصة من ذلك بما لا مزيد عليه في كتابي «قصص لا تثبت» (٨/١٩ ـ ٤٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/١١٢).

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٧ ـ ٢٩]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لا[(١)] مغير لها ولا محرف ولا مؤوّل[(٢)]، وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ عن مجاهد: ملتحداً، قال: ملجأ، وعن قتادة: وليّاً ولا مولى، قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتلُ ما أوحي إليك من كتاب ربك[(٣)] فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه، ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيّاً، من عباد الله سواء كانوا فقراء، أو أغنياء، أو أقوياء، أو ضعفاء، يقال[(٤)]: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ، أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال، وعمار، وصهيب، وخباب، وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآية، وقال مسلم بسنده عن سعد بن أبي وقاص، قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون[(٥)]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «غير».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مزيل».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:»، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير» (١٥/ ٢٣٤): «فتتبعه وتأتمَّ به، فنالك وعيدُ الله الذي أوعد فيه المخالفين حدوده».

(٤) بل ثبت ذلك عند مسلم في «صحيحه»، كما سيأتي قريباً.

(٥) قائله: الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، ذكره الخطيب في «الأسماء المبهمة» رقم (٢٢٢)، وعنه سبط بن العجمي في «تنبيه المعلم بمبهمات صحيح مسلم» (ص٤١١/رقم ١٠٠٥ ـ بتحقيقي).

للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل، وبلال ورجلان نسيت اسميهما[(١)]، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾»[(٢)] [الأنعام: ٥٢] انفرد به مسلم دون البخاري، وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: «لا تجاوزهم إلى غيرهم»[(٣)]، يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف، والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط، وضياع، ولا تكن مطيعاً له، ولا محبّاً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ الآية.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ، ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد للناس، هذا الذي جئتكم به من ربكم هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا من باب الوعيد والتهديد[(٤)] الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي[(٥)]: أرصدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها، وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: «المهل الماء الغليظ[(٦)] مثل دُرْدِيّ الزيت»[(٧)]، وقوله:

---

(١) سمى الخطيب منهم: صهيب بن سنان وبلال بن رباح وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وزاد ابن عبد السلام: سلمان وسالماً وهلالاً ومهجعاً، انظر: «الأسماء المبهمة» رقم (٢٢٢)، «فتح القدير» (٢/ ١٢٠)، و«تنبيه المعلم» (ص٤١١ ـ بتحقيقي).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤١٣)، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «رجحان الكِفَّة في بيان نبذة عن أهل الصفة» للسخاوي، فانظره غير مأمور.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٩٨/٤) رقم (٧٣٣٣)، وعزاه له السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٢٥)، و«الدر المنثور» (٥٢٨/٩)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٦٨).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التهديد».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ماء غليظ».

(٧) أخرجه بهذا اللفظ: أسد بن موسى (٢٨)، وهناد (٢٨٣) كلاهما في «الزهد»، وابن جرير (٧٨/٢٥)، وابن أبي حاتم (٢٣٥٨/٧) كلاهما في «التفسير»، وعزاه في «الفتح» (٨/ ٥٧٠)، و«الدر المنثور» (٢٢١/٤) لابن أبي شيبة وابن المنذر، **وإسناده ضعيف**، فيه =

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا شراباً[(١)]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية: ٥] أي: حارة كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٤٤]، ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: ساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان: ٧٦]»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: تضمنت هذه الآيات أموراً:

الأول: أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، بتلاوة ما أنزل عليه وهو القرآن وأمته تابعة له في هذا الأمر، فما دامت تتلو القرآن وتعمل به وتتخذه إماماً وحكماً تكون سعيدة في دينها ودنياها، ولا كلمة فوق كلمتها، وإن لم تفعل ذلك شقيت في دينها ودنياها، **كما هو واقع في هذا الزمان**، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: لا مهرب ولا ملجأ ولا ولي ولا نصير ولا منقذ ولا مخلص.

الثاني: أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يصبر نفسه ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وإن كانوا فقراء محتقرين عند الأغنياء، محرومين من لذة العيش، ففي الكون معهم رضوان الله ومغفرته ورحمته.

الأمر الثالث: نهى الله رسول الله ﷺ ـ وأمته تبع له ـ عن طاعة الغافلين عن ذكر الله المضيعين لأمر الله المتبعين أهواءهم، المفرطين في جنب الله، لأن طاعتهم فيها الخسران المبين.

الأمر الرابع: أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول الحق ويعلنه عند من أحبه وعند من كرهه، فمن آمن واتبع فاز بالسعادة الأبدية، ومن كفر فإن الله له بالمرصاد، لا يضر إلا نفسه، فإن الله أعد للكافرين عذاباً محيطاً بهم، ولا نجاة لهم منها أبداً. اهـ.

= عطية العوفي. وعلقه البخاري (٨/ ٥٧٠ ـ مع «الفتح») عنه بلفظ: «أسود كمهل الزيت»، ووصله البيهقي في «البعث والنشور» رقم (٥٥٢) **بسندٍ منقطع**، وانظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣١٠)، و«التخويف من النار» لابن رجب (رقم ٥٦٥، ٥٦٦ ـ بتحقيقي).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الشراب».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٣٠ ـ ١٣٤) بتصرف.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٣]

قال (ﷺ): يقول تعالى بعد ذكره[1] المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بساتين من أعناب محفوفتين بالنخيل[2] المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي: ثمار كثيرة، ﴿فَقَالَ﴾ أي: صاحب هاتين الجنتين ﴿لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذكر».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالنخل».

قتادة: «تلك والله أمنية [الكافر] كثرة الأموال، وعزة النفر»[١]، وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره[٢] وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها[٣] من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها[٤] ظن أنها لا تفنى[٥] ولا تهلك ولا تتلف[٦]، لقلة عقله وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧] أي: في الدار الآخرة تألى على الله ﷻ، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل[٧] كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾... إلخ.

قال (ﷺ): «يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين، وهو آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨]، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الآية، أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية؟! كل أحد يعلمها من نفسه ولا يستند إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلّا هو، خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن[٨]: ﴿لَّٰكِنَّا۠

(١) أخرجه ابن جرير (١٥/٢٦٢)، وما بين المعقوفتين منه، وسقط من الأصل.
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتجبره».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيهما»!
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأرجائها».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا تفرغ».
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وذلك».
(٧) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، وأحمد (١١١٥) من حديث خباب.
(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت[1] الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. وقلت: «**ما شاء الله لا قوة إلا بالله**»، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله[2]، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة، وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**»[3].

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهري: أي: عذاباً من السماء[4]، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زروعها وأشجارها،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فحمد».

(٢) وقفتُ عليه مسنداً في بعض كتب النسب، وهو في (بطاقات) استخرجتُها من المصادر البعيدة التي يندر وقوف الحديثي عليها، ويعسر عليّ الآن استعراضها جميعاً، ورجعت إلى مظنة ما ظننته فلم أفز بخبر، ولم أظفر بأثر!

ولا أعرف لقوله: (ما شاء الله) عند رؤية ما يعجب حديث صحيح، وقد ورد ذلك في حديث عند أبي يعلى في «مسنده الكبير» ـ كما في «المطالب العالية» (٣٦٧٣)، ومن طريقه الذهبي في «معجم الشيوخ» (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) ـ والمحاملي في «أماليه» (٦٥ ـ رواية ابن مهدي ـ بتحقيقي)، ومن طريقه قوام السنة في «الترغيب» (٣٣٩)، والخطيب (٣/ ١٩٨ ـ ١٩٩)، وعبد الغني في «الترغيب في الدعاء» (٦٩) ـ، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١)، والطبراني في «الصغير» (٢/ ٢١٢)، وفي «الأوسط» (٤٢٦١، ٥٩٩٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٥٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٣٩)، و«الشعب» (٤٣٦٩، ٤٥٢٥)، و«الدعوات الكبير» (٤٩٨) **ولكن إسناده ضعيف**، فيه عبد الملك بن زرارة، وعيسى بن عون، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٠١٢)، والثابت في هذا الباب (التبريك) فحسب، والله أعلم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «أمالي المحاملي» رواية ابن مهدي، وسلمته للنشر منذ مدة، يسر الله إظهاره، إنه المانُّ بذلك وحده.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٦٦) عن ابن عباس، **بإسنادٍ ضعيف جداً**، وأخرجه عبد الرزاق =

ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: بلقعاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم، وقال ابن عباس: «كالجُرز الذي لا ينبت شيئاً»[(١)]. وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ[(٢)] إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠] أي: جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه. كما قال الشاعر[(٣)]:

تَظَلُّ جيادُه نَوْحاً عليه مُقَلَّدَةً[(٤)] أعِنَّتُها صُفُونا[(٥)]

بمعنى نائحات عليه، وقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ الآية، يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها، وألهته عن الله ﷻ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾»[(٦)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أهم شيء عندنا في نقل هذه الآيات هو التحذير من

= (١/ ٤٠٤)، وابن جرير (١٥/ ٢٦٦) في «تفسيريهما» عن قتادة، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٤) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وأما أثر الضحاك، فأخرجه ابن جرير أيضاً، وعزاه في «الدر» إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٦٧)، وابن المنذر ـ كما في «الدر» (٤/ ٢٢٢)، وإسناد ابن جرير ضعيف ـ.

(٢) في الأصل: «أفرأيتم»!

(٣) هو عمرو بن كلثوم، والبيت في «شرح القصائد التسع» (٢/ ٦٣١) للنحاس، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» للأنباري (ص٣٨٩).

(٤) في الأصل: «تقلده»! والتصويب من المصادر المذكورة، و«مجاز القرآن» (١/ ٤٠٤)، و«تفسير ابن جرير» (١٥/ ٢٦٧).

(٥) في الأصل: «صفوفاً»! والتصويب من المصادر المذكورة آنفاً.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٣٦ ـ ١٤٠) بتصرف.

الشرك بالله تعالى الذي يدل عليه قول المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾، وقول الكافر بعد نزول العذاب به وذهاب أمواله: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾، ومن ذلك نعلم أن المشرك وإن كان له جاه ومال فمآله إلى الخسران والندامة، وأن الموحد وإن كان فقيراً فمآله إلى الانتصار والغبطة.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٢ ـ ١٠٥]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك وينتفعون به[1] ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢]، ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة نزلاً ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ الآية، قال البخاري بسنده: عن مصعب قال: سألت أبي ـ يعني: سعد بن أبي وقاص ـ عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ الآية، أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين[2]، وقال علي بن أبي طالب[3]

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بذلك».
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٨) وخرجته بتفصيل في تعليقي على «الاعتصام» (١/ ٨٩ ـ ٩٠).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٤١٣، ط. الرشد)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٥١٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٩٣) رقم (١٣٠٠١)، والشاشي في «المسند» (٢/ ٩٦) رقم (٦٢٠)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥) رقم =

والضحاك وغير واحد[١]: هم الحرورية، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص، ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا فإن هذه الآية هي قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ۝﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ثم فسرها[٢] فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية

= (٧٢٦)، وابن جرير في «التفسير» (١٥/ ٤٢٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ق ١١٠) من طريق أبي الطفيل عنه به. **وإسناده صحيح**. وبعضهم ـ كالشاشي ـ ذكره مطولاً جداً، وفيه الشاهد، وفيه قسم آخر، خرجته في تعليقي على «الموافقات» (١/ ٥٢)، وعزاه الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٩٤، ٩٥ ـ بتحقيقي) لـ«جامع ابن وهب» ولعبد بن حميد، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٦٥) لابن مردويه وابن المنذر والفريابي وسعيد بن منصور، وانظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٠/ ٤٤٧ ـ ٤٤٩). وصحّ عن علي أنه فسّر الآية بالرهبان. أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٣/ ١٧٢) رقم (٥٤٨)، وابن جرير في «التفسير» (١٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٩٣/ رقم ١٣٠٠٠)، وابن وهب في «الجامع» (١/ ١٠١ ـ ١٠٢) (رقم ٢٣١ ـ التفسير)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٦٤١)، والخطيب في «الموضح» (١/ ٢٠٥)؛ عن عبد الله بن قيس أبي حميضة؛ قال: سمعتُ علي بن أبي طالب يقول في هٰذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٣]، قال: «إنهم الرهبان الذي حبسوا أنفسهم في السَّواري» **وإسناده صحيح**.

وقال الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٩٥ ـ بتحقيقي): «فقد يجتمع التفسيران في الآية، تفسير سعد بأنهم اليهود والنصارى، وتفسير علي بأنهم أهل البدعة، لأنهم قد اتفقوا على الابتداع، ولذلك فسَّر كفر النصارى بأنهم تأوّلوا في الجنة غير ما هي عليه، وهو التأويل بالرأي».

(١) انظر: «تفسير سفيان الثوري» (ص١٧٩)، «معالم التنزيل» (٤/ ١٩١ ـ مع «تفسير الخازن»)، «الدر المنثور» (٤/ ٢٥٣)، «فتح القدير» (٣/ ٣٠٦).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسرهم».

مقبولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نثقل موازينهم، لأنها خالية عن[1] الخير، قال البخاري[2] بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ليأتين الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، وقال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: علمنا مما نقله الحافظ ابن كثير عن السلف أن هذه الآية وما بعدها تشمل كل من عبد الله على طريقة غير مرضية، فيدخل فيها اليهود والنصارى والوثنيون والخوارج، وكل مبتدع، لأن المبتدع على طريقة مضادة لسنة النبي ﷺ لم تكن في زمانه ديناً فلن تكون ديناً، كما قال مالك رحمه الله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأني سمعت الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وما لم يكن يومئذٍ ديناً لا يكون اليوم ديناً»[4]. ومما يدخل في هذه الآية بلا شك أصحاب الطرائق القدد، الذين ينتسبون إلى التصوف في هذا الزمان، فإنهم يخالفون ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من وجوه:

الوجه الأول: إحداث التفريق بين المسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى في سورة الروم: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وهذا ينطبق على أصحاب الطرائق غاية الانطباق، وقال النبي ﷺ: «**إن بني إسرائيل تفرقوا على**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٩٩ ـ ٢٠١) بتصرف.
(٤) ذكره صاحب «تهذيب الفروق» (٤/ ٢٢٥)، والشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٦٢ و٢/ ٣٦٨ ـ بتحقيقي). وانظر: «الإمام مالك مفسراً» (ص١٦٨).

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[١].

فهل أحدث الصحابة طرائق في الدين، فكانت هناك طريقة بكرية وطريقة عمرية، وطريقة عثمانية، وطريقة علوية، وطريقة جابرية، وطريقة مسعودية... إلخ؟! معاذ الله أن يتفرق أصحاب رسول الله ﷺ في دينهم.

الثاني: إنهم مبتدعون، وكل بدعة ضلالة، فكل مبتدع ضال.

الثالث: إن المتأخرين منهم مع جهلهم وضلالهم لا يريدون وجه الله بعملهم، بل يريدون الدنيا، فينطبق عليهم قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٦] فإن الرجل منهم يدخل بلداً من البلدان لا يملك شيئاً، فيحتال على الناس ويعدهم ويمنِّيهم وما يعدهم إلا غروراً فيقول لهم: من دخل في طريقتي أضمن له سعادة الدنيا والآخرة، وإن لم يدخل الجنة فليحاسبني بين يدي الله من أخذ طريقتي فذنوبه مغفورة بالغة ما بلغت، وقد زعم التجانيون في ما نسبوه[٢] إلى شيخهم أبي العباس أحمد بن محمد التجاني المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ عن ثمانين سنة، أنه قال: واعلموا أنه لا يستطيع أحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بلا حساب ولا عقاب ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩)، وابن وضاح القرطبي في «البدع» رقم (٢٧٠)، والآجري في «الشريعة» (ص١٥ ـ ١٦)، و«الأربعين» رقم (١٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٦٢)، وابن نصر المروزي في «السنة» رقم (٦٢)، والتميمي في «الحجة» رقم (١٦، ١٧)، واللالكائي في «السنة» رقم (١٤٧)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ٢٦٥)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٦) من حديث عبد الله بن عمرو، **وهو حسن بمجموع شواهده**، فله شواهد عديدة من حديث أبي هريرة ومعاوية وأنس وغيرهم، وقد صححه جمع من الحفاظ وخرجت ما ورد في الباب في تعليقي على «الاعتصام» (٣/ ١٥٦، ١٦١)، وانظر: «الصحيحة» رقم (٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) في كلامه هذا، وكذا في «الهدية الهادية» (٣٨) ميل من الهلالي إلى تبرئة التيجاني نفسه، ومما ظفرتُ به في هامش «الهدية» بخط شيخنا العلامة محمد بو خبزة ما نصه: «كان أولى أن يلتمس له العذر قبل هذا الكلام محيي الدين بن العربي، فقد قال هذا وأكثر منه في وصيته بآخر «الفتوحات»! ولكن المحققين حكموا بكفره، وردّته، لموجباتها المتكاثرة، وممن حكموا عليه بذلك المؤلف الهلالي، فما باله لم يسلك هذا المسلك مع التيجاني، بل نراه يميل إلى تبرئته بدون مبرر»!

المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي، ووراء ذلك ما ضمنه لي فيهم سيد الوجود ﷺ أمر لا يحل ذكره، ولا يرى ولا يعرف إلا في الدار الآخرة، بشرى للمعتقد على رغم أنف المنتقد، انظر كتابي: «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»[١].

قلنا: إن الرجل منهم يدخل البلد لا يملك شيئاً، وفي وقت قصير يتزوج أربع نسوة ويشيد القصور ويكون له الخدم والحشم، ويعيش عيشة الأمراء المترفين، مع أنه يزعم أنه يدعو إلى طريقة الزهد في الدنيا والانقطاع إلى العبادة.

الرابع: إن الشرك الذي ينصبه ليصيد به أولئك الجهال، هو الورد وهو أذكار يعطيهم إياها يذكرونها صباحاً ومساءً بشروط يشترطها عليهم من طهارة واستقبال قبلة وتغميض العيون وعدم الكلام، ويزعم لهم أنهم إذا ذكروا تلك الأوراد بالإذن الخاص يدركون أسراراً عظيمة، ويرتقون في مراتب الإحسان إلى أعلى الدرجات، وتكون لهم كرامات ويدركون الولاية قبل موتهم، وإذا ذكروها بالإذن العام لا يكون لهم شيء من ذلك، فيقال له: هذه الأذكار التي تريد أن تعطينا بأسرارها وأنوارها هل هي شيء نزل عليك بطريق الوحي، أم هي مما جاء به النبي ﷺ وأذن الله ورسوله فيها لجميع المسلمين؟ فلا يسعه إلا أن يقول: هي مما جاء به النبي ﷺ فيقال: إذاً أنت كاذب ومحتال! فما أعطانا الله ورسوله منذ قرابة ١٤٠٠ سنة لا يمكن إعطاؤه ولا الإذن فيه؛ لأن ذلك من تحصيل الحاصل وهو محال، وقد نصبت هذا الشرك الشيطاني؛ لتستعبد الناس وتبتز أموالهم وتفسد عليهم دينهم.

الخامس: وهو الطامة الكبرى: أنه يقول لهم: تخيلوا صورتي عند ذكر الورد، وتخيلوا عموداً من النور يخرج من قلبي ويدخل قلوبكم، وهذا كفر، لأن تنوير القلوب لا يقدر عليه إلا الله، وليس مقصودي أن أحصي شرور شيوخ الطرائق فإنها لا تحصى[٢]، ولكني أشرت إلى شيء منها.

---

(١) انظر (ص٨٢) وما بعد.

(٢) للهلالي مقالة نشرت في مجلة «الشهاب» الجزائرية، المجلد الرابع، عدد (١٧١) بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى ١٣٤٧هـ ـ ٨ نوفمبر ١٩٢٨ (ص٣ ـ ٤) بعنوان (معنى الطرقي في العرف)، وله في المجلد نفسه، الأعداد (١٥٠ ـ ١٥٢) مقالة نشرت على ثلاث حلقات بعنوان (الطرائق في الحجاز، داء علاج الطرائق) وله أيضاً في (المجلد الرابع) العدد =

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

[الكهف: ١١٠]

قال القاسمي في «تفسيره»[(١)]: «﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: خصصت بالوحي وتميزت عنكم به ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يخاف المصير إليه أو يأمل لقاءه ورؤيته أو جزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي: في نفسه لائقاً بذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي: من خلقه إشراكاً جليّاً، كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكاً خفيّاً كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه».

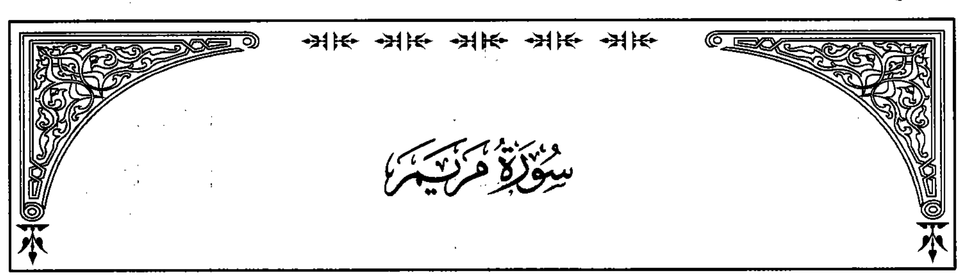
قال (ﷺ): «﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي[(٢)]: كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، ويروى أن رجلاً جاء إلى عبادة بن الصامت، فقال: أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلاً يصلّي ويبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إنَّ الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كله، لا حاجة لي فيه»[(٣)].

= (١٧٠) (ص٣ ـ ٥)، مقالة (سبيل الله وسبل الشيطان، لا طرق في الإسلام).

(١) (١١/١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو».

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/٤٤١) وفيه شهر بن حوشب وهو **ضعيف**، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٩/٢٠٤ ـ ٢٠٥).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٧]

قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: «أنطقه الله بذلك أولاً تحقيقاً للحق في شأنه، وتنزيهاً لله تعالى عن الولد ردّاً على من يزعم ربوبيته وبنوته ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الإنجيل، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: كثير الخير، حيثما وجدت أبلِّغ وحي ربي لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بها هو مناط السعادة[1] والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق في القضاء[2] المحتوم أو جعل الآتي لا محالة كأنه وجد ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي: مستكبراً عن طاعته وأمره. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي فصلت نعوته الجليلة، وخصائصه الباهرة ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: لا ما يصفه به النصارى وهو

---

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «السعادات».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «كالقضاء».

تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه، ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ومن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠]، ثم أشار إلى تتمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي: قويم، من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوي»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: الشاهد هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فلا يعبد إلا الله، فمن عبد الملائكة أو الأنبياء كعيسى بن مريم، أو الصالحين كأمه كمن عبد الشياطين، فهو مشرك وفي الأناجيل الأربعة أدلة صريحة صرح فيها عيسى بأنه عبد الله وأن الله ربه وإلٰهه، انظر كتابي: «البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية وبريء من الألوهية»[٢].

---

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (١١/ ١٢٠ ـ ١٢١).

(٢) ذكر فيه من (ص٥) إلى (ص١٥) نصوصاً صريحة من الأناجيل في إثبات عبودية المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، ابتدأه بقوله: «اقرأ من أول (الفصل الرابع) من «إنجيل متى» إلى الرقم (السادس والسابع)، ففيهما التصريح بأن عيسى عبد، والله سيد ورب، لقوله في (الآية السابعة)، قد كتب أيضاً: «لا تمتحن الرب إلٰهك» وفي هذا (الفصل نفسه) أن الشيطان حمل المسيح وأخذ يطوف به من مكان إلى مكان، فكيف يستطيع الشيطان أن يحمل الرحمٰن؟! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثم أمره الشيطان أن يسجد له ويعبده وأطمعه بمال الدنيا، فكيف يتجرأ الشيطان على الله بمثل هذه الجرأة؟! ولما أراد منه الشيطان ذلك أجابه المسيح بقوله، قد جاء في الكتب السابقة: (لا تسجد إلا للرب إلهك وهو وحده تعبده). انظر (الآية العاشرة) لم يسمّ المسيح نفسه ابن الله، فيما أعلم، وإنما كان يسمي نفسه ابن الإنسان، إلا أنه سمع تسميته بذلك فلم ينكرها ـ بزعم الأناجيل ـ ولا خصوصية له في ذلك.

ففي لغة[١] التوراة والأناجيل، كل تقي بر يسمى ابن الله وفي (الآية التاسعة) من (الفصل =

---

(١) كان للهلالي عناية قوية بترجمات التوراة والإنجيل، ووجدته يذكر واحدةً منها بمدح ودقة في رسالة وجهها للعلامة الأستاذ ربحي توفيق كمال، وهي محفوظة في دار العلوم بلكنو، ووقعت بينهما مباحثات في كلمات =

= الخامس) من «إنجيل متى»: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون». وجاء في (الفصل نفسه) رقم (٤٥): «لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء» وفي رقم (٤٨): «فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السماء كامل». وفي (الفصل السادس) رقم (١): «وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماء»، وفي (الفصل السابع) رقم (٢١) ترجمة كلمة (لورد) LORD هنا، بلفظة: رب إيهاماً للناس أن المسيح هو الله!! ولكن من تأمل بقية الآية يجدها تشهد على المسيح بالعبودية، فالترجمة الصحيحة[١] هكذا: (ليس كل أحد يقول لي: يا سيدي يدخل ملكوت السماء، ولكن الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماء) انتهت ترجمة الآية.

وقد تقدم أن إطلاق الأب على الله جاء في مواضع لا تحصى في الإنجيل، وليس خاصّاً بالمسيح، وجاء في (الفصل ١١) رقم (٣٥): «أحمدك أيها الرب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء والفهماء وألهمتها الأطفال»، وفي (الفصل الرابع عشر) رقم (٢٣): «وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي». أقول: إذا كان هو الله أو جزءاً من الله، فكيف يصلي فالصلاة لا تكون إلا من العبد الفقير المحتاج إلى رحمة. وهكذا أخذ في سرد الأدلة واحداً تلو الآخر، معتمداً على الأناجيل بغير العربية، وبيان تقصد التحريف فيها مُنوِّهاً بذكر محمد ﷺ في الأناجيل مثبتاً (ص١٤ ـ ١٥) من «الأناجيل» **أن القائل بألوهيته عدو الله**، مقرراً أنه **«تستحيل ألوهيته، وتضمحل خرافة الأقانيم»**.

= في «التوراة»، تدلل على سعة اطلاع الأستاذ ربحي، ومدى وثوق العلامة الهلالي بدقته وسعة اطلاعه في هذا الميدان، ووجدت مقالة للعلامة اللغوي النصراني أنستاس ماري الكرملي في مجلته «لسان العرب» المجلد الثامن، أيلول ١٩٣٠م الجزء التاسع (ص٦٦٥ ـ ٦٧٥) بعنوان (ترجمات التوراة)، ومما جاء فيها بعد ذكره لجملة من الأخطاء في الترجمة: «وتتبع كل ما هناك من الهفوات والزلات، والهفوات أمر يطول، ويستلزم وضع كتاب ضخم قائم بنفسه، يبيّن فيه سبب تصحيح تلك المعلولات، أو تلك المفاسد» وقال في آخرها:

«وسوء نقل الألفاظ الاصطلاحية في كل ما جاء في هذه الترجمة يطول طولاً يخرجنا عن موضوع المجلة ويدفعنا إلى معالجة ما ليس من مباحثها فاجتزأنا بهذه الإشارة. فيعلم من هذا البسط المجمل أننا فينا حاجة ماسة إلى نسخة توراة عربية صحيحة العبارة. وإن هذه الأمنية لم تتحقق إلي اليوم. أما نسخة الموصل فهي في نظرنا أحسن من نسخة بيروت وإن كانت دون هذه حسناً في الطبع والضبط والورق. وأما النسخة العربية التي عني بطبعها البروتستان فلا يمكن أن تمسك بالأيدي للغتها الأعجمية وفساد تركيب عبارتها المكتوبة بحروف عربية وهي عن العربية بعيدة بعد الصينية عنها».

(١) ذكرنا في (٣١١/١) أن الهلالي تعلم الإنكليزية على يدي بعثة تبشيرية في الهند، وطلب منها نسخة من «الإنجيل» بالإنكليزية، وقرأها وأثبت منها أن المسيح ﷺ ليس بإله، وله في ذلك كتيب «البراهين الإنجيلية». وقد نشره ـ قبل ـ في عدة مجلات، سبق ذكرها، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الباب الثاني

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٥٠]

قال (ك): «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ واتلُه[1] على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمٰن، الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته وقد ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[2]، وإن كنت من صلبك، وتراني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب والنجاة من المرهوب ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «واتل»!

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول».

﴿١١٧﴾ [النساء: ١١٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده فلا تتبعه تصر مثله ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: عذاب[1] شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا نصيراً ولا[2] مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ الآية، يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده[3] فيما دعاه إليه أنه[4]: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾ يعني أما[5] تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبِّها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك، اقتصصتُ منك وشتمتُك وسببتُك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قاله ابن عباس والسدي وغيره[6]. وقوله: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ قال ابن عباس وغير واحد: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ قال: سويّاً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة[7] فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥] ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾[8]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ناصراً و».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لولده إبراهيم».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير: «قال».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إن كنت لا».
(٦) كذا في الأصل: وعند ابن كثير: «قاله ابن عباس والسدي وابن جريج والضحاك وغيرهم»، وصواب المذكور: «وغيرهما».
وأسنده ابن جرير (١٥/ ٥٥٢) عن السدي وابن جريج والضحاك، وأسنده ابن أبي حاتم (٧/ ٢٤١٠) عن ابن عباس.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٤١٠) رقم (١٣١٤٠)، وابن جرير (١٥/ ٥٥٤)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٧٢)، ولم أظفر إلا بإسناد ابن جرير، **وهو ضعيف**.
(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً[(١)]، أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له»[(٢)].

وقال صاحب «اللسان»: «وحفا بالرجل حَفَاوة وحِفَاوة وحِفاية وتَحَفّى به واحتَفَى بالغ في إكرامه»، ثم قال: «وحَفِي الله بك، في معنى أكرمك الله»[(٣)].

«وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١] وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم[(٤)] من المشركين في ابتداء الإسلام»[(٥)].

قال محمد تقي الدين: أنزل الله تعالى من سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤] وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال (ك): «يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه[(٦)] بدَّله الله من هو خير منهم، وهب[(٧)] له إسحاق ويعقوب، يعني: ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وقال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦١٤) و(١٥/ ٥٥٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٨) و(٧/ ٢٤١٠) رقم (١٣١٤١) وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ١٥١) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٨٩).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢).

(٣) «لسان العرب» (١٤/ ١٨٧ ـ حَفِيَ).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأهلهم».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٢٥٣).

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في الله».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ووهب».

ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فلو لم يكن يعقوب قد نبئ في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف فإنه نبي أيضاً، كما قال رسول الله ﷺ، في الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس؟ فقال: «**يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله**»[1]، وفي اللفظ الآخر[2]: «**أنا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**». وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[3]: يعني: الثناء الحسن، وكذا قال السدي ومالك بن أنس وقال ابن جرير[4]: «إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم، ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن العرب الشماليين كانوا ينتسبون إلى إسماعيل وإبراهيم، ويعظمونهما، فأمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ، أن يحتج عليهم بما صنع إبراهيم مع أبيه حين دعاه إلى التوحيد فأبى، فكانت العاقبة لإبراهيم وذريته، وكانت عاقبة أبيه آزر لما أصر على الشرك، الخسران المبين.

الثانية: كل من عبد غير الله تعالى من الأصنام، والأوثان، والقباب، والغائبين، والأموات، وغير ذلك من المعبودات، فإنه يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً، لأن الذي يسمع جميع الأصوات ويبصر جميع المبصرات في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٣٧٨) بنحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١١٦) **وهو حسن**، وانظر: «الصحيحة» (١٦١٧، ١٨٦٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٥/ ٥٥٧)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٤/ ٢٧٢) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في «تفسيره» المطبوع (٧/ ٢٤١٠) رقم (١٣١٤٣) دون سند، ومذكور أيضاً في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٩٠).

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٥/ ٥٥٧).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

كل مكان، وفي كل وقت، هو الله وحده لا شريك له، والذي يغني أي: ينفع ويضر هو الله وحده لا شريك له، فمن عبد غيره فهو خاسر في الدنيا والآخرة.

الثالثة: المراد بالعلم هنا هو الوحي، فإن الله أوحى إلى خليله إبراهيم وعلّمه التوحيد وأمره بالدعوة إليه، فمن جاءه الوحي وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو حجة عليه، سواء أكان الذي جاء به صغيراً في السن أو كبيراً، متقدماً في الزمان أو متأخراً، والمشركون الأولون والآخرون يخالفون هذا، فالأولون قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥] وقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ﴾ [ص: ٧، ٨] وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وأمر الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤]، والمشركون والمبتدعون المتأخرون يقولون مثل ذلك: لم نزل نرى العلماء ونسمع حديثهم، وما أحد منهم قال لنا: لا تبنوا القباب على قبور الصالحين، ولا تذبحوا لهم، ولا تنذروا لهم، ولا تستغيثوا بهم، ولا تقيموا لهم مواسم وأعياداً، ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾ [ص: ٧] فأشبه المشركون المتأخرون المشركين المتقدمين في أقوالهم وأفعالهم وعداوتهم للتوحيد واتباع السنة، كما قال تعالى: ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١٨].

الرابعة: إن كل من عبد غير الله تعالى فهو عابد للشيطان، ولو عبد الملائكة والأنبياء.

الخامسة: إن كل من أصر على الشرك يمسه عذاب من الرحمٰن في كل زمان ومكان، ولا يجد لنفسه وليّاً ولا نصيراً.

السادسة: إن المشركين في كل زمان ومكان إذا رأوا إماماً مصلحاً يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة آلهتهم وقال لهم: إن آلهتكم لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع دعاءكم ولا تستجيب لكم، ولو سألتموها شربة ماء ما قدرت أن تعطيكم قطرة واحدة، قالوا: هذا يسب آلهتنا وينتقصها، كما قال أبو إبراهيم لإبراهيم، وكما قالت قريش لمحمد رسول الله ﷺ، وكما يقول المشركون اليوم إذا قيل لهم: هذه القباب التي بنيتموها على القبور وصرتم تعبدونها بالذبح والنذر

والاستغاثة والدعاء، كل ذلك يوجب غضب الله عليكم، كما قال النبي ﷺ، فيما رواه مالك في «الموطأ»: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١). يقولون: هذا يسب الأولياء ويتنقصهم.

والأولياء قسمان: أولياء الرحمٰن، وأولياء الشيطان، فأولياء الرحمٰن: يكرهون بناء القباب على القبور، ويكرهون عبادتها، فإذا نهينا الناس عن البناء على القبور وعبادتها فإن عملنا هذا يحبه الله ورسوله ويحبه أولياء الرحمٰن ـ وهم: المؤمنون ـ وإنما يكرهه أولياء الشيطان، ونحن لا نخافهم ولا نبالي ببغضهم، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

السابعة: من سفاهة عقول المشركين في كل زمان ومكان، أنهم يزعمون أن آلهتهم تتصرف في السمٰوات والأرض، وتحيي وتميت، وتغني وتفقر، فإذا جاءهم نبي، أو أتباع نبي، وقالوا لهم: إن آلهتكم لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، يغضبون، ولا يتركون الانتقام لتلك الآلهة، بل يعينونها بأيديهم وألسنتهم، ولم يشعروا أن هذا اعتراف منهم بعجزها، فآزر أبو إبراهيم أراد أن ينتقم لآلهته من إبراهيم، ولم يكتف بانتقامها هي؛ لسفاهة رأيه وتناقضه.

ولما حججت أول حجة سنة ١٣٤١هـ في زمان الشريف حسين، لقيت رجلاً من بلادنا، فيلاليّاً من الغرفة، فدعاني للعشاء، وكان بواباً للملك حسين، فجاءني بطعام ملكي رفيع، وقال لي: يا ولد احفظ دينك وعقيدتك، فإن بلاد المشرق فيها عقائد كثيرة، وأكثرها ضلال، أما بلادنا المغرب فعقيدتهم واحدة على مذهب أهل السنة والجماعة، ومن أغرب هذه الفرق وأعجبها فرقة تسمى (الوهابية)(٢)! وهم في شرق مملكة الحجاز، مجاورون لهذه المملكة، فهؤلاء يكرهون النبي، ولا يحبون أن يسمعوا اسمه، وإذا سمعوه غضبوا وقتلوا من ذكره لهم، وهم لا يقولون: لا إلٰه إلَّا الله محمد رسول الله كما نقول نحن، بل يقولون بدل محمد رسول الله: لا إلٰه إلا الله مالك يوم الدين، فأظهرت له التعجب، ولم يدر أنني من هذه الفرقة!!

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر ـ لزاماً ـ ما قدمناه في (١/ ٦٥) حول هذه التسمية.

وبعد ذلك بقليل استولى الملك عبد العزيز بن سعود على الحجاز، ولما حججت الحجة الثانية، سنة ١٣٤٥هـ، أنزلني الملك عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ في دار الضيافة، فبحثت عن ذلك الرجل الفلالي، فوجدته ودعوته إلى دار الضيافة الخاصة بي، فتغدى معي، فعرف حينئذٍ أنه لما كان ينصحني كان مخطئاً مغفلاً، فسكت وكتم ما في نفسه.

فلما تغدينا ذهبنا إلى المسجد الحرام، فوجدنا الشيخ عبد الظاهر أبا السمح[1] جالساً على الحصباء، وهو إمام المسجد الحرام وخطيبه، وسلمت عليه وجلست معه، فلما جلس رفيقي قال: يا رسول الله!! فقال الشيخ عبد الظاهر: قل: يا الله، فقال: ما أقول: إلا يا رسول الله، يا رسول الله، يا رسول الله، اقطع رأسي إن قدرت، أنا قلت: يا رسول الله أمام الأمير محمد أخي الملك عبد العزيز، ثم التفت إليَّ، وقال: هذا الشر كله ما أصابني إلا بسببك! لا أرافقك أبداً! فتبعته وصرت أتلطف معه لعل الله أن يهديه فهرب ولم أره بعد ذلك.

وحدثني الشريف محمد من أهل مكة في تلك السنة نفسها سنة ١٣٤١، قال لي: كنت مسافراً من المدينة إلى مكة، وكان صاحب البعير الذي أركبه نجديّاً وهابيّاً، فركب خلفي ليستريح فتنهدت وقلت: يا رسول الله، فلطمني لطمة أفقدتني صوابي وكدت أسقط من ظهر البعير، وقال لي: يا حمار ما تقول: ياالله؟! قال: فسكتُّ على مضض.

ولما وصلت إلى مكة ودخلت بيتي تركته على الباب ينتظر الكراء، فجاءني أولادي يسلمون علي، فقلت لهم: يا أولادي! إنَّ هذا النجدي الذي عند الباب لطمني لطمة ما أصبت بمثلها في عمري كله، لا معلم المكتب، ولا والدي، ولا أحد لطمني مثل تلك اللطمة، فأحضروا عصيّاً، وقالوا له: ادخل، فلما دخل ضربوه حتى طاب خاطري وكففتهم عنه، فقلت له: أيها الشرقي، هذا جزاء اللطمة التي لطمتني.

وينبغي أن أنبه هنا على أن ذلك الأخ النجدي مع حسن نيته ارتكب خطأً، فهو يعلم أن الملك حسيناً كان يعادي أهل نجد، وقد منعهم من الحج اثنتي عشرة سنة، فكان ينبغي له أن يتلطف مع ذلك الرجل، ويقول له: يا أخي صلِّ

---

(١) نشر العلامة الهلالي في مجلته «لسان الدين» السنة الأولى، الجزء السادس، محرم ١٣٦٥هـ ـ دسمبر ١٩٤٦م (ص١٥ ـ ١٩) مقالة عن صديقه عبد الظاهر، وهي بعنوان (لمحة من ترجمة الأستاذ أبي السمح إمام الحرم المكي)، وهي مودعة في كتابي «مقالات الهلالي» يسر الله نشره بخير وعافية.

على النبي واسأل حاجتك من الله واستغث به وحده، وتوسل إلى الله بمحبة النبي واتباع النبي والصلاة على النبي، فإن الله لا يرضى أن يدعى معه غيره، والنبي ﷺ لا يرضى بذلك، قال تعالى في آخر سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ والله يغفر لنا وله.

الثامنة: لما دعا إبراهيم الخليل أباه إلى الإسلام وامتنع من قبوله وغضب على إبراهيم وتوعده بالعقاب اعتزله، أي: تبرأ منه ومن دينه، وهذا هو الواجب على الموحد إذا دعا أقاربه إلى توحيد الله تعالى وامتنعوا من قبوله أن يعلن براءته من شركهم، فإن الله تعالى يعوضه خيراً منهم، كما عوض إبراهيم بإسحاق ويعقوب، وبالمال الكثير، وستأتي زيادة على هذا في (سورة الممتحنة) إن شاء الله.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دون الله[١] آلهة لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها[٢]، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، قال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقرر وتكرر في كتاب الله تعالى أن الآلهة أي: كل من عبد من دون الله يتبرأ من عابديه يوم القيامة، ويكون عدواً لهم كعيسى بن مريم والملائكة، وسيأتي مزيد على هذا إن شاء الله في (سورة سبأ)، وفي (سورة فاطر)، وفي (سورة الأحقاف).

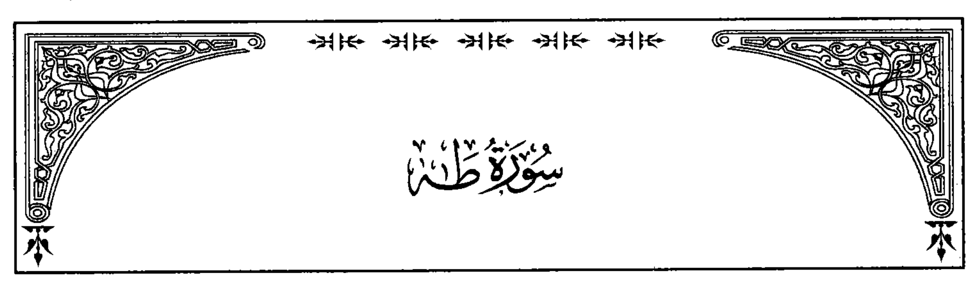
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دونه».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بهم ويستنصرونهم».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٢٩٤).





الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ١ ـ ٨]

قال (ك): «قد[١] تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وقال جويبر عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله الله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾[٢].

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في «الصحيحين» عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: **«من**

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «تفسيره» ـ ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٠٥) ـ **وإسناده ضعيف جداً**، جويبر متروك. وورد نحوه عن ابن عباس عند ابن جرير (١٦/ ١٠٢)، وعزاه في «الدر» (٥/ ٥٤٩) لابن مردويه، **وإسناده ضعيف جداً**.

وورد عن علي بخلافه عند البزار في «البحر الزخار» (٩٢٦)، **وإسناده ضعيف**، ونحوه في «الشعب» (١٤١٦، ط. الهندية) عن ابن عباس، ومن مرسل الربيع بن أنس، أسنده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ٤١ ـ ٤٢)، وعزاه في «الدر» لعبد بن حميد وابن المنذر، وروي على وجوه وألوان وضروب أخرى، لم أر في أسانيدها ما يركن إليه، ويعتمد عليه، والله أعلم.

يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[١]. ما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم في ذلك، حيث قال بسنده عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»**[٢]. إسناده جيد، (وثعلبة بن الحكم) هذا، هو: (الليثي) ذكره أبو عمر في «استيعابه»[٣] وقال: «نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب».

وقال قتادة: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ لا والله ما جعله شقاء ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة، ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله[٤] رحمة رحم بها عباده، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه، وقوله: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو[٥] تنزيل من ربك[٦] رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها.

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وإن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٨٤) رقم (١٣٨١) وعنه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٤٨٧) رقم (١٣٨٦) من حديث ثعلبة بن الحكم، وذكره الهيثمي في «المجمع» وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون»! وتابعه السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٢٢١)! وفي إسناده العلاء بن مسلمة الرواسي، قال ابن حبان: «يروي الموضوعات عن الثقات»، وقال ابن طاهر: «كان يضع الحديث»، وقال الأزدي: «لا تحل الرواية عنه». نعم؛ للحديث شواهد، ولكنها شديدة الضعف. وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٨٦٧).

(٣) انظر: «الاستيعاب» (ص١٠٦، ط. دار الأعلام).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسله».

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ أي: الجميع في ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه[1] ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلٰهه لا إلٰه سواه ولا رب غيره، وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ المراد بالثرى: الأرض»[2].

وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ قال البيضاوي[3]: «أي: وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس وفيه تنبيه على أن شرع الذكر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله، بل لتصوير الذكر في النفس[4] ورسوخه فيها، ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع».

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ «أي: الذي أنزل عليك القرآن هو[5] الذي لا إلٰه إلا هو، ذو الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة (الأعراف) ولله الحمد والمنة»[6].

قال محمد تقي الدين: وها أنا ذا أذكر شيئاً مما ذكره الحافظ (ﷺ) مما يتعلق بالأسماء الحسنى في سورة الأعراف:

«عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر**»، أخرجاه في «الصحيحين»[7].

ثم ذكر أن الترمذي رواه في «جامعه»[8]، وزاد ذكر الأسماء التسعة

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تصريفه».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١١٠ ـ ١١٢) بتصرف.
(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٤٣).
(٤) في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «النفس بالذكر».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٣١٥).
(٧) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) وفصّلت في تخريجه في تعليقي على «الحنائيات» (١٢٨).
(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» ـ كما في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٩٠) ـ وابن منده في التوحيد (٢٣٢، ٢٤٥، ٢٦٠، ٣٢٢، ٣٦٦) والزجاج في «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص٢)، وأبو بكر الإسماعيلي في «معجمه» (٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩)، =

= وابن حبان (٨٠٨)، والطبراني في «الدعاء»، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص١٤٧)، وفي «المستدرك» (١/١٦)، والبغوي (١٢٥٧)، والبيهقي (١٠/٢٧) وفي «الأسماء والصفات» (٥) وفي «الاعتقاد» (١٨ ـ ١٩) و«الدعوات الكبير» (٢٦٢)، و«الشعب» (١٠٢)، وأبو نعيم في «جزء طرق حديث: إن لله تسعة وتسعين اسماً» رقم (١٣ ـ بتحقيقي)، وأبو إسماعيل الهروي في «الأربعين في دلائل التوحيد» (٦)، وعبد الغني المقدسي في «التوحيد» رقم (٢٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، وابن حجر في «جزئه في أسماء الله الحسنى» رقم (٢٩ ـ ٣٤ ـ بتحقيقي) من طريقين عن الوليد بن مسلم: ثنا شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه.

قال الترمذي: «هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح».

قلت: لم ينفرد به صفوان عن الوليد بن مسلم، فقد تابعه موسى بن أيوب النصيبي، وثقه العجلي في «تاريخ الثقات»: رقم (١٦٥٥ ـ بترتيب الهيثمي)، وقال عنه أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/١/١٣٤ ـ ١٣٥) رقم (٦٠٩): «صدوق».

أخرجه من طريقه الحاكم في «المستدرك» (١/١٦)، و«معرفة علوم الحديث» (١٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٥)، و«الدعوات الكبيرة» رقم (٢٦٢)، وابن منده (٢/ ٨٩) رقم (٢٣٢)، ومن طريقه: ابن حجر في «جزئه» رقم (٣٤).

قال الحاكم عقبه: «هذا حديث قد خرجاه في «الصحيحين» بأسانيد صحيحة، دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما: أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله وذكر الأسامي فيه ولم يذكرها غيره، وليس هذا بعلة!! فإني لا أعلم اختلافاً بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب»!!

كأنه يريد أن هؤلاء رووه عن شعيب بدون سياق الأسماء ـ وفصلت بيان ذلك في تعليقي على «جزء أبي نعيم» رقم (١٢) ـ بخلاف الوليد، ولا شك أن الزيادة من الثقة مقبولة ولا سيما إذا كان حافظاً فليست العلة عندهما مطلق التفرد بل احتمال كون السياق مدرجاً من بعض الرواة، ويؤيده مخالفة روايات في سياق الأسماء، وبيّنا هذه المخالفة في تعليقنا على «جزء أبي نعيم» الأرقام (١٨، ٢٠ ـ مهم ـ ٥٢).

بل وقع فيه اختلاف بين الرواة أنفسهم عن صفوان، ففي رواية جعفر الفريابي «المانع»: بدل «الرافع»، وفي رواية الطبراني: «القائم الدائم» بدل «القابض الباسط» و«الشديد» بدل =

. . . .

= «الرشيد» وقدم وأخر كثيراً ووقع عنده: «الأعلى المحيط مالك يوم الدين»، ولم يقع عنده: «الودود المجيد» ولا «الحكيم» وفي روايته: «المغيث»، بدل «المقيت» ولم يقع عنده: «الحليم» وأثبت في مطبوع رواية الطبراني «المجيد»، والصواب أنها «المجيب».
قال البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨): «ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة، وكذا في حديث الوليد بن مسلم ولهذا الاحتمال ترك البخاري ومسلم إخراج حديث الوليد في «الصحيح»».
ونقله عبد العزيز النخشبي[1] عن كثير من العلماء، كما في «فتح الباري»: (١١/ ٢١٥) وفيه أيضاً: «وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه، والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج».
ونقل عبد الغني المقدسي في «التوحيد» (ص٥٠) عن النخشبي قوله: «ويقال: إن هذه الأسماء إنما جمعها وأخرجها الوليد بن مسلم من كتاب الله ﷻ، ورواها في الحديث، ولم تكن في الحديث، وإنما الحديث هو الذي رواه أبو اليمان، والله أعلم».
قلت: أخرج عثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على المريسي» (١٢ ـ ١٣) من طريق هشام بن عمار قال: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا سعيد بن عبد العزيز: «لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها كلها دخل الجنة» وقال: «وكلها في القرآن: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾... وسرد الأسماء.
وهذا يؤكد أن سرد الأسماء في الحديث من قول سعيد، أدرجه الوليد في متن الحديث عن شيخ له شامي هو التنوخي الدمشقي، ثقة من أتباع التابعين، اختلط في آخر عمره.
وقد سبق إلى هذا الاحتمال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٧٩) قال رحمه الله تعالى: «وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي ﷺ، وإنما كل منهما من كلام بعض السلف؛ فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه؛ ولهذا اختلفت أعيانهما عنه، فروى عنه إحدى الروايات من الأسماء بدل ما يذكر في الرواية الأخرى؛ لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة وهذا تارة واعتقدوا ـ هم وغيرهم ـ أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة ليست شيئاً معيناً، بل من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة أو: إنها وإن كانت معينةً؛ فالاسمان اللذان يتفق معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه، كالأحد والواحد؛ فإن في رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه، رواها عثمان بن سعيد «الأحد» بدل «الواحد» و«المعطي» بدل «المغني» وهما متقاربان، وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن خليد بن دعلج عن قتادة عن ابن سيرين عن أبي هريرة. =

---

(١) عبارته في تخريجه لـ«الحنّائيات» رقم ٤٨): «ويقال: إنّ هذه الأسماء إنما جمعها وأخرجها الوليد بن مسلم من كتاب الله ﷻ، ورواها في الحديث، ولم تكن في الحديث».

. . . .

= ثم قال هشام: وحدثنا الوليد: حدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك، وقال: «كلها في القرآن ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾ . . .» مثل ما ساقها الترمذي، لكن الترمذي رواها من طريق صفوان بن صالح، عن الوليد عن شعيب، وقد رواها ابن أبي عاصم، وبين ما ذكره هو والترمذي خلاف في بعض المواضع؛ وهذا كله مما يبيِّن لك أنها من الموصول المدرج في الحديث عن النبي ﷺ في بعض الطرق، وليست من كلامه».

وقال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٦ ـ ٩٧) أيضاً: «والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يذكر فيه: المنتقم» فذكر في سياقه: «. . . البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف. . .» ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز ـ أو عن بعض شيوخه ـ ولهذا لم يروه أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي، رواه من طريق الوليد بن مسلم بسياق، ورواه غيره باختلاف الأسماء وفي ترتيبها يبين أنه ليس من كلام النبي ﷺ، وسائر من روى هذا الحديث، عن أبي هريرة، ثم عن الأعرج، ثم عن أبي الزناد، لم يذكروا أعيان الأسماء، بل ذكروا قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة**» وهكذا أخرجه أهل «الصحيح»، كالبخاري ومسلم وغيرهما، ولكن روي عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث ابن سيرين عن أبي هريرة، ورواه ابن ماجه، وإسناده ضعيف، يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي ﷺ وليس في عدد الأسماء الحسنى عن النبي ﷺ، إلا هذان الحديثان!!

وكلاهما مروي من طريق أبي هريرة، وهذا مبسوط في موضعه».

وقال أيضاً في «مجموع الفتاوى»: (٢٢/ ٤٨٢): «إن التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديثٌ صحيحٌ عن النبي ﷺ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة، وحفاظ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث ثانٍ أضعف من هذا، رواه ابن ماجه، وقد روي في عددها من جمع بعض السلف».

وقال ابن كثير في «تفسيره»: (١/ ٢٠): «وجاء تعدادها في رواية الترمذي وابن ماجه، وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان»، وقال أيضاً فيه (٦/ ٤٦١ ـ ٤٦٣): «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ: أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: إنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم».

ونقله عنه الشوكاني في «تحفة الذاكرين» (٥٤) وذكر قبل ذلك أن حديث الترمذي قال فيه النووي في «الأذكار»: «حديث حسن»!! قلت: نعم كذا قال في «الأذكار» (٩٤)!! وقال الشوكاني أيضاً: «وإن الحاكم وابن حبان صححاه»!!

قلت: صححه الحاكم لشواهده!! ثم قال الشوكاني: «ولا يخفاك أن هذا العدد قد =

= صححه إمامان وحسنه إمام، فالقول بأن بعض أهل العلم جمعها من القرآن غير سديد! ومجرد بلوغ واحد أنه رفع ذلك لا ينتهض لمعارضة الرواية ولا تدفع الأحاديث بمثله».

قلت: وفي كلامه مناقشات:

الأولى: نعم، كلامه صحيح!! لو سلم مما ذكر آنفاً من النظر في سائر طرق الحديث والانتباه إلى الاختلاف والاضطراب والتدليس من قبل الرواة.

الثانية: ليس التصحيح والتحسين قائماً على القلة والكثرة، وإنما هو وفق القواعد المقررة عند أهل العلم المختصين بذلك.

الثالثة: إن ابن حبان والحاكم متساهلان في التصحيح، أما النووي فصنعته تحقيق الأقوال الواردة في الفقه الشافعي، وليس له قدم راسخة في علم الحديث، وصدق السيوطي عندما قال فيه في «المنهج السوي»: «كانت تصنيفه تحصيلاً، وتحصيله تصنيفاً» أو ما معناه، ولذا أمر هو تلميذه ابن العطار بغسل ألف كراس من كتبه، كما صرح به في «تحفة الطالبين»: (٩٥ ـ بتحقيقنا)، رحمه الله رحمة واسعة.

وانظر تتمة مناقشة كلام الحاكم في تعلقينا على «جزء أبي نعيم» رقم (٥٢) مفصلاً.

الرابعة: لم ينفصل البحث مع الشوكاني رحمه الله بالقول بتصحيح الحديث، وإنما رد حجة واحدة لمضعفيه، بدليل قوله في آخر كلامه عليه: «وفي إسناده ضعف، وفي الباب غير ما ذكر وقد أطال الكلام أهل العلم على الأسماء الحسنى، قال ابن حزم: جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً».

قلت: كلامه في «المحلى» (٨/ ٣١) فانظره فيه كاملاً.

والعجب من الأستاذ رجائي بن محمد المصري المكي، إذ نقل في رسالته «الترشيد في اعتبار حديث الأسماء برواية الوليد»: (٤٦ وما بعدها) تحت عنوان «ذكر من رجح قبول حديث أبي هريرة الذي ذكر فيه تفصيل الأسماء التسعة والتسعين برواية الوليد بن مسلم» تصحيحه أو قبوله عن علي بن المديني، وصدقة بن الفضل أبي الفضل المروزي، وأبي عيسى الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنووي والبوصيري وابن حجر والشوكاني والقرطبي والرازي!!

ولم يورد كلاماً لأول اثنين عن الحديث، وإنما اكتفى بنقل توثيق الوليد عنهما!! ولا يستلزم ذلك أنهما يصححان أحاديثه كلها! وإلا فيلزمه القول: بأن كل من وثقه ـ كأحمد وأبي حاتم وأبي زرعة الرازيين وأبي مُسْهِر وغيرهم ـ يقولون بصحة هذا الحديث!! وأنى له نقل ذلك عنهم!! لا سيما وأن الوليد مدلس تدليس التسوية، وهذا النوع من التدليس يسمى عند المتقدمين (تجويداً) فيقولون: جوّده فلان، يريدون ذكر فيه من الأجواد وحذف الأدنياء، وسماه المتأخرون (تدليس التسوية) وذلك أن المدلس الذي سمع الحديث من شيخه الثقة عن ضعيف عن ثقة، يسقط الضعيف من السند، ويجعل الحديث عن شيخه الثقة عن الثقة الثاني بلفظ محتمل، فيستوي الإسناد كله ثقات، وهو شر أنواع التدليس وأفحشها؛ لأن شيخه ـ وهو الثقة الأول ـ ربما لا يكون معروفاً بالتدليس، فلا يحترز =

= الواقف على السند عن عنعنة وأمثالها من الألفاظ المحتملة التي لا يقبل مثلها من المدلسين، ويكون هذا المدلس الذي يحترز من تدليسه قد أتى بلفظ السماع الصريح عن شيخه، فأمن بذلك من تدليسه وفي ذلك غرر شديد! ولا يقال في مثل هذا النوع: وقد صرح بالتحديث!! لا بد من التصريح بالتحديث من قبل كل من فوق المدلس.
والنصوص في تدليس الوليد تدليس التسوية كثيرة لا تخفى على طالب الحديث.
والمتأمل في كلام ابن حجر على الحديث في «الفتح» ـ ولم ينقل الأستاذ رجالي إلا منه ـ و«التلخيص» يجد أنه يقول: بأن سرد الأسامي من إدراج الوليد! وقد أملى عدة مجالس يثبت ذلك بالتفصيل، نشرناه على حدة، ولله الحمد والمنّة.
وكذا البوصيري: فإن كلامه صريح بتضعيف هذه الرواية في «مصباح الزجاجة»: (٣/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) وتعلق المذكور بقوله: «وطريق الترمذي أصح شيء في هذا الباب»!! ولا يفهم من ذلك أنه يصححه! والأعجب من ذلك كله: عد الترمذي في سلك مصححي الحديث أو قابليه وقد قرأت قوله في «جامعه» (٥/ ٥٣١) آنفاً فيه: «ليس له إسناد صحيح»!!
أما الرازي، فقال في كتابه «لوامع البينات شرح أسماء الله والصفات» (٨٤ ـ ٨٥):
«وإن كثيراً من العلماء سلموا أن هذه الرواية المشتملة على ذكر الأسماء ليست في غاية القوة، إلا أن هذه الأسماء والصفات لما كان أكثرها مما نطق به القرآن، والأحاديث الصحيحة، ودل العقل على ثبوت مدلولاتها بأسرها في حق الله تعالى كان الأولى قبول هذا الخبر».
قلت: أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، فما دل النص عليها منها آمنا به، واعتقدناه، والمبحث في الأسماء الواردة في الحديث: هل هي من إدراج الرواة، واستنبطوها من القرآن أم نطق بها المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فجواب الرازي المذكور لا يفيد شيئاً من ناحية الصنعة الحديثية مع الإشارة إلى دندنته حول ضعف الحديث، وعدم ثبوته وإن لم يقطع بذلك.
أما القرطبي فقد صحح الحديث في كتابه «الأسنى» كما ذكر في «تفسيره» (٧/ ٣٢٥)، وسبقه ابن العربي المالكي في «أحكامه» (٤/ ٨٠٤) بناءً على وجوده في «صحيح الترمذي»!! وقد صرح بذلك ابن العربي، فقال (٤/ ٨١٦): «ولا يَدعُوَنَّ أحدٌ منكم إلا بما في الكتب الخمسة، وهي كتاب «البخاري»، و«مسلم»، و«الترمذي»، و«أبي داود»، و«النسائي»، فهذه الكتب هي بدء الإسلام، وقد دخل فيها ما في «الموطأ» الذي هو أصل التصانيف، وذروا سواها، ولا يقولَنَّ أحدٌ: أختار كذا، فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله...».
وفي إطلاق هذا الكلام نظر! إذ ما في عدا «الصحيحين» الحسن والضعيف أيضاً، ورحم الله العراقي حين قال في «ألفيته» فيمن سمى «جامع الترمذي»: «صحيحاً»:

ومن عليها أطلق الصحيحا ... فقد أتى تساهلاً صريحا

ووجدت ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٢١٧) ينقل عنه قوله: «يحتمل أن تكون الأسماء =

والتسعين وقال: «حديث غريب»، ثم رجَّح أن ذكر الأسماء مدرج من كلام بعض الرواة ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، ثم قال: «إن أسماء الله [غير][1] منحصرة في [تسعة وتسعين]»[2]، واستدل على ذلك بالحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»[3]، عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ، أنه قال: **«ما أصاب أحداً**

= تكملة الحديث المرفوع، ويحتمل أن تكون من جمع بعض الرواة وهو الأظهر عندي».
ولعله حسن سند حديث الترمذي مع قوله بالإدراج، فيزول حينئذٍ الإشكال، فتأمل!
ثم وجدت نقل ابن حجر عن ابن العربي في كتابه: «عارضة الأحوذي» (١٣/ ٣٤)، وعرّف فيه بالأسماء على وجه تفصيلي حسن، فراجعه فإنه مفيد.
وأخيراً. . . فقد نص على أن سرد الأسماء من الإدراج الواقع في المتن: الغماري في «تسهيل المدرج إلى المدرج» رقم (٦٨)، و«الجامع المصنف مما في الميزان من حديث الراوي المضعف» (١/ ٤١)، و«ضوء الشموع» (١٦).
ونقل ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٢١٧) ضعف الحديث عن الداودي وأبي الحسن القابسي.
والخلاصة: الحديث ضعيف، يكفي للحكم بضعفه علة واحدة من علله، وهي الاضطراب في متنه، ولا أدري لم يتردد بعضهم في تضعيفه، مع أنهم يضعفون الحديث بأقل من هذا!!
ولمزيد من الاطلاع. ينظر: «الفتح» (١١/ ٢١٤ ـ ٢١٨)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٧٢ ـ ١٧٥)، و«طرح التثريب» (٧/ ١٤٧ ـ ١٥٦)، و«سبل السلام» (٤/ ١٠٨ ـ ١١٠)، و«نيل الأوطار» (٨/ ١٩٣)، و«تحفة الأحوذي» (٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦٣)، و«ضعيف الجامع الصغير» رقم (١٩٤٣ ـ ١٩٤٦)، و«مشكاة المصابيح» رقم (٢٢٨٨).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليست».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التسعة والتسعين».
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢٥٣) و«المسند» (١/ ٢٢٣) رقم (٣٢٩)، والحارث بن أبي أسامة (١٠٦٣ ـ «زوائد الهيثمي»)، والبزار (١٩٩٤) أو (٣١٢٢ ـ «زوائده»)، والشاشي (١/ رقم ٢٨٢)، وأبو يعلى (٩/ ٥٢٩٧)، وابن منيع ـ كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٦/ ٤٧٨) ـ في «مسانيدهم»، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٢)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدّة» (٤٩)، وابن حبان (٩٧٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢) وفي «الدعاء» (١٠٣٥)، والحاكم (١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨) و«الدعوات الكبير» (١٦٤) و«القدر» (٤٦١)، والشجري في «الأمالي» (١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣) وقوام السنة الأصبهاني في «الترغيب» (١٣٠٤)، والدينوري في «المجالسة» (٥/ ١٨٠٣ ـ بتحقيقي)، وصححه شيخنا الألباني، وانظر: «الصحيحة» (١/ رقم ١٩٩)، و«العلل» للدارقطني (٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) وتعليقي على «المجالسة» (١٨٠٣).

قط همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي، إلا أذهب الله حزنه وهمَّه وأبدله مكانه فرحاً» فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «**بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها**»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: أسماء الله توقيفية، لا يجوز لنا أن نسمي الله تعالى إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، وفي هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن الجهال في كل زمان ومكان يظنون أن عبادة الله تعالى شقاء، لما فيها من تعب الأجسام بزعمهم، والصبر على الآلام في الحر والقر والجهاد في سبيل الله وما يترتب عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى في الله، هذا من بلادتهم وغلظ طبعهم، فإن كل من أحب شيئاً يتلذذ بتحمل الأذى في سبيله، كما قال المتنبي[٢]:

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتَك تَرْضى والأنامُ غِضَابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

على أن الله ﷻ جعل العاقبة للمتقين والفوز والنصر لهم، وجعل للمجاهدين إحدى الحسنيين، كما قال تعالى في سورة التوبة ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة: ٥٢] وروى مسلم في «صحيحه»

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٦٠ ـ ٤٦٤) بتصرف.

(٢) البيتان للمتنبي يخاطب بهما أبا فراس الحمداني، وهما في «ديوانه» (٢٤) و«يتيمة الدهر» (١/ ٦٩) و«شرح ديوان أبي الطيب» للمعري (٢/ ١٩٦)، وذكرت في كتابي «شعر خالف الشرع» أن فيها غلوّاً، واستحسن ابن تيمية وابن القيم قولهما في حق الرب ﷻ، وعبارة ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠١، ط. الفقي): «ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى، إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله، إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعاً ولا ضرّاً» وذكرهما، وزاد ثالثاً:

إذا صَحَّ مِنكَ الوُدُّ فالكلُّ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ التُّرابِ تُرابُ

من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**عجباً للمؤمن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر الله عليها فكان له خير، وإن أصابته ضراء صبر عليها فكان له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن**»[١]. أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فلذلك قال المشركون من أهل مكة لما رأوا النبي ﷺ وأصحابه يقومون بالليل يصلون ويتهجدون بالقرآن، قالوا من جهلهم: أنزل هذا القرآن لشقاء محمد وأصحابه، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾[٢].

الثانية: إن كل من رزقه الله القرآن وحفظ ألفاظه ولم يتدبره ولم يعمل به بل تأكل به أو سحر به أو قرأه رياء وسمعة وافتخر به، فإنه يكون شقاءً عليه ووبالاً.

الثالثة: المراد بالفقه في الدين: فهم معاني الكتاب والسنة، إذ هو الذي كان يسمى فقهاً، في خير القرون قرن النبي ﷺ، والذي يليه، والذي يليه، أما الفروع المولدة أو المستنبطة بلا دليل فليس ذلك بفقه.

قال أبو عمر بن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدته التي ذمَّ بها المقلِّدين، وذكرها في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»[٣]:

لا فَرقَ بين مقلِّدٍ وبهيمةٍ ... تنقادُ بين جنادلَ ودعاثرِ
فإذا اقتديتَ فبالكتابِ وسنّةِ الـ ... ـمبعوثِ بالدِّينِ الحنيفِ الطَّاهرِ
وإذا الخلافُ أتى فدونَك فاجْتَهدِ ... ومعَ الدَّليلِ فَمِلْ بفهمٍ حَاضرِ
وقِسِ الفروعَ على الأصول ولا تَقِسْ ... فَرعاً بفرعٍ كالجهولِ الحائرِ

والفرق بين قياس الفروع على الأصول وقياس الفروع على الفروع، هو: إن الأول قياس شيء غير مذكور في الكتاب والسنة على شيء مذكور فيهما، لوجود الشبه التام بينهما، كقياس الأرز في إخراج صدقة الفطر على البُرِّ والشعير، فإن القوت والادخار[٤] يحصلان في الأصل الذي هو البُرِّ والشعير،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «تفسيره» ـ ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٠٥) ـ من معضل الضحاك، وفيه جويبر وهو ضعيف جدّاً؛ نعم، وصله ابن جرير (١٦/ ١٠٢)، بنحوه عن ابن عباس ولكن **إسناده ضعيف جدّاً** أيضاً، فهو مسلسل بالعوفيين، ونسبه في «الدر المنثور» (٥/ ٥٤٩) إلى ابن مردويه، وسبق ذكره، والكلام عليه.

(٣) (٢/ ٩٩٠) وسيأتي ذكرها، وتعليق المصنف عليها في (٣/ ١٧٤) و(٤/ ٦٢).

(٤) علِّيَّةُ المطعومات من الخلاف المتشعب بين الفقهاء، وله وزن، والذي اختاره المصنف =

وفي الفرع الذي هو الأرز، فلا نشك في أن الشارع لما ذكر الأنواع التي تخرج منها وهي البر، والشعير، والزبيب، والأقط ـ وهو اللبن المخيض بعد تجفيفه ـ ما أراد هذه الأشياء لذاتها، وإنما ذكرها لما فيها من التغذية، فكل ما أشبهها في ذلك فهو مثلها، فهذا قياس الفرع على الأصل. أما قياس الفرع على الفرع، فهو أن يفتي شخص غير معصوم باجتهاده في مسألة لتحليل أو تحريم، فيجيء المقلد ويجد شيئاً مشابهاً لما أفتى به ذلك المجتهد فيقيسه عليه بلا دليل من الكتاب والسنة(١).

= هو مذهب المالكية، ولي عنه كلمة محررة؛ انظرها في «شرحي على الورقات» (٥٤٨ ـ ٥٥٣).

(١) إن الاستنباط من كلام المجتهد على جانب من الضعف، فإن جاز الاستناد إليه فعلى قدر الضرورة مع وجوب الاحتياط، ويشتدُّ الأمرُ إذا علمنا أن أكثر المسائل المدوَّنة في كتب الفروع ليست من نص الإمام، ولا مستنبطة من نصه، بل كل متأخر يستنبط من كلام من قبله، ففي مذهب الشافعي ـ مثلاً ـ تجد دحلان يستنبط من كلام الباجوري، والباجوري يستنبط من كلام البجيرمي، والبجيرمي يستنبط من كلام الشبراملسي، والشبراملسي من كلام ابن حجر، وابن حجر من كلام الزركشي، والزركشي من كلام النووي، وهكذا..
ولعلك لا تصل إلى الإمام إلا بعشر درجات وأكثر! هذا مع أن كثيراً من العلماء يبنون الأحكام على استحسانهم، ومنهم من غلب عليه الميل إلى بعض المبتدعة، وكثير منهم من كان يعتقد الولاية لكل من حُكي عنه ضرب من الغرائب التي يسمونها كرامات، ويتعصب له، ويؤلف في فضائله، ويكاد يجعل أقواله براهين قطعية، ومنهم من كان يعرض له الميل إلى أهل الدنيا والتعصب لهم، ومنهم من كان بينه وبين علماء عصره منافسة تحمله على مخالفتهم، كما وقع في قضية الصلاة المبتدعة في ليلة أول جمعة من رجب، كما حكاه أبو شامة في «الباعث» (ص٢٠٩ ـ بتحقيقي).
وبالجملة فالعوارض المشككة في صحة أقوالهم كثيرة.
وما مَثَل الشريعة إلا مَثَلُ ينبوع يخرج من جبل ويجري إلى مراحل كثيرة، وقد تكفَّل الملك بحفظ مجراه وتنظيفه ومنع اختلاط الأوساخ والأقذار والمياه المتغيرة به، وهناك سَوَاقٍ قد استقت منه، ويجري فيها من مائه إلى مراحل كثيرة أيضاً، ولكن الملك لم يتكفل بحفظها ولا حراستها؛ فهي مُعرَّضة لاختلاط الأقذار والأوساخ والمياه الرديئة والمتغيرة بمائها، وكثير من تلك السواقي قد عَظم وغزُر ماؤه، فمن الناس من يستقبل من تلك السواقي ساقية أو ساقيتين أو أكثر؛ فيملأ من مائها بحيرة، ومنهم من يتجشم السفر إلى المجرى الذي تكفَّل الملك بحفظه فيملأ جَرَّة أو جرتين أو ما قُسِمَ له.
والمقصود أن الاستنباط من المذاهب جائز بقدر الضرورة، فمن كان أهلاً للاستنباط واضطُرَّ إليه في مسألة، ولم يقدر على تحصيل ما هو أوثق منه، واحتاط بقدر إمكانه؛ فلا حرج عليه إن شاء الله وإن أخطأ، وكذلك من تبعه ولم يقدر على تحصيل ما هو أوثق من قوله، ومع ذلك احتاط بقدر الإمكان. =

الرابعة: قوله[(١)]: «**وقعد على كرسيه**»، مذهب السلف الإيمان بمثل هذا مع تنزيه الله تعالى من مشابهة المخلوقين، وسيأتي كلام (ك) في هذا المعنى.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٣ ـ ١٥]

قال محمد تقي الدين: طالعت كل ما عندي من «التفاسير» لأجد تفسيراً تطمئن نفسي إليه في قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ فلم أجد شيئاً، ثم طالعت كتب اللغة فلم أحصل على طائل[(٢)]، والأمر المهم في إيراد هاتين الآيتين هو الاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ على توحيد الله تعالى في عبادته، فكل من صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى، فقد اتخذ ذلك الشيء إلهاً مع الله، كأن يستغيث بغير الله أو يذبح لغير الله ولو مرة في عمره، وإن لم يفعل ذلك ورضي به ولم ينكره ولم يتبرأ منه، فهو كفاعله، أما قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ فأحسن ما قيل في تفسيره: أريد أن أخفيها، و(كاد) بمعنى (أراد) موجود في لغة العرب، قال الشاعر[(٣)]:

= ومن حكمة الله البالغة ورحمته السابغة أن غالب البدع لا يدَّعي أصحابها ومن شُبِّهت عليهم أنها من أركان الإيمان ولا فرائض الإسلام ولا الواجبات المحتمة، وإنما غايتهم دعوى أنها مستحبة، وذلك تيسير من الله ﷻ لطريق الاحتياط لمن أراده، فما عليك إلا أن تتحرى فيما قيل: إنه مستحب، وقيل: إنه بدعة.
فإن كنت ممن يستطيع الوصول إلى المجرى المحفوظ؛ فانظر فإنْ وجدتَ ما يُثلج صدرك من الدلالة على أنه من الدين، أو على أنه ليس منه فالزم ذلك. وإن اشتبه عليك، فدَعْهُ عالماً أنَّ اجتناب البدعة أحقُّ من فعل المستحبِّ، وأنَّ ارتكاب البدعة من الخطر بحيث لا يوازنه ترك المستحب، على أنك بتركك لذلك الشيء حذراً من أن يكون بدعة لك أجر عظيم أعظم من أجر من فعل مستحبّاً، وإنْ فعلتَه مع خشية أن يكون بدعة فعليك إثم البدعة، وإن كان في نفس الأمر غير بدعة. قاله العلامة المعلّمي اليماني في رسالته المهمة النافعة «رسالة في تحقيق البدعة» (٥٤ ـ ٥٧).

(١) في حديث ثعلبة بن الحكم، المتقدّم قريباً، وهو مما لم يثبت، فتنبَّه!

(٢) انظر لها ـ لزاماً ـ: «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للعلامة الشنقيطي (ص١٧٠ ـ ١٧٤).

(٣) البيتان في «ديوان الأخوة الأودي» (١٠) وقبلهما البيت الشهير:

والبيتُ لا يبتنى إلا بأعمدةٍ ولا عَمودَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ
فإنْ تجمَّع أوتادٌ وأعمدةٌ وساكنٌ بلَغوا الأمرَ الذي كادُوا

(فكادوا) هنا أرادوا، قاله صاحب «اللسان»[1]. والقول الثاني: «إنها صلة لا تدل على شيء، وهذا مرجوح[2]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: بما تعمل كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ الخطاب لموسى ﷺ يعني: اخترتك لكلامي ورسالتي، فهو كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ

= لا يصلح الناسُ فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جُهَّالُهم سادوا
والأبيات في «أمالي القالي» (٢/ ٢٢٨) و«الحماسة البصرية» (٢/ ٦٩) و«مجموعة المعاني» (١٥) و«نهاية الأرب» (٣/ ٦٤).

(١) انظر: «لسان العرب» (٣/ ٣٨٥ ـ كيد).

(٢) رجح الشنقيطي في «دفع إيهام الاضطراب» (١٧٠ ـ ١٧١) أن معنى الآية: أكاد أخفيها من نفسي، أي: لو كان ذلك يمكن. وهذا على عادة العرب، لأن القرآن نزل بلغتهم، والواحد منهم إذا أراد المبالغة في كتمان أمر قال: كتمتُه من نفسي؛ أي: لا أبوح لأحد. ومنه قول الشاعر:
أيامَ تصحبُني هندٌ وأخبرُها ما كدتُ أكتمُه عَنْها من الخبرِ
ونظير هذا من المبالغة قوله ﷺ في حديث السبعة الذين يُظلُّهم الله: «**رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه**». وهذا القول مروي عن أكثر المفسرين. وممن قال به: ابن عباس، ومجاهد وقتادة، وأبو صالح، كما نقله عنهم ابن جرير، وجعفر الصادق، كما نقله عنه الآلوسي في «تفسيره». ويؤيِّد هذا القول أن في «مصحف أُبي»: (أكاد أخفيها من نفسي)؛ كما نقله الآلوسي وغيره.
وروى ابن خالويه أنَّها في «مصحف أُبيّ» كذلك بزيادة: (فكيف أظهركُم عليها). وفي بعض القراءات بزيادة: (فكيف أُظهرها لكم). وفي «مصحف عبد الله بن مسعود» بزيادة: (فكيف يعلمها مخلوق). كما نقله الآلوسي وغيره.

رَبُّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أفعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٨٨ ـ ٩٨]

قال محمد تقي الدين: المهم في ذكر هذه الآيات، ذكر إنكار موسى على السامري ومن اتبعه من قوم موسى في اتخاذهم العجل الذهبي إلٰهاً من دون الله، مع أنه لا يتكلم ولا يسمع ولا يجيب سائلاً، وخواره ليس بكلام كالخوار الذي يفعله المتأخرون من أدعياء التصوف وأصحاب الطرائق القدد، ويكذبون على الله والناس، فيسمون ذلك الخوار ذكر الله[1]، وقد أجمع أهل الأديان، وسائر العقلاء على أن ذكر الله لا بد أن يكون بلغة من اللغات، وأن يكون له معنى يفهمه الذاكر والسامع، وعبّاد القبور والأضرحة والقباب المزخرفة، شر من عُبَّاد العجل، لأن العجل له خوار، وتلك الأضرحة ليس لها خوار، والفريقان كلاهما مشرك بالله، وعبَّاد القبور وعبَّاد عجل السامري شر من الوثنيين من أهل الهند الذين يعبدون البقرة الأنثى، لأن البقرة فيها حياة حقيقية وينتفع الناس بلبنها

(١) قال القرطبي في «تفسيره» في أوائل سورة الأنفال (٣٦٦/٧) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]: «فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام، والمبتدعة الطَّغَام، **من الزعيق والزئير، ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير**. فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وجْدٌ وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله، والبكاءَ خوفاً من الله». وانظر بقلمي: «القرطبي والتصوف» (ص٩ ـ ٢٠).

وأولادها، وكل من عبد غير الله محروم من نعمة العقل، وقد ذكر المفسرون في هذه القصة أشياء كثيرة من الخوارق، ونقل الرازي في «تفسيره» عن أبي مسلم إنكار ذلك، وإنكاره ينحصر في أمور(١):

الأول: إن عجل السامري لم تكن فيه حياة، والخوار كان يسمع بسبب دخول الريح من منافذه وخروجها.

والثاني: إن قول السامري: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، ليس معناها أنه أخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل عليه السلام، وإنما هي قبضة معنوية من شريعة الرسول موسى عليه السلام، ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ تركتها وكفرت بها، ولعل ذلك بعلل تركت ذكرها اختصاراً.

الثالث: إن قوله: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ يعني: أن موسى السامري حرمه الله من مخالطة الناس عقاباً له في الدنيا وعذاب الآخرة أكبر، وختمت الآيات بقول هارون: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ فلا خير في إله لا يتكلم ولا يعلم، والمعتزلة والمتأخرون من الأشعرية، ينفون الكلام عن الله تعالى وخطؤهم في ذلك واضح، وقد اتفقت الفرقتان على أن القرآن ليس كلام الله، ثم تفرقتا في تأويل ذلك، فقالت المعتزلة: القرآن حروف وأصوات خلقها الله في الهواء، وقالت الأشعرية: القرآن حروف وأصوات تصدر من الناس، وتدل على معنى الكلام النفسي الذي ليس فيه حرف ولا صوت، وهذا الكلام النفسي شيء اخترعوه لا وجود له في الحقيقة، وقد شبَّهوا كلام الله بحديث النفس الذي يخطر في بال الإنسان، ويدور في خلده قبل أن يتكلم به، وهذا لا يسمى كلاماً إلا بقرينة، كأن يقول الرجل: قلت في نفسي.

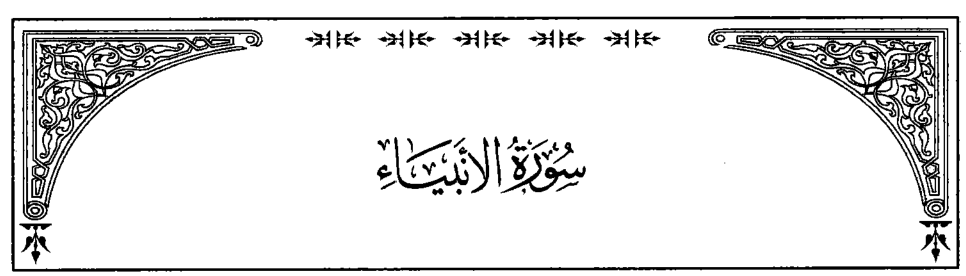
والقرآن والحديث صريحان في نفي هذا الباطل، وأما القرآن: فقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فكلام الله هنا هو القرآن، وإنما يسمعه ذلك المستأمن من لسان الرسول ﷺ وأما الحديث، فقول النبي ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان**»(٢). فبطل ما زعموه ولله الحمد.

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٢٢/ ٩٦ ـ ٩٨) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم.





الباب الأول

فقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٩]

قال (ك): «ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿أَمِ[1] ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟! ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ أي: في السموات[2] والأرض، ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بل».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «السماء».

﴿يَصِفُونَ﴾ أي عما يقولون، أن له ولداً أو شريكاً ﷻ[1] وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوّاً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: هو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وهذا[2] كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]». وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إلى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ قال (ﷺ): «يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ قل: يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمونه[3]، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا هو[4] ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨﴾ الآية، قال (ﷺ): «يقول تعالى ردّاً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة كمن قال ذلك من العرب، أن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم[5] به، بل يبادرون إلى فعله، وهو

---

(١) في الأصل: «ولداً وشريكاً وسبحانه» والمثبت من «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذه».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تقولون وتزعمون».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمر».

تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أي: من ادعى منهم أنه إلٰه من دون الله أي مع الله ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١] وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: نفهم من هذا الكلام أموراً:

الأول: إن الله أنكر على المشركين اتخاذهم من دون الله آلهة مع أن تلك الآلهة مخلوقة لا خالقة ومتصرف فيها لا متصرفة، فلا تستطيع أن تخلق ذباباً ولو اجتمعت له، ولا تستطيع أن تميت حيّاً ولا أن تحيي ميتاً، فعيسى والملائكة ومن عُبد من الأنبياء والصالحين مخلوقون مربوبون لا ينفعون ولا يضرون، فمن عبدهم خاسر في الدنيا والآخرة، وسيقول المشرك الجهول: نحن لا نتخذ الصالحين آلهة ولا نعبدهم!

وقد تقدم الرد على هذا الادعاء في مواضع كثيرة، ونزيد هنا فنقول: لو علمتم معنى لا إلٰه إلَّا الله لعلمتم معنى العبادة، ولأقررتم بأنكم اتخذتم آلهة من دون الله وعبدتموهم، فإن كل من عبدته فقد اتخذته إلٰهاً، والعبادة ما يتقرب به إلى الله تعالى كالدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير طريق الأسباب، والخوف بالغيب والرجاء والتوكل والذبح والنذر وجعل التحليل والتحريم لهم إلى غير ذلك.

الثاني: في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ واضح، فتوحيد النظام يدل على وحدة المنظم، ووحدة الخط وتناسقه يدلان على وحدة

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/٣٩٧ ـ ٣٩٩).

الكاتب، وهكذا يقال في جميع الصنائع، ولله المثل الأعلى.

الثالث: في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ كل من عبد غير الله تعالى فهو فاسد العقل، مختل المزاج، لا يستطيع أن يقيم دليلاً على ما ارتكبه من الشرك فيلتجئ إلى قوله: إنا وجدنا آباءنا على هذا وقد كانوا أحسن منا، وهذه حجة داحضة، وهي حجة المشركين في كل زمان ومكان.

الرابع: في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ وسيأتي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال تعالى في سورة الزخرف ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤] والمشركون والمقلِّدون في هذا الزمان يقولون: إن القرآن لا يستطيع أحد أن يفهمه، (لأن صوابه خطأ، وخطأه كفر)[1]، قالوا: وحسبنا كتب

---

(١) هذه المقولة كانت شائعة في المغرب، ووجدتُ في المجلة التي أسسها المصنف، واسمها «لسان الدين» السنة الثانية، الجزء السابع، بتأريخ ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ - يناير ١٩٤٨م (ص١١ - ١٣)، مقالة بعنوان (صوابه خطأ وخطؤه كفر) وهذا نصها:

(صوابه خطأ وخطؤه كفر)

بقلم الأستاذ السلفي السيد محمد الفلاح[1]

هذا العنوان كثيراً ما شغل بال الطلبة، فصرف كثيراً منهم عن الهداية إلى الغواية، وعن الحق إلى الضلال، وعن النجاة إلى الهلاك، كلمة عمرت الكتب بمرادفاتها، **وإن كانت فظاعتها أكبر من كل تركيب يؤدي معناها**، ومن المؤسف أنها خفيت حتى على أمثال الشاطبي، فقد ذكر قريباً من معناها في أواخر (الجزء الثالث) من كتابه «الموافقات»!

لا أقول: هذه الكلمة وحدها هي التي ظفرت بصرف الناس عن العلم الصحيح علم القرآن، ولكني أعتقد أنها إحدى الأسباب التي حجبتنا وحالت بيننا وبين روح الشريعة الخالص، فابن مسعود يقول لنا: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آياتٍ لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن». بينما أشياخ ما بعد القرون الثلاثة يحجرون على الناس ويذهبون إلى أن القرآن له - لا أدري - كم من ألف ظهر وألف بطن يعدُّون!! وكيفما كان العالم لا شك أنه تبقى عليه أشياء من الظاهر والباطن فلا يسوغون له النظر في القرآن، ويجعلون القياس والنظر في القرآن متساويين، إذ التكلم في القرآن في نظرهم تقصيد لله، كأن الإنسان يقول: هذا المعنى هو الذي قصده الله من القرآن، وهذا أمر عسير وجرأة خطيرة. وقد ورد في كتب «السنن» عن النبي ﷺ: **«من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»**[2]، وورد عن الصديق: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله =

---

(١) نشر في مجلة «لسان الدين» السنة الثانية الجزء السابع بتأريخ ربيع الأول ١٣٦٧هـ، يناير ١٩٤٨م (ص١١ - ١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٢)، وأبو داود (٣٦٥٢)، والنسائي في «فضائل القرآن» (١١١)، وأبو يعلى (١٥٢٠) =

= برأيي»[1]، وهذا الاستدلال لا يصح لهم أما **أولاً**: لأن الله تعالى أنزل هذا القرآن للناس ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب، وأما **ثانياً**: فإن النبي ﷺ قد بيّن للناس حاجتهم منه، وهذه كانت وظيفته التي أمره الله بها في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ومن تتبع السنن المحمدية وجدها قد أزالت عن وجه الكتاب القناع، وأما **ثالثها**: فإنا لو طردنا هذه الأدلة التي معهم لهلكنا بتركنا كلام الله ـ وقد فعلنا فتردينا في هوة لا ندري متى نتخلص منها ـ؛ لأن النبي ﷺ قال: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي**»[2].

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يذوقون معنى القرآن فيعملون به، ولا يتجاوزون آياته حتى يفهموها ويعملوا بمقتضاها، كما يقول لنا ابن مسعود وغيره. ومنهم من كان يخطئ في الفهم ولكن لا يؤاخذ بخطئه ما دام يعمل بما فهم، ويصحح فهمه على الرسول كما في قصة سيدنا عدي بن حاتم: جواد العرب، فإنه كان يضع فوق رأسه خيطين أبيض وأسود في ليالي رمضان، فما يزال يأكل حتى يتبينهما؛ لأنه قرأ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، ولكن الرسول[3] زاد له ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ في القراءة فلم يبق إلا أن يكونا كنايتين عن الليل والنهار، وكل ما ورد في الأدلة الشرعية في ذم الرأي في القرآن لا نحفل به في الحقيقة، فهل يعتقد عاقل أنه يباح له الكلام في الحلال والحرام؟ فيقول: هذا يؤكل، وهذا يحظر، وهذا ينزع من يد هذا المالك، وهذا يستحق، وهذا نكاح فاسد، وهذا صحيح، والحالة هذه وهو لا يعرف عشر آيات من كلام الله، ثم تراه يقول إذا عرضت له آية في صلاة أو كتاب: هذا كلام الله لا نستطيع أن نتكلم فيه، فإن قلت له: إنك تؤلف المجلدات الضخمة في علم الفقه، يجيبك بأن النوازل كلها مأخوذة من الكتاب والسنة نقَّحها من قبلنا وكفانا المؤونة، وهذه عبارة كادت تكون محل إجماع القاصرين المتفيهقين، ونفرض إذا صححنا هذه الجملة السطحية أليس في القرآن غير مسائل الفقه؟ فأين الأخلاق؟ وأين التوجيه؟ وأين الحكم العجيبة والقصص الصادقة؟ وأين آيات الجنة والنار؟ و. . . ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، ولكنهم لم يفعلوا فكتبوا كتباً من عندهم.

وقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم﴾، والله يقص علينا أصدق =

= وفي «المفاريد» (٣٢)، وابن بطة (٧٩٨) عن جندب بن عبد الله البجلي، **وإسناده ضعيف**، وفيه سهيل بن أبي حزم ليس بالقويّ.

(١) له طرق كثيرة متعددة عن أبي بكر، وهي لا تخلو من كلام أو انقطاع، ولكنه بمجموعها يصل إلى درجة **الحسن** ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد بيّناها في التعليق على «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٤٠)، والحمد لله.

(٢) **الحديث صحيح**، انظر تخريجه في التعليق على (٣/ ٢٧، ٢٨)، وانظر: «الصحيحة» (١٧٦١).

(٣) انظر الحديث بتمامه في: «صحيح البخاري» (٤٥٠٩، ٤٥١١)، و«صحيح مسلم» (١٠٩٠، ١٠٩١).

= القصص؛ لنعتبر بمن مضى ونحذر ما وقعوا فيه، ولأنه يعلم أنا لا نألو جهداً في تقصي آثارهم: «**إنكم لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»[1]، ثم في خلال هذه العواصف ما خلا وقت من ناس خدموا القرآن فجمعوا ما وصلهم من معانيه، ولكنهم تأثروا بأفكار قائلة: إن القرآن دون الوصول إلى حقيقته عقبات لا يقطعها إلا من نبغ في كذا وكذا من العلوم، فاستفرغوا الجهد، وطلبوا تلك العلوم فلما قصدوا إلى أداء ما عندهم من العلم، حشروا كل ما في أدمغتهم في القرآن، وبعملهم هذا أصبح الطالب يقرأ في التفسير مجموعة من العلوم مبعثرة، وأتى قوم آخرون حسبوا القرآن إنما يُعْنىٰ بما تعلموه فحسب، فكان كلامهم تصنيفاً في العلم الذي تخرجوا فيه لا إيضاحاً للقرآن، ومن هذه الكتب «تفسير الزمخشري» فالقرآن عنده تقريباً كتاب اعتنى بالبلاغة والنحو وتناول مسائل في الكلام، ولكن في الخزانة العربية تفاسير يفهمها كل من أراد أن يعرف كتاب الله بعد أن يتناول مسائل النحو، من أجلِّها: «تفسير ابن كثير» و«تفسير الجلال السيوطي» المسمى بـ«الدر المنثور»، وقد عد كثير من المؤلفين وسائل القرآن.

فمنهم من جاوز الحد فجعل الفلسفة سبباً في معرفة القرآن! قال أبو إسحاق الشاطبي[2]: «ولو عكس الإنسان لما بعد» وعدَّ منها بعضهم علم الهيئة وعد منها علم الكلام، وهذا كله افتراء ولكن يبقى النظر في شيئين: علم اللسان العربي، وعلم الآثار، هل هما ضروريان لطالب التفسير؟ لأنه خطاب للعرب فلا يفهمه بعد فساد لغتهم إلا من حصلت له الملكة والدربة الدقيقة فيها، ولأن القرآن بلغه الرسول وبلغ معه تفسيره كما آية: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ . . .﴾ إلخ، وكما في حديث: «**أوتيت القرآن ومثله معه**»[3] فتكون الوسيلة إليه هذا الطريق الوحيد، وهذا هو الذي ينبغي أن يعتد به، وإن كان في إمكان الجمهور أن يتعلم القرآن من إقراء العلماء لهم، وتبقى تبعة البحث عن تفسير الرسول للآية ملقاة على كاهلهم.

لكن الطالب الذي يرى نفسه متصدراً إلى تعليم الناس، يجب عليه أن يأتي البيت من بابه، ويبحث عن الدُّر في مكانه، وما كان طلب مالك والبخاري وأحمد وغيرهم من الهداة إلا بحثاً عن الكتاب والسنة، لم يكن من شأنهم البحث عن مسائل علم الكلام، والنظر في الحال وما ذهب إليه الأشعري فيها، وما الجواب عنه في ذلك؟ فإن من تتبع مثل هذه الأبحاث خصوصاً رجلاً يقصد أن يكون غداً قدوة في الدين لا يظفر إلا بالخيبة، ولا يصبح بعد الجهد الجهيد إلا كما قال خرِّيت ذلك الطريق الشهرستاني:

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلِّها ... وصيَّرتُ طَرفي بين تلك المعالمِ =

---

(١) **الحديث صحيح**، انظر تخريجه في التعليق على (١/ ١٨٧).

(٢) انظر: «الموافقات» (٤/ ١٩٨ ـ بتحقيقي).

(٣) **الحديث صحيح**، انظر تخريجه في تعليقي على «إعلام الموقعين» (٤/ ٨٣).

الفقه، فإنها مخضت القرآن والحديث وأخذت زبدتهما، ويعنون بكتب الفقه كتب الفروع المشتملة على الأخطاء الكثيرة، ومخالفة الكتاب والسنة، والآيات المذكورة وما في معناها حجة عليهم لو كانوا يعقلون، وما أحسن قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ ينفي الشفاعة الشركية ويثبت الشفاعة التوحيدية، وهي التي تكون بعد رضى الله تعالى عن عقيدة المشفوع له وإذنه للشافع.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا

= فلم أر إلا واضِعاً كفَّ حائرٍ   على ذَقْنٍ أو قارِعاً سِنَّ نادمِ
ويا ليتنا طلبنا هذه العلوم على الوجه المجدي، ولكنا نطلبها على وجه لا يؤدي إلى فائدة ما، فكيف ترى قارئ «شرح البناني على السلم»؟ وما يجني وراء تلك الإشكالات؟ وليقل المحبُّ لها في أي مكان تنفعه وأي زمان يجد ذلك.
ثم ليقل طالب العلم القارئ للعقائد على طريقة السنوسي كيف يركِّب تلك الأقيسة؟ ومن يجادله في الوجود والقدرة وما معهما من الصفات.
والحق أننا نقلد ولا نسأل، غير أن لقراءة «السنوسية» ـ لكن أقصد «الصغرى» فإن له «الكبرى» و«صغرى الصغرى» ـ فائدة أخروية ينقلها لنا الأشياخ وأرباب الحواشي الذين جنوا على زمننا، تلك الفائدة هي ما تنبئك عنه هذه القصة:
رئي فلان في المنام، فسئل: ما فعل الله بك؟ فقال: لما وضعت في قبري أتاني ملك وسألني: هل قرأت التوحيد؟ فقلت: نعم! قرأت مصنف فلان، فقال: لِمَ لَمْ تقرأ «السنوسية»؟ وضربني.
هذه القصة وحدها كافية لطلبة بُلْه، وشيوخ جهال في الإكباب على ما لا فائدة فيه إلا تضييع الزمان، وقد بدأت علامات الرشد تظهر على المسلمين، فإنهم استيقظوا من نومتهم، ورأوا العزَّ والهداية في قرآنهم، فأصبحوا يتعلمونه في أوائل دراستهم، ولا ينقصنا الآن إلا عدم الإرشادات لمن يدرسونه للتلاميذ، إذ من يظن به النفع بالإرشاد لا يزال متأثراً بـ«صوابه خطأ، وخطؤه كفر»، ولكن ليذهب الطلاب إلى تفهم كتابهم المقدس، فسوف يعدمون أصحاب هذا المبدأ الخبيث، **وإني لباحث عن كل ما خلفه السلف من الإرشاد فمطلعكم عليه.**

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٣]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بدل الرحمٰن، يعني: غيره، كما قال الشاعر[(١)]:

جاريةٌ لم تلْبَس المُرَقَّقا ولم تَذق مِنَ البُقول الفُسْتُقا

أي: لم تذق بدل البقول الفستق، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما[(٢)] زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال قتادة: لا يصحبون من الله بخير»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: حدثني الثقة ـ وهو: عمار بن محمد الصائغ ـ أنه يوجد في نواحي سجلماسة (تافيلالت) قوم من المشركين يجعلون للدجاجلة خراجاً سنوياً فيتكفَّلون لهم بحفظ أجزاء أجسادهم، أحدهم يضمن له حفظ رأسه من الآفات، فيعطيه عليه أجراً سنوياً، والآخر يحفظ له يديه، والثالث يحفظ له ما بين يديه ورجليه من ظهر وبطن، والرابع يحفظ له ماله، وهؤلاء الآلهة كل واحد منهم ينتمي إلى صاحب قبة من الأموات المشهورين بالصلاح، وإنما يعتمد في ذلك على جده.

---

(١) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن السعدي، والبيت في «شرح ابن عقيل» (١٨/٢) وفيه «تأكل» وهو الصواب، إذ (المرقق): الرغيف الرقيق الواسع. والمعنى: يريد أن هذه الجارية بدوية لا عهد لها بالنعيم، ولم تستمرئ طعم الرفه، فهي تأكل يابس العيش، لا الرغفان الرقيقة الواسعة المستديرة، وتذوق من البقول ما يأكله البدو عادة، لا الفستق ونحوه مما هو طعام أهل الحضارة والرفاهية.

والبيت في «لسان العرب» (٥٨/٦) مادة (سكف) وأوله: «بَريّة لم تأكل...». وكتب مصححه: «قوله: (برية): المشهور (جارية)، وهي هي».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قد».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٠٦/٩) بتصرف.

وتوجد قرية اسمها (أولاد يوسف) عندهم خطارة، والخطارة عندهم جدول من الماء ينشأ من مياه آبار متعددة، أولها في مكان عال، وثانيها أسفل منه، والثالث أسفل من الثاني، وهكذا إلى آخر الآبار، ثم يوصل بعضها ببعض ويحفر لها مجرى يجري منه الماء إلى المزارع والبساتين، ولما حفر أجدادهم هذه الخطارة نذروا لصاحب قبة يسمونه سيدي أحمد الحبيب أن يعطوه في كل سنة مقداراً من المال، ليحفظ لهم هذه الخطارة فلا ينضب ماؤها، وبعد وفاته أخذوا يعطون ذريته ذلك المال المنذور.

وفي هذا الزمان سافر بعض أهل هذه القرية إلى البلدان التي ألقي فيها دروس التوحيد، وعلموا من سماع تلك الدروس أن الماء بيد الله هو الذي يعطيه أو يمنعه، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يعطي قطرة أو يمنعها، فقالوا لقومهم: توبوا إلى الله، فإن هذا شرك في الربوبية والعبادة جميعاً، فدعوني لألقي عليهم درساً في التوحيد لعل الله يهدي إخوانهم ويجمع كلمتهم على توحيده ويستريحون من ذلك الخراج.

فسافرت إلى قريتهم وهي تبعد عن مكناس ٤٥٦ ميلاً، وأعطيتهم درساً من المغرب إلى العشاء، وأرجو الله أن ينفعهم به[1].

وتوجد قرية أخرى في ناحية السيفة لهم خطارة، وقع لهم مثل ما وقع لقرية أولاد يوسف، وكان رجل منهم يأتي إلى مدينة أرفود ويحضر دروسي في التوحيد، فوحد الله تعالى، ودعا قومه إلى ترك دفع الخراج لذرية صاحب القبة الذي يعبدونه، فأبوا وقالوا له: أنت تريد أن تعرِّض نفسك للهلاك، أما نحن فلا نريد ذلك، فقال لهم: أما أنا فلا أدفع فلساً واحداً ولا حبة حنطة، ولي نوبة ماء هذه الخطارة ـ والنوبة عندهم يوم وليلة في كل خمسة عشر يوماً ـ، فإذا جاءت نوبتي قولوا لمعبودكم يوقف ماء الخطارة عن الجري، أو يجعل ماءها غوراً.

وعندنا في المغرب قبائل لا تعد ولا تحصى من العرب والبربر، يأتيهم أبناء الشيخ الذي يعبدونه في كل سنة، ويأخذون منهم الخراج، سمناً وصوفاً ودراهم

(١) وقد علمت بعد ذلك أنهم تركوا الخراج، وتابوا إلى الله تعالى، وبقيت خطارتهم على حالها. (منه).

وحبوباً، وهم يشاهدون أبناء معبودهم يزنون ويشربون الخمر، ولا تنقص درجة تقديسهم عندهم مثقال ذرة؛ لاعتقادهم أن جدهم يدخلهم الجنة على أي حال كانوا، فنسأل الله تعالى ونتوسل إليه بأسمائه الحسنى، وبتوحيدنا له الذي هدانا إليه بفضله، وباتّباعنا لسنة نبيه الكريم، أن يزيدنا هدى ويختم لنا بالحسنى، ويقوّينا على الدعوة إلى توحيده، وينقذ بدعوتنا خلقاً كثيراً، كما فعل سبحانه فيما مضى، بل نريد أكثر من ذلك، والله ذو الفضل العظيم.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٧٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه ﴿رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ

ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[١] أي: كنا عالمين أنه أهل لذلك، ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: معتكفون على عبادتها.

وقوله: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلَّال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفّه أحلامهم وضلّل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر منك[٢] تقوله لاعباً أو محقّاً فيه؟ فإنا لم نسمع به قبلك.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره هو الذي خلق السماوات والأرض وما حوت من المخلوقات التي[٣] ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أن لا إله غيره ولا رب سواه». وقوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾:

قال (ك): «ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه، ليكيدن أصنامهم أي: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين[٤]، وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد، قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق، ألقى نفسه إلى الأرض وقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع، فيقولون: مه، فيقول: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ فسمعه أولئك.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكان أصلاً».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الذي».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي إلى عيدهم».

وقوله: ﴿جُذَٰذًا﴾ أي: حطاماً كسَّرها كلَّها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعني: إلا[(١)] الصنم الكبير عندهم، كما قال ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار بنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلٰهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: قال مَنْ سمعه يحلف أنه ليكيدنهم، ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ قال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبيّاً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب[(٢)]، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم ﷺ، أن يبين[(٣)] في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم، وقلّة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرّاً ولا [تملك][(٤)] لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ يعني: الذي تركه ولم يكسره ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون [وأن][(٥)] هذا لا يَصْدُرُ عن هذا الصنم، لأنه جماد، وفي «الصحيحين»[(٦)] من حديث

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٥٥) رقم (١٣٦٧١) من طريق سعيد بن منصور عن جرير بن عبد الحميد عن قابوس عن ابن عباس، وقابوس هذا هو ابن أبي ظبيان، قال البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١٩٣) رقم (٨٦١): قال أحمد بن عبد الله عن جرير بن عبد الحميد: أتيناه ـ أي: قابوساً ـ بعد فساده»، فهو ضعيف، ولكن لا يترك، كما في «سؤالات البرقاني للدارقطني» (٤١٨)، ولم يدرك ابن عباس، **فإسناده ضعيف**.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتبين». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تستطيع».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإن».

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، وخرجتُه مفصلاً في كتابي «من قصص الماضين من حديث سيد المرسلين» (ص٨٩ ـ ٩٣)، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

هشام[(١)] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إن إبراهيم ﷺ لم يكذب غير ثلاث، اثنتين[(٢)] في ذات الله: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ قال: وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة [ومعه سارة][(٣)] إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل فقال: قد نزل ههنا رجل بأرضك معه[(٤)] امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه، فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: [هي][(٣)] أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إليَّ، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم، ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها، فأُخِذَ أخذاً شديداً فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له: فأرسل، ثم دعا أدنى حُجَّابه، فقال إنك لم تأتني[(٥)] بإنسان، لكنك[(٦)] أتيتني بشيطان، أخرجها، وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، وقالت: مهيم؟ قال: كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر**».[(٧)].

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا إلى[(٨)] الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) هو ابن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة بالحديث المذكور، ولا أدري ما وجه حذف ابن سيرين، والاقتصار على (هشام) هكذا دون نسبة!
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «اثنين».
(٣) من «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٤) في «تفسير ابن كثير»: «إنه نزل بأرضك رجل معه».
(٥) كذا في «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «تأت».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وإنما».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير»: «٩/ ٤١١ ـ ٤١٤».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».

﴿يَنطِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة[(١)] السوء، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[(٢)] فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[(٣)] أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] الآية».

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ قال (ﷺ): «لما دحضت حجتهم وبان عجزهم، فظهر[(٤)] الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جدّاً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة لتمرض وتنذر[(٥)] إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في حومة[(٦)] من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد.

قال البخاري عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[(٧)]. وقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك»[(٨)].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «حسرة».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال السدي: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: في الفتنة وقال ابن زيد: في الرأي، وقول قتادة أظهر في المعنى، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير» أي: إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «وظهر».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تمرض فتنذر».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جوبة».

(٧) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٤١١ ـ ٤١٨) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: في قصة إبراهيم عليه السلام فوائد:

الأولى: كل موحد وإنْ قَلَّ علمُه، يجد حجةً على توحيد الله تعالى يغلب بها أكبر علماء الشرك والتقليد، فمن ذلك أن رجلاً من المشركين في صعيد مصر بالريرمون قال لموحد: أنتم وهابية تنكرون معجزات النبي ﷺ مع أنه حي يصلي في قبره، والأغوات[1] - وهم خدام المسجد النبوي - يضعون له الماء للوضوء قبل كل صلاة، فقال له الموحد: أنت كفرت بإجماع المسلمين، وتنقَّصت رسول الله ﷺ شر تنقص، لأن الوضوء لا يكون إلا عن حدث والنبي ﷺ منزه عن الحدث بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فاعترف المشرك، وقال: أستغفر الله، والحكايات في هذا الباب كثيرة.

الثانية: حجة قوم إبراهيم: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ هي حجة المشركين في كل زمان ومكان، وما أحسن جواب إبراهيم عليه السلام لقومه، إذ قال لهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

الثالثة: إن قوم إبراهيم كانوا يوحِّدون الله تعالى في ربوبيته، ولذلك لم ينكروا عليه قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وكذلك المشركون في زمان النبي ﷺ كانوا يعترفون ويؤمنون أن الله رب كل شيء، ومليكه، والمتصرف فيه، بخلاف المشركين في هذا الزمان الذين اتخذوا من دون الله أولياء، واعتقدوا أنهم يتصرفون في العالم بالإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع والنصر والهزيمة وإنزال المطر، والخصب أو القحط والجدب، فهؤلاء أغلظ كفراً وشركاً من أولئك[2].

---

(١) هما قسمان: قسم كان يقال له: (سندبيس)، وقسم كان يقال له: (مكاره)، ولكل قسم جهة من الحرم المدني وقت التسريج ووقت التعمير، ولا يمكن أحد من القسمين أن يعلق أو ينزل في غير مدركه المعلوم، انظر: «رسائل في تاريخ المدينة» (ص٧٧ - تحقيق حمد الجاسر).

(٢) ظفرتُ بكلمة في كتاب «تاريخ حركة الإصلاح والإرشاد وشيخ الإرشاديين أحمد محمد السوركتي في أندونيسيا» (ص١١ - ١٢) نقلها عن الأديب الكبير المعروف مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٢ - ١٩٢٤) جاء فيها:

«المسلمون اليوم أكثر إشراكاً من المشركين، وأوسع منهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات، فأي قلب لا ينفطر عند ما يرى المسلمين وهم ركع سجد على أعتاب قبر =

الرابعة: يجب على كل من قدر على تحطيم ما يعبد من دون الله من القباب والأحجار والأشجار أن يقتدي بخليل الله إبراهيم، وبخليله محمد ﷺ فكل منهما كسر الأصنام، وقد فعل ذلك الإخوان الموحدون رحمهم الله في الحجاز، فهدموا قبة حمزة رضي الله عنه والقباب التي كانت في البقيع، فجزاهم الله خيراً وأجزل ثوابهم.

الخامسة: تذكرنا قصة إبراهيم الخليل بمشركي هذا الزمان، فإنهم يبنون قبة على قبر بجانب الوادي، ويعبدون تلك القبة بالذبح والنذر، ويأتي السيل فيجرفها فيعيدون بناءها وعبادتها، ولا يفكرون بعقولهم في أن هذه القبة أو الروح المتلبسة

= ربما كان بينهم من هو خير من صاحب القبر في حياته... لماذا ينقم المسلمون على النصارى التثليث، وهم لم يبلغوا من الشرك مبلغهم؟ فالمسلمون يدينون بآلاف من الآلهة؛ أكثرها جذوع أشجار وجثث أموات وقطع أحجار من حيث لا يشعرون. فإذا ألمّت بهم ملمّة ذكروا الأموات قبل أن يذكروا الله، ونادوهم قبل أنْ ينادوه... جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في نفوسهم الشرف والعزة، ليعتق رقابهُم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم. وقد ترك الإسلام بسر عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حدّه في سلطانه: لا تغل في تقدير نفسك، ولا تخرج عن دائرتك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد. أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر تارة أخرى: فقد ذلّت رقابهم ونفوسهم وخفقت رؤوسهم فأصبحوا من الخاسرين.

هذا؛ ومتى فسد على الأمة دينها فسد عليها كل شيء، لأن الدين هو حجرة الزاوية التي قامت عليها جميع الحضارات القديمة والحديثة. وختام الحضارات ومسكها هي حضارة الإسلام المجيدة. وما المدنية الغربية اليوم إلا قبس منها وشعلة ضئيلة من نورها الباهر.

قد يلحق الدين تبديل وتحريف في التأويل، وبدع تسلب منه رونقه وبهاءه حتى يخرج من كونه ديناً إلى كونه مجموعة خرافات ولهو ولعب، كما قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] فيقيض الله لدينه رجالاً يجددون للأمة دينها. أجل؛ كل من يحاول تغيير ما ألفه الناس يكون معرضاً لسخط الجمهور ونقمته، وكل من يريد إحياء ما أماته الجهل من سنن الأنبياء يجد من الشدائد والمكايد ما وجدوه. ولكن إذا ثبت متكلاً على الله واثقاً بنصره، وقانعاً بما وهبه من علم وتقوى، ولم تستهوه الدنيا وزخارفها، ولم تفتتن نفسه بزينتها وشهواتا، فليبشر بالنصر المبين، والذكر الحسن في الأعقاب».

بها، لو كانت تستطيع أن تدفع أو تجلب لهم خيراً لدافعت عن نفسها، وصرفت السيل عن القبة وحفظتها منه، ولكن كذلك يطبع الله على قلوب المشركين وما أحسن قول الخليل لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

السادسة: الكذبتان الأوليان كانتا جهاداً في سبيل الله، والكذب في الجهاد واجب على أعداء الله، سعياً في هلاكهم، وأما الكذبة الثالثة فإنها دفاع عن النفس، واشتغاله بالصلاة التجاء إلى الله تعالى ليحفظ زوجته، فاستجاب الله دعاءه، وأنقذ سارة ورجعت سالمة غانمة، وهاجر هذه هي أم إسماعيل جد النبي ﷺ الأعلى.

السابعة: إن نصر الله للموحدين وإهلاكه للمشركين سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فإذا لم ينتصر الموحدون، وطال عليهم زمان غلبة أعدائهم فاعلم أن توحيدهم ضعيف، وإيمانهم ناقص، فإن الله وعد كل من نصر دينه الحق بالنصر، فقال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾ وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] اللهم اجعلنا ممن نصر دينك ونصرته.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤]

قال: (ك): «يذكر الله تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثير[1] ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره ثم ابتلي في جسده ـ يقال: بالجذام ـ في سائر بدنه ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد ولم يبق أحد من

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كثيرة».

الناس[١] يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره[٢]، ويقال: إنها احتاجت فصارت[٣] تخدم من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»[٤]، وفي الحديث الآخر: «**يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»[٥]، وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك»[٦].

فصل

قال محمد تقي الدين: إنما ذكرت قصة أيوب هنا للاستدلال بها على أن الله تعالى لما ذكر لنا قصص الأنبياء وما أصابهم من المحن أخبرنا أنهم توجهوا إليه وسألوه تفريج كربهم وشفاء مرضهم، وإنما حكى لنا ذلك لنقتدي بهم فيما يصيبنا من المصائب، ولا ندعو مخلوقاً ولا نستعين به، فمن دعا المخلوق لتفريج كربه وشفاء دائه، فقد أشرك بالله.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من الناس أحد».

(٢) ثبت ذلك في حديث أخرجه ابن حبان (٢٨٩٨)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، والبزار (٢٣٥٧)، والحاكم (٢/ ٥٨١ ـ ٥٨٢)، وأبو نعيم (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥) عن أنس، **بإسناد صحيح**، وانظره مع تخريجه وفوائده في كتابي: «من قصص الماضين» (١٧٧ ـ ١٨٨).

(٣) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فسارت»!

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدورقي في «مسند سعد» (٤١)، وعبد بن حميد (١٤٦ ـ «المنتخب»)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والطيالسي (٢١٥)، والبزار (١١٥٠ ـ ١١٥٥)، والدارمي (٢٧٨٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٣)، والطحاوي (٣/ ٦١)، وابن حبان (٢٩٠٠، ٢٩٢١)، وبحشل في «تاريخ واسط» (ص٢٥٣)، والحاكم (١/ ٤٠، ٤١)، والبيهقي (٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، وفي «الشعب»، من طريق مصعب بن سعد عن أبيه مرفوعاً، **وإسناده حسن**. وفي الباب عن جمع، انظر كتابي: «من قصص الماضين» (٢١٨)، «السلسلة الصحيحة» (١٤٣ ـ ١٤٥).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٤٢٦).

مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٩٠]

قال محمد تقي الدين: رأيت «تفسير (ك)» لهذه الآيات فيه أقوال كثيرة لا غرض لنا بذكرها فأردت أن أفسرها حسب ما فهمته:

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ . . . إلخ: ﴿ٱلنُّونِ﴾ هو الحوت، أي: واذكر صاحب الحوت، وهو يونس ﷺ، لما ذهب مغاضباً لقومه، أي: أغضبه قومه، وهم أهل نينوى مدينة قديمة في العراق لا تزال آثارها موجودة بقرب الموصل في شمال العراق، وعندها قرية تسمى بهذا الاسم، وذلك أنه دعاهم إلى توحيد الله وطاعته وطاعة رسوله، فتباطؤوا فغضب عليهم وأوعدهم بعذاب الله، وذهب وتركهم فخافوا وخرجوا من مدينتهم بنسائهم وأطفالهم ومواشيهم، وأخذوا يجأرون إلى الله بالدعاء وتابوا إلى الله تعالى وآمنوا بما جاءهم به يونس فدفع الله عنهم العذاب، قال تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

هذا ما كان من أمر قوم يونس، أما يونس، فإنه وجد قوماً راكبين في سفينة فركب معهم فلما توسطت السفينة في البحر تلاطمت عليها الأمواج ورأى أهلها أنها مثقلة لا بدّ من إلقاء بعض الركاب في البحر، فاقترعوا (باللغة المغربية: ضربوا العود) فخرج سهم يونس على أنه هو الذي يلقى في البحر، ثم أعادوا الاقتراع فخرج سهمه أيضاً، ثم أعادوه مرة ثالثة، فخرج سهمه للمرة الثالثة فقام وألقى نفسه في البحر، فأمر الله حوتاً كبيراً أن يبتلعه ولا يضره، كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨].

يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ إلى أهل نينوى المدينة التي تقدم ذكرها ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: هرب من قومه لما عصوه وسماه الله آبقاً كما يسمى العبد الذي هرب من سيده؛ لأنه بارح قومه بغير إذن من الله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ السفينة الممتلئة بالركاب ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: اشترك مع أهلها في القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾، أي: المغلوبين ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: فعل ما يلام عليه، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ﴾ أي: لبقي في بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وكان بطن الحوت قبره، فلا يرجع إلى الحياة إلى يوم القيامة.

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ أمر الله الحوت أن يلقيه على الأرض بشاطئ البحر ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض بسبب ابتلاع الحوت له ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ وهو القرع، ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: بل يزيدون على مائة ألف، فآمنوا بالله ورسوله يونس، ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: دفع الله عنهم العذاب بعد ما شاهدوه، وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو من قدر بمعنى قدَّر المشدد الدال، يقال: قدَر الله عليه كذا وكذا يقدره على وزن ضرب، وهذا الأمر مقدور، ويجمع على مقادير، قال الشاعر:

دَعِ المقاديرَ تَجْري في أعنَّتِها ... ولا تَبيتَنَّ إلا خالي البالِ
ما بَين غمضةِ عين وانتباهتِها ... يغيِّرُ الأمرُ من حالٍ إلى حالِ

والمعنى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ عقاباً لما بارح قومه بلا إذن، فلما ابتلعه الحوت نادى في الظلمات وهي ثلاث ظلمات، قال ابن مسعود: «ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل»(١)، نادى قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ توسل إلى الله بتوحيده واعترف بخطئه، وروى الترمذي وغيره عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «**دعوة ذي النون، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (ص١٣)، والحاكم (٢/ ٣٨٢) وصححه، وابن أبي حاتم ـ وهو ليس في القسم المطبوع من «تفسيره» ـ، وأحمد في «الزهد» ـ وهو ليس في مطبوعه، كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٦٠) ـ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٦، ٦٦٠، ٦٦١)، =

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: كما أنجينا يونس لما دعا بهذا الدعاء كذلك ننجي كل مؤمن مخلص إذا دعا به، ثم أخبر تعالى أن زكرياء عليه السلام لما نادى ربه ولم يكن له ولد يرث علمه وعلم آبائه، فاستجاب الله له وأصلح امرأته وكانت عاقراً؛ فحملت بيحيى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ...﴾ إلى آخره، أي: إن أولئك الأنبياء المذكورين كانوا يسارعون في الخيرات، أي: يبادرون إلى طاعة الله تعالى ويدعونه ﴿رَغَبًا﴾ فيما عنده من الخير، ﴿وَرَهَبًا﴾، أي: خوفاً منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(1) [فاطر: ٢٨].

فصل

قال محمد تقي الدين: وفي ذكر دعوة أيوب، ويونس، وزكرياء، تعليم من الله لنا كيف ندعوه، فإن أحداً منهم لم يقل: بحق إبراهيم ونوح، بل دعوا الله تعالى متوسّلين إليه بتوحيده والتذلل له، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: خائفين، خاضعين متذللين، والخشوع روح الدعاء، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢]

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ

= وأحمد (١/ ١٧٠)، وأبو يعلى (٧٠٧، ٧٧٢)، والبزار (٣١٤٩، ٣١٥٠ ـ «زوائده») في «مسانيدهم»، والطبراني في «الدعاء» (١٢٤)، والدورقي في «مسند سعد» (٦٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٤٦٥) رقم (١٣٧١٢)، وابن عدي (٦/ ٢٠٨٨)، والحاكم (١/ ٥٠٥ و٢/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٢٠) من طريقين عن سعد، وأحدهما حسنة.

(١) انظر: «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص٣٤٧ ـ ٣٥٦، ط. النبلاء).

﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٣]

قال محمد تقي الدين: الخطاب هنا لمشركي مكة ومن سلك سبيلهم في الشرك بالله، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ يشمل الأوثان والأصنام من قباب أو أحجار وأشجار، ويشمل الطواغيت الذين يدعون الناس إلى عبادتهم أو عبادة غيرهم من المخلوقين، والحصب: ما يلقى في النار لتتقد، وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: فيها داخلون، ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام والأوثان ﴿ءَالِهَةً﴾ حقاً، ما دخلوا جهنم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ العابدون والمعبودون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: أنين، وتنفس شديد، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من شدة العذاب.

ولما نزلت هذه الآية جاء عبد الله بن الزّبعري إلى النبي ﷺ وجادله فقال: إن بعض العرب يعبدون الملائكة، واليهود يعبدون عزيراً، والنصارى يعبدون عيسى ابن مريم وأمه، فهل هؤلاء أيضاً يدخلون جهنم؟ فأنزل الله تعالى جوابه[1]،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٥٣) رقم (١٢٧٣٩)، وابن حبان في «الصحيح» رقم (١٧٥٨ ـ «موارد»)، ومن طريقه ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٧٣، ١٧٤) بسنده إلى ابن عباس؛ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، قال عبد الله بن الزبعري: أنا أخصم لكم محمداً؛ فقال: يا محمد! أليس فيما أنزل الله عليك ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾؟ قال: «نعم». قال: فهٰذه النصارى تعبد عيسى، وهٰذه اليهود تعبد عزيراً، وهٰذه بنو تميم تعبد الملائكة؛ فهٰؤلاء في النار؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وفي إسناده عاصم بن بهدلة، **ضعّفه** جماعة.

وأخرجه البزار من طريق آخر عن ابن عباس، وفيه: «ثم نسختها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ . . .﴾»، وفيه شرحبيل بن سعد مولى الأنصار، وثقه ابن حبان، وضعّفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، قاله الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٨).

وأخرجه من طرق أخرى: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٨٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٩٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٠٦)، والهروي في «ذم الكلام» (ص١٦٥)، وابن أبي حاتم والحارث بن أبي أسامة وابن مردويه في «تفاسيرهم»، ومن طريق ابن مردويه والواحدي والحارث ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٧٢)، والضياء في «المختارة»، والخبر عند ابن هشام في «السيرة» (١/ ٢٥٩)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٨٨ ـ ٨٩)، وقال عنه في «تحفة الطالب» رقم (٢٣٥): «مشهور من كتب التفسير والسير والمغازي»، وقال ابن حجر: «هٰذا حديث **حسن**». =

وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: كل من عبد من دون الله، ولم يرض بعبادة العابدين، بل دعا إلى توحيد الله مبعد عن النار ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: صوتها ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من النعيم ﴿خَٰلِدُونَ﴾ باقون إلى الأبد ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وهو الخوف الذي يحصل للمجرمين عند النفخة الأخيرة في الصور، كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧] ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم بالبشرى قائلين لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وكان عبد الله بن الزبعري شاعراً شديد العداوة للإسلام، ثم أسلم ومدح النبي ﷺ، فمن ذلك قوله[1]:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لِساني راتقٌ ما فتقْتُ إذْ أنا بُورُ

= وقال في «الكافي الشاف» (ص١١١ ـ ١١٢): «اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم أن النبي ﷺ قال في هٰذه القصة لابن الزبعري: **«ما أجهلك بلغة قومك؛ فإني قلت: وما تعبدون، وهي لما لا يعقل، ولم أقل: ومن تعبدون»**، وهو **شيء لا أصل له**، ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند».

وقال في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٧٥): «وهٰذا لا أصل له من طريق ثابتةٍ ولا واهية»، ثم ذكر منشأ وهم من ذكر هٰذا الحديث.

وفي «تفسير الآلوسي» (١٧/ ٨٦) نقلاً عنه زيادة على المذكور: «الوضع عليه ظاهر، والعجب ممن نقله من المحدِّثين».

وحكم قبله ابن العربي في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣٠٣) مثل هٰذا الحكم؛ فقال: «هٰذا خبر موضوع لا أصل له في السقيم؛ فكيف في الصحيح؟ ولا في الضعيف فضلاً عن القوي، ويدفعه القرآن؛ فإنه لو كان كما وضع هٰذا الملحد لما افتقرنا إلى الجواب بالآيات الثلاث، ولكان فيما وبَّخهم به كفاية، وأيضاً؛ فإنه كان يجب أن يقال: (إن من سبقت لهم منا الحسنى)، فتكون الآية مطابقة للحديث، ولٰكنه جاء بكلمة (الذين) التي هي معنى كلمة «ما»؛ فيكون معنى الآية الأولى: إنكم والذين تعبدون من دون الله، وتكون الآية الثانية تخصيصاً صحيحاً باللفظ للفظ، وبالمعنى للمعنى، ونحن لا نحتاج إلى هٰذا كله، ونعوذ بالله من التكلُّف للحق؛ فكيف بالتكلُّف للباطل؟!» وانظر: «المعتبر» (ص١٨٧) للزركشي، «الإيضاح» لمكي بن أبي طالب (٩٣، ٣٥١ ـ ٣٥٢)، «فهم القرآن» للمحاسبي (ص٣٥٧، ٤٧٣)، «الموافقات» (٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٤ و٤/ ٣٠ ـ ٣٣ ـ بتحقيقي).

(١) البيتان في «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٤٢) لابن سلام، و«جمهرة نسب قريش» (٢٨٨٩)، والأول منها في «إصلاح المنطق» لابن السكيت (١٢٥) وقال: «البُور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه».

إذْ أُجاري الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ ... ومَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبورُ

معناه: يا رسول مالك يوم الدين، إن لساني اليوم يمدحك ويصلح ما أفسده حين كنت بوراً، أي: هالكاً بالكفر وحين كنت أجاري الشيطان، أجري معه مطيعاً له في طريق الضلال، ومن يمل مع الشيطان ويطعه فهو هالك.

وفي (كتاب التوحيد) من «صحيح البخاري» في حديث رؤية المؤمنين ربهم، ما نصه: «**يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت**»(١) الحديث.

وهذا يزيد معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ يزيده وضوحاً.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠﴾ [الأنبياء: ١٠٨ ـ ١١٠]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: متّبعون على ذلك، مستسلمون منقادون له ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم أني حرب عليكم(٢) كما أنكم حرب عليّ(٣)، بريء منكم كما أنتم(٤) براء مني، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١] وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ههنا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لكم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لي».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنكم».



أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وبراءتكم مني لعلمي بذلك، وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في جهرهم[(١)] وإسرارهم وسيجزيهم على ذلك على[(٢)] القليل والجليل»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا الإسلام الذي طلب منهم هو الإسلام ظاهراً وباطناً بالقلب والجوارح واللسان، وهذه السورة مكية ومع ذلك أمر الله رسوله أن يتبرأ من المشركين، فالتوحيد الصحيح لا يقوم إلا على الحب في الله والبغض في الله والولاية لله والعداوة لله[(٤)].

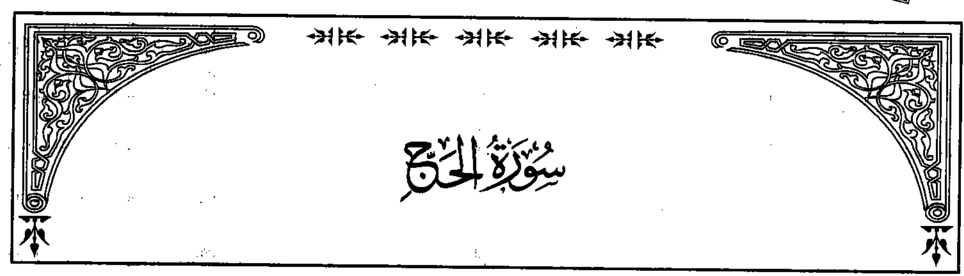
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إجهاركم».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٤٦١).

(٤) ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «صيانة العرض» (ص٣١) أن من كتبه «نصيحتي لصديقي العزيز: لا إيمان إلا بالحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله»، وقال: «يسر الله إتمامه ونشره»، ولا أدري هل أتمه أم لا؟!



سورة الحج

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]

قال (ك): «هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن[1] عبد غير الله فأشرك[2] به، من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوّأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه[3]، وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وإنه لم يبن قبله، كما ثبت في «الصحيح» عن أبي ذر، قلت: «يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: **المسجد الحرام**، قلت: ثم أي؟ قال: **بيت المقدس**، قلت: كم بينهما؟ قال: **أربعون سنة**»[4]، **قال الله تعالى**: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] [الآيتين][5]، وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقال تعالى ههنا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك[6] ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ممن».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأشرك».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وسلَّمه له».
(٤) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠). (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآية».
(٦) أما أثر قتادة فقد أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٥٣٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٥٨). وأما أثر مجاهد فأخرجه ابن جرير أيضاً في «تفسيره» (٢/ ٥٣٣) وهو في «تفسير سفيان» (ص٢١٠).

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطواف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين به، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب وفي النافلة في السفر، والله أعلم»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن المسجد الحرام وسائر المساجد الإسلامية إنما تؤسس على توحيد الله تعالى واتباع رسوله، ولا يجوز أن يحدث فيها شرك أو بدعة، فإن ذلك سعي في خرابها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤]، فكل من أدخل شيئاً من الشرك أو البدعة في بيوت الله يناله هذا الوعيد.

الثانية: كلام الحافظ (ﷺ) ودليله ظاهر في أن أول من بنى المسجد الحرام إبراهيم، وكأن الروايات التي تقول: بأن أول من بناه الملائكة ثم آدم.. إلى آخرها لم تصح عنده.

الثالثة: قوله: «إلا عند اشتباه القبلة»، معناه أن من لم يعرف القبلة لغيم أو ظلمة أو لكونه غريباً في البلاد، فإنه يختار جهة ويصلي إليها، وإذا تبين أنه أخطأ فلا إعادة عليه، وكذلك المقاتلون في سبيل الله إذا لم يتمكنوا من استقبال القبلة لشغلهم بقتال العدو، يصلون إلى أي جهة تناسب غرضهم الحربي، وكذلك المسافر يجوز له أن يتنفل على دابته أينما توجهت به.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤١ ـ ٤٢).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣٥]

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر المذكور من قبل ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كل ما حرمه أو أمر بتعظيمه، ﴿فَهُوَ﴾ أي: التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ لما فيه من الثواب ورفع الدرجات، فإن من عظّم حرمات الله عظّمه الله، ومن لم يعظمها أهانه الله، ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في سورة المائدة وغيرها كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣] أي: الرجس الذي هو الأوثان، فإن عبادتها شر النجاسات المعنوية، كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والأوثان كل جماد عبد من دون الله كالقباب والقبور والأشجار والأحجار، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ أي: شهادة الزور، ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ الحنفاء هم الموحدون المتبعون لملة إبراهيم، ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ تفسير له وتوكيد، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطع جسمه، ويأخذ كل منها نصيبه ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تسقطه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد، وهما نوعان من الهلاك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر المذكور ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: الإبل والبقر التي أهداها أصحابها لله، وجعلوا لها علامات تعرف بها وساقوها لينحروها ويذبحوها

في الحرم المكي، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: طاعتها لله، فلا يجوز التعدي عليها بنهب أو سرقة أو غير ذلك.

قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كالركوب والحلب ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ولا يحل نحرها أو ذبحها إلا في البيت العتيق: ما حوله من الأراضي، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: ذبحاً تعظيماً لله تعالى ورحمة للمساكين، ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: عند ذبحها أو نحرها ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: اعبدوه وحده لا شريك له ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المتذللين لله تعالى؛ المتواضعين الخاشعين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البلايا والمصائب ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المحافظين عليها، الذين يحرصون على أركانها وشروطها، ويصلون صلاة رسول الله ﷺ لا يخالفونها أبداً ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يؤدون زكاة أموالهم ويتصدقون على قدر جهدهم.اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فتنبَّهوا أيها الإخوان الذين شرح الله صدورهم للتمسك بكتابه واتباع سنة نبيه لعظم شأن التوحيد عند الله تعالى، فإنه ذكره في هذه الآيات مرتين:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

والثانية: في قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ وكل من خاف غير الله بالغيب، ودعاه لجلب خير أو دفع شر بطريق الهمة والحال، لا بطريق الأسباب، فقد اتخذه إلهاً مع الله، وكفر بمعنى لا إله إلا الله، فلا ينفعه قولها باللسان أبداً، وكل من خالف رسول الله ﷺ في أمر من أمور الدين على عمد فقد كفر بمعنى محمد رسول الله، وقد تقدم هذا في مواضع.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا

ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١]

قال محمد تقي الدين: يتلخص تفسير هذه الآيات فيما يلي: لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة بعدما بايعه أهلها ليلة العقبة بمنى وقوي المسلمون أذن الله له تعالى في قتال أعدائه[1]، لأنهم ظلموا النبي ﷺ والمؤمنين به وآذوهم وطردوهم من بلدهم، وهموا بقتل النبي ﷺ وأخرجوه من بلده وليس لهؤلاء المُخْرجين ذنب إلا أنهم قالوا: ربنا الله، والمراد بقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، لا نعبد إلا الله، ونكفر بعبادة ما سواه.

والمشركون لا ينكرون عليهم توحيد الربوبية، فإنهم مقرون به، وإنما ينكرون عليهم توحيد الألوهية والعبادة، لأنهم قالوا كما في سورة ص: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥] وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]. فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧] وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥] وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ [غافر: ١٢].

---

(١) أخرج أحمد (١/ ٢١٦)، والترمذي (٣١٧١)، والنسائي في «المجتبى» (٣٠٨٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ١٧٢)، ، والطبراني (١٢٣٣٦)، والبزار في «البحر الزخار» (١/ ٦٩) رقم (١٦) وابن حبان (٤٧١٠)، والحاكم (٢/ ٦٦، ٢٤٩ و٣/ ٧ ـ ٨) من طرق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أُخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيَّهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، لَيَهْلِكُنَّ، فنزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩] قال: فعرف أنه سيكون قتال، قال ابن عباس: هي أول آية نزلت في القتال.

قال الحاكم: «**صحيح على شرط الشيخين**» وأقره الذهبي، **وهو كما قالا**، وانظر لذلك: «الإنجاد في أبواب الجهاد» (١/ ٢١ ـ ٢٢ ـ بتحقيقي)، و«زاد المعاد» (٣/ ٦٣ ـ ٦٤)، و«السيرة» لابن كثير (٢/ ١٩٢ ـ ٢٠٧).

فصل

قال محمد تقي الدين: وكذلك المشركون في هذا الزمان إذا قيل لهم: ادعوا الله وحده، وتوجهوا إليه، واتركوا أولياءكم، يقولون: (الله ورجاله)! وبعبارتهم الخاصة: (رب برجالو) يعنون أن الله لا يكفيهم ولا تقضى حاجتهم إلا إذا أشركوا به رجالاً مخلوقين، فأفٍّ لهم!

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وقد وعدهم بالنصر فقال تعالى في سورة محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾ [محمد: ٧، ٨] وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١] وقد فعل ﷻ من نزول هذه الآية إلى يومنا هذا وسيفعل ذلك إلى يوم القيامة، **فكل هزيمة أصابت المؤمنين، فهي من ضعف إيمانهم وعدم قيامهم بالواجبات**[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ...﴾ إلى آخره يعني: إن الله تعالى شرع الجهاد والدفاع بحكمته البالغة، ابتلاء منه لعباده، وأمر المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم ودينهم، ولو تركوا الجو خالياً للمجرمين لتغلب أهل الباطل على أهل الحق، وعم الكفر والظلام وحينئذٍ تهدم معابد النصارى الخاصة بالرهبان وهي الصوامع، ومعابدهم العامة وهي البيع، ومعابد اليهود وهي الصلوات، ومعابد المسلمين وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولو شاء الله لأهلك المجرمين بعذاب من عنده، ولكن أراد سبحانه أن يبلو الناس بعضهم ببعض؛ لما في ذلك من الفوائد والنعم.

ثم أكد سبحانه وتعالى وعده بقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فلا يهزم جنده ولا يذل أولياؤه، والعجب من المفسرين الأولين فإنهم اختلفوا في معنى البيع والصلوات، وكل من يعرف شيئاً من السريانية والعبرانية[٢] يعلم يقيناً أن (البيع) معابد النصارى العامة، وأصل البيعة، بيضة

---

(١) يؤكده: ما علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب الجهاد والسير: باب عمل صالح قبل القتال عن أبي الدرداء قال: «إنما تقاتلون بأعمالكم».

(٢) للمصنف معرفة قوية بلغات متعددة، مثل: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأردو، =

بالسريانية؛ لأن السريانيين كثيراً ما يقلبون الضاد عيناً، فيقولون للأرض: أرعى، وللبيضة: بيعى، وإنما سميت كنيسة النصارى بيعة عندهم، لأنهم كانوا يجعلون لها قبة على شكل بيضة، ثم عم استعمالها في كل كنيسة لهم، والصلاة معبد اليهود، فإنهم يسمون الصلاة (تفِلَّه) بسكون التاء وكسر الفاء ولام مشددة مفتوحة بعدها هاء لا ينطق بها، إلا أنهم يسمون كنيستهم بيت تفله أي: بيت الصلاة، ولله در الإمام ابن جرير[١] فإنه فسر البيع بكنائس النصارى، والصلوات بكنائس اليهود، ولم يشك.

ثم وصف الله ﷻ المؤمنين الذين يستحقون النصر بقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾ أي: نتائجها، فمن أحسن حسنت عاقبته، ومن أساء ساءت عاقبته، فعاقبة التوحيد فوز، وعاقبة الشرك خسران.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢]

قال (ﷺ): «قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه ذليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه[٢] لا يملك ضرّاً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤] وقال: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] فكل شيء تحت قهره

= والسريانية، والعبرانية، وكان يدرسها في بعض الجامعات المغربية. وله عناية في تتبع مشكلاتها وتأريخها، ظهر ذلك من مراسلاته مع أشهر من يتقنها في عصره، وهو الأستاذ الدكتور ربحي توفيق كمال ـ رحمه الله تعالى ـ.

(١) انظر: «تفسيره» (٦/ ٥٨٦)، وفيه أيضاً عن (الصلوات) عن بعضهم: «هي كنائس اليهود، تُدعى بالعبرانية: صَلُوتا».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه ﷻ عما يقول الظالمون [المعتدون](١) علوّاً كبيراً»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن ذلك تعلم أن كل من دعا غير الله دعاء عبادة أو دعاء مسألة، فإنه مبطل ضال مشرك، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً يوم القيامة.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧١ ـ ٧٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ ولهذا قال ههنا ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سوَّل لهم الشيطان، وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٩٢).

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء.

﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشقّ وأطم[1] وأعظم مما تُخوِّفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم، وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس النار [مقيلاً ومنزلاً][2] ومرجعاً وموئلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾».

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. قال (ك): «يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام، وسخافة عقول عابديها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك، كما قال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «**ومن أظلم ممن [ذهب يخلق]**[3] **كخلقي؟ فليخلقوا مثل خلقي: ذرة أو ذبابة أو حبة**»[4]. وأخرجه صاحب «الصحيح» من طريق عُمارة عن أبي زُرْعة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **قال الله** ﷻ: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة**»[5].

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبهم شيئاً من الذي عليهم من الطيب، ثم [أرادوا أن يستنقذوه منه لما

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أشدّ وأهم».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منزلاً ومقيلاً».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» «خلق خلقاً».
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩١)، والبخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) وغيرهم.
(٥) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

قدروا][1] على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قال السدي وغيره: ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ العابد ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٢، ١٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨] وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عزّ كل شيء فقهره وغلبه، فلا يُمانَع ولا يُغالَب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن المشركين في كل زمان ومكان يعبدون من دون الله مخلوقين مثلهم، وليس لهم دليل على عبادتهم، لا من القرآن ولا من كتب الأنبياء السابقين، ولا يعلمون حقيقة ما يعبدون، فكلما وجدوا قبة مبنية ورأوا الناس يقصدونها لقضاء الحاجات عبدوها معهم، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن عبدوا قبة مبنية على حمار، وأخرى مبنية على كلب، والمشرك عديم العقل والتمييز، فلو سألته عن صاحب القبة والقبر الذي يعبده: متى وجد؟ وكيف كانت حاله؟ تجده جاهلاً كل الجهل، وهب أنه عرفه، وأنه كان عالماً صالحاً مستجاب الدعوة، أو نبيّاً رسولاً، أو ملكاً، فإن عبادته شرك بالله وكفر ولا تنفع العابد بل تضره وتهلكه.

الثانية: التمثيل دائماً بالأصنام غير جيد؛ لأن المشركين يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين وتماثيلهم، وهي الأصنام وقبورهم، والأماكن التي جلسوا فيها أو مروا بها، والشمس والقمر والكواكب وكل ذلك شرك وكفر.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أردت أن تستنقذه منه لما قدرت».

(٢) انظر: «تفسر ابن كثير» (١٠/ ٩٧ ـ ٩٨).

الثالثة: إن المشركين في كل زمان ومكان إذا دعاهم داعٍ إلى توحيد الله تذمروا وتنمروا وظهر في وجوههم المنكر، ويكادون يبطشون بالداعي، وكثيراً ما يبطشون به فعلاً.

الرابعة: هذا مثل عظيم ضربه الله للمشركين وتحداهم به، فإن جميع المعبودين من الأبرار والفجار والأصنام والأوثان لا يستطيعون ـ ولو اجتمعوا ـ أن يخلقوا ذباباً، ونرى كثيراً من المشركين يذهبون إلى قبور الصالحين ويطلبون منهم الأولاد، وذلك من سفاهة عقولهم، فالذي لا يستطيع أن يوجد ذباباً، كيف يستطيع أن يخلق جنيناً في بطن أمه، ويحفظ عليه حياته في زمان الحمل وبعده، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: ٥٩].

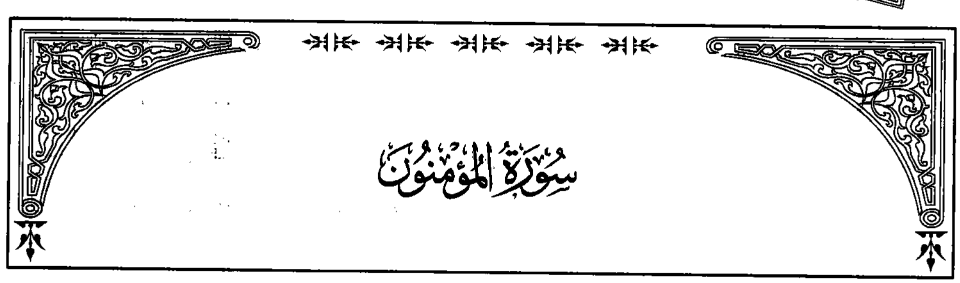
الخامسة: إن الله تعالى أخبر أن الذين يعبدهم المشركون كما أنهم عاجزون أن يخلقوا ذباباً، فهم عاجزون إذا سلبهم الذباب شيئاً أن يستردوه منه[1]، فإذا

---

(١) ذكر غير واحد من المعاصرين ممن لهم عناية بالإعجاز العلمي أن الذبابة تمد فمها من أسفل رأسها إلى السطح المقابل له، مكونة بذلك أنبوباً لامتصاص الطعام، وإذا نظرت بدقة إلى الأنبوب الماص، لوجدت الطرف الملامس لسطح الطعام متسعاً، وكأنه مكنسة كهربائية، بعد ذلك تبدأ الذبابة بفرز (إنزيم)، ليمكنها من تحليل الطعام وتحويله إلى مادة سائلة لمساعدتها على امتصاصه خلال الأنبوب لتلك الذبابة، فالذبابة تبدأ بهضم الطعام قبل أن يدخل إلى جسمها، فإن الإنزيم (البروتينات المركبة) يعمل على تفكيك الطعام إلى مركبات بسيطة، فالطالب لا يمكنه استنقاذ ما سلبته الذبابة، لا بسبب العجز ـ مثلاً ـ عن استخدام أجهزة دقيقة تمكنه من تشريح الذبابة، واسترجاع ما استطعمته؛ بل لو فعل فلن يكون هو نفسه الطعام الذي سلبته الذبابة، وإنما يحتاج إلى تجميع مركباته التي قد تفتّتت، ولاحظ لو أنه أراد أخذ الطعام من فم الذبابة ـ ولو من بداية دخوله الماصّة ـ فإن ذلك لن يجدي شيئاً، وذلك لأن الطعام قد تحول إلى مركبات مختلفة حتى قبل امتصاصه، لذلك ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أبداً.

وهذه حقيقة علمية مسلمة، لا شية فيها، ولكن ما أثبته العلم التجريبي يصح إضافته إلى أقوال المفسرين استنباطاً بما استجد، وهو استنباط قد يكون مراداً من الله سبحانه ـ والله أعلم بمراده ـ، وقد يكون استنباطاً وافق شمول معنى الآية مصادفة، فيكون صحيحاً في ذاته، مطابقاً للآية الكريمة في ذاتها، وإن كان غير مراد من منزّل القرآن سبحانه، وما دام ذلك الكشف العلمي من معاني الآية الكريمة، فمعنى ذلك أنه ليس جميع معناها؛ بل ليس هو المراد رجحاناً؛ لأن كونه مقصوداً احتمال لا مرجِّح له، ولا مانع منه. والمعنى السابق المذكور في كتب التفسير لا يدفعه أي احتمال معتبر، فهو صحيح في ذاته، انظر مقالة (ضعف الطالب والمطلوب) للعلامة الشيخ أبي عبد الرحمن الظاهري، المنشور في «المجلة العربية»، العدد (٣٤٨) السنة (٣١) بتاريخ محرم ١٤٢٧هـ ـ فبراير ٢٠٠٦م.

كان شيخ الطريقة الذي يعبده أتباعه يأكل عسلاً مثلاً، وجاء ذباب فأخذ شيئاً من ذلك العسل، لا يستطيع الشيخ أن يقاومه ويسترده منه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ولو قدروه حق قدره ما عبدوا معه غيره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، لا يغلب من استنصره.



سورة المؤمنون

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣ ـ ٢٥]

قال (ك): «يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا[1] تخافون من الله في إشراككم به؟ فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، يعنون: يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحي إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبيّاً، لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً، ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: ببعث البشر ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه»[2].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لا»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ١٢٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم الكلام في قصة نوح مع قومه، وسيأتي إن شاء الله، والمهم في هذا الموضع أن حجة قوم نوح وهي قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هي حجة المشركين في هذا الزمان يقولون: لم نزل نرى العلماء ونسمع كلامهم، فما رأينا أحداً منهم ينكر بناء القباب على القبور والذبح لها، والنذور وإقامة المواسم حتى جاء هذا الرجل!!

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣١ ـ ٣٤]

قال محمد تقي الدين: يقول الله تعالى: وبعد قوم نوح أنشأنا قوماً آخرين، وأرسلنا إليهم رسولاً منهم، وأول ما دعاهم إليه كسائر رسل الله أن اعبدوا الله وحده لا شريك له، ولا تعبدوا معه أحداً، فكذبوه وأنكروا البعث والمعاد، فدعا الله تعالى أن ينصره عليهم، فاستجاب الله دعاءه وأهلكهم، وتلك سنته سبحانه مع رسله، وكل من اتبعهم بصدق إلى يوم القيامة، اللهم اجعلنا ممن اتبع رسلك وخاصة أفضلهم محمداً ﷺ بصدق وإخلاص، فنصرتهم على أعدائهم، وأيدتهم بروح منك.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ

﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢ ـ ٦١]

قال (ك): «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بعثت الأنبياء إليهم[(١)]، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال [تعالى مهدداً][(٢)] لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا﴾، وقال الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه**، قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: **غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم الأنبياء».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متهدداً».

يمحو الخبيث»[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿سَٰبِقُونَ﴾، قال (ك): «يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر[٢] جمع إساءة وأمناً.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢] أي: أيقنت ما كان إنما[٣] هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خبراً فهو حقٌّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا هو[٤] واحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله[٥]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون[٦] أن لا يتقبل منهم؛ لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد والترمذي بسنده عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنه يصلي ويصوم ويتصدق**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) ـ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٦٦) ـ، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٣١٣)، والشاشي (٨٧٧)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١١٥٨)، والبزار (٣٥٦٢ ـ «زوائده»)، والحاكم (٢/ ٤٤٧)، والبغوي (٢٠٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (٥٥٢٤) مرفوعاً، **وصوّب الدارقطني** في «العلل» (٥/ ٢٧١) **وقفه**.
وأخرج الموقوف: ابن المبارك في «الزهد» (١١٣٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٣١٣)، والطبراني في «الكبير» (٨٩٩٠) وفصّلت في نصرته في شرحي لجزء أبي عمرو الداني في علوم الحديث، وسميته «بهجة المنتفع» وفرغت منه، والحمد لله وحده.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المنافق». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنما».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كقوله»!

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

ويخاف الله ﷻ»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾، قال صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن»: «﴿أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: أولئك يسارعون في نيل خيرات الدارين بمزاولة الأعمال الصالحة، فيعطيهم خير الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي: يسبقون غيرهم».

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن دين الأنبياء واحد، وإن اختلفت شرائعهم، فكلهم جاؤوا بعبادة الله وحده لا شريك له، وبإقامة العدل والإحسان بين الناس، كما قال تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فليس في دين أي نبي شرك بالله ولا ظلم لعباد الله، فتفرقت الأمم في الدين وتنازعت، وتفرقت كل أمة منها إلى فرق، والناجون منهم هم المتبعون للرسل، **ومن طبع الأحزاب والفرق أن يفرح كل حزب بما عنده، ويدّعي أنه الحق،** ولكن (عند الصَّباح يحمدُ القومُ السُّرَى)[(٢)] ـ والصباح: الموت وما بعده ـ فحينئذٍ يفرح أهل الحق الذين وحَّدوا الله واتَّبعوا رسله، ويندم أهل الباطل الذين أشركوا بالله وابتدعوا في دين الله، والمثل الألماني يقول ما معناه: (الذي يضحك آخراً هو خير الضاحكين)، يعنون بهذا المثل: إن الذي يضحك أولاً ثم يبكي آخراً فضحكه شر عليه.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والحميدي (٢٧٥)، وأبو يعلى (٤٩١٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٧٧)، والحاكم (٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، ـ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ـ والبيهقي في «الشعب» (٧٦٢)، و«معرفة السنن والآثار» (٢٠٨٥٤)، وانظر: «الصحيحة» (١/ ١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦) رقم (١٦٢)، و«العلل» للدارقطني (١١/ ١٩٣)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٠/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

(٢) مَثَلٌ: أوّلُ من قاله خالد. وهو بيت شعر، وعجزه (وتَنْجلي عنهم غَيَاباتُ الكَرَى)، يُضرب للرجل يحتمل المشقّة رجاء الراحة. انظر: «مجمع الأمثال» (٢/ ٣١٨): وجعله العسكري في «جمهرة الأمثال» (٢/ ٤٢) عجز بيت صدره: (قُلتُ: أُعَزِّي صاحبي أَلَّا بَلَى)، ونسبه للجُميح. وانظر: «المستقصى» (٢/ ١٦٨)، «فصل المقال» (٢٠٩، ٢٦٦)، «الفاخر» (١٩٣)، «الحيوان» (٦/ ٥٠٨)، «معجم الأمثال العربية» (٢/ ١٥٨٢ ـ ١٥٨٤).

الثانية: قول النبي ﷺ: «**إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ**»(١)؛ مثال ذلك: من اغتصب أرضاً وزرعها واكتسب من زراعته مالاً كثيراً فحج به وتصدق وأنفق على الأرامل واليتامى، وبنى به المساجد لا يقبل الله منه شيئاً، لأن ذلك الاغتصاب سيئة، وتلك الأعمال التي عملها وظنها من الصالحات هي أيضاً سيئة، والسيئ لا يمحو السيئ، كمن غسل الدم بالدم.

الثالثة: قرأ الجمهور ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ من آتى الرباعي، بمعنى: أعطى، وقرئ «**يأتون ما أتوا**»(٢) من أتى الثلاثي، أي: يفعلون ما فعلوا، وهي قراءة عائشة روتها عن النبي ﷺ(٣) ولذلك التبس عليها الأمر فسألت عن الأفعال التي يفعلونها أهي المعاصي؟ فأخبرها النبي ﷺ(٤) أنها الأعمال الصالحة وهم مع ذلك خائفون أن لا تقبل منهم؛ لأن محبطات الأعمال كثيرة، والحازم يغلب الخوف على الرجاء إلا في الاحتضار حين تنقطع الأعمال أو تكاد، ولو قرأت عائشة بقراءة الجمهور ما وقع لها التباس.

الرابعة: قول النبي ﷺ لعائشة: «**لا يا بنت الصديق**»(٥). فيه تكريم لها

---

(١) قطعة من حديث ابن مسعود المتقدم قريباً بتمامه، وهناك تخريجه.

(٢) هذه قراءة ابن عباس وقتادة والأعمش والحسن والنخعي وعاصم الجحدري، قال الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ١٦) عن القراءتين: «وكلاهما جيد بالغ».
وانظر: «المحتسب» (٢/ ٩٥)، «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٨)، «البحر المحيط» (٦/ ٤١٠)، «تفسير الرازي» (٢٣/ ١٠٨)، «الكشاف» (٢/ ٣٦٤)، «تفسير ابن عطية» (١٠/ ٣٧١)، «زاد المسير» (٥/ ٤٨٠)، «الدر المصون» (٥/ ١٩٢).

(٣) ورد ذلك في حديث فيه قول عائشة عن هذه القراءة:
«أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أُنزلت، أو قالت: أشهد لكذلك أنزلت وكذلك كان رسول الله ﷺ يقرؤها، ولكن الهجاء حُرِّف».
أخرجه أحمد (٦/ ٩٥)، وإسحاق بن راهويه (١٦٤٤ مسند عائشة)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٩/ ٢٨)، وابن جرير (١٨/ ٣٣)، وأبو عمر الدوري في «جزء فيه قراءات النبي ﷺ» رقم (٨٥، ٨٦)، وأبو أحمد الحاكم في «الكنى» ـ كما في «تعجيل المنفعة» (٤٨١) ـ **بسندٍ ضعيف**، فيه أبو خلف مولى بني جمح مجهول.
نعم، له طرق أخرى عند الحاكم (٢/ ٢٣٥، ٢٤٦)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٣٨)، ولكن مدارها على مجاهيل وضعفاء أو متروكين، ولذا لما صححه الحاكم، تعقبه الذهبي بقوله: «يحيى ضعيف» يريد ابن راشد.

(٤) في حديث، تقدم لفظُه وتخريجُه.

(٥) قطعة من حديث تقدم قريباً.

ولأبيها ﷺ، فويل للرافضة الذين يبغضونهما بغضاً شديداً، ومن العجب أني لما كنت في العراق تخرجت على يدي في جامعة بغداد طالبة اسمها عائشة من الموصل، وكانت بيني وبين أخويها صداقة، فبقيت في بيتنا تنتظر التعيين، فعيَّنتها وزارة المعارف معلمة في مدرسة ثانوية بمدينة كربلاء، وكربلاء مدينة شيعية فيها ضريح ينسب للحسين بن علي ﷺ وعليه قبة مذهبة، وهذا الضريح مكذوب؛ لأن قبر الحسين مجهول، لأنه قتل في فتنة، وكذلك القبة التي في القاهرة، يزعمون أن رأسه مدفون تحتها، هو كذب أيضاً، فإن رأسه حمل إلى يزيد بن معاوية، ولا يعرف ما جرى عليه بعد ذلك، والمقصود أن الطالبة المذكورة لم تقبل العمل في كربلاء؛ لأنه من المشهور عند الناس أن الشيعة الرافضة إذا وجدوا شخصاً اسمه أبو بكر أو عمر أو امرأة اسمها عائشة يؤذون من يسمى بهذه الأسماء وربما قتلوه.

وقد أخبرني الشيخ عمر خطاب أبو تلميذي (قيس خطاب) أنه يلاقي مشقة عظيمة وصعوبات في المعاملة بسبب اسمه[١]، فقال لي: إن والديَّ جلبا عليَّ شقاءً بسبب تسميتهما لي بهذا الاسم، فكلما دخلت مكتباً من مكاتب الدولة، وسألني رئيسه: ما اسمك؟ فقلت: عمر، يظهر العبوس في وجهه، ولا يقضي حاجتي إلا بعد اللتيا والتي، فهؤلاء القوم الضالون يهينون ويبغضون مَنْ كرَّمهم الرسولُ وأحبَّهم، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلوا به.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]

«ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك [والتصرف والعبادة][٢] فقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق[٣]،

---

(١) كذا في زمنه! أما اليوم فيقتل أهل السنة بسبب أسمائهم، ولا سيما في الحوادث الأخيرة، والفتن المدلهمة في العراق، وقى الله المسلمين شرورها، ونجَّى أهل السنة والجماعة منها، وحفظ الله بيضتهم، وكثّرهم، وبارك فيهم، وعصم دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخلق».

فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم، متَّسق كلٌّ مِن العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض.

والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد[1] سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوّاً كبيراً، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَٰلَىٰ ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعالى وعزَّ وَجَلَّ عما يقول الظالمون والجاحدون»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: وتقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وتقدم في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣] فالنظام الواحد يدل على إله واحد، والألوهية لا توهب، لأنها خاصة بالواحد الأحد، ومن سخافة جهال المغاربة أنهم يقولون في الإنسان والحيوان والجماد: هذا الشيء فيه بركة، وكل ما فيه بركة بزعمهم يعبدونه حتى وصلوا إلى عبادة الحمير، ففي الدار البيضاء حجر يسمى للاحمارة تعبده النساء[3].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأراد الآخر».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٣) للمصنف ثلاث مقالات في الرد على عابديه، كتبها استجابة لدعوة امرأة غيورة على التوحيد، ونشرها في جريدة «العلم» المغربية الأعداد (٤١١٣، ٤١١٩، ٤١٣١) بتأريخ ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٨٠، وهي بعنوان (صور من حياتنا الاجتماعية)، وهي في كتابنا «مقالات الهلالي» يسر الله نشره بمنه وكرمه.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧، ١١٨]

قال (ك): «يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾ أي: لا دليل على قوله فقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: الله[1] يحاسبه على ذلك، ثم أخبر ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لديه يوم القيامة فلا فلاح لهم ولا نجاة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه: محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناه: أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: هاتان الآيتان معناهما واضح، وقد أجاد الحافظ ابن كثير في تفسيرهما، وتقدم البرهان على أن من دعا غير الله لقضاء حاجته أو تفريج كربه، فقد اتخذ ذلك المدعو إلهاً، وكفر بالله، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ومن تبرك بشجرة أو حجر فقد اتخذه إلهاً، وقد تقدم بسط ذلك في سورة الأعراف، وقول الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾: «إنها جملة معترضة» عندي فيه نظر، والظاهر أنها صفة لـ ﴿إِلَٰهًا﴾ وهي صفة لازمة كقول النحاة: خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها، فأطول حال لازمة، والحال أصلها صفة، ويجوز أن تكون هذه الجملة حالاً من ﴿إِلَٰهًا﴾؛ لأن النكرة إذا وصفت تجيء الحال بعدها، قال الشاعر:

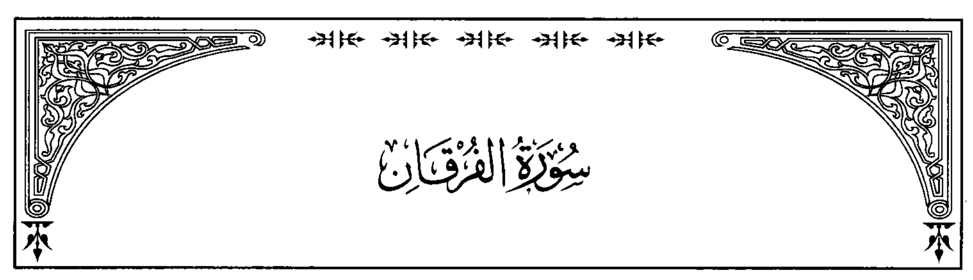
نجَّيتَ يا ربُّ نُوحاً واسْتَجبتَ له ... في فُلكٍ ماخرٍ في اليَمِّ مَشْحُونا

فمشحوناً: حال من الفلك؛ لأنها وصفت بماخر، وهي أيضاً حال لازمة.

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ١٥٧ ـ ١٥٨) بتصرف.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ١ ـ ٣]

قال (ك): «معنى ﴿تَبَارَكَ﴾: كثرت بركته وخيره، و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو القرآن؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هذه صفة مدح وثناء، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين[(١)] المحكم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢] الذي جعله فرقاناً عظيماً[(٢)] ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»[(٣)]. وقال: «**إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**». فذكر منهن: «**إنه كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة**»[(٤)]، كما قال[(٥)] تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العظيم المبين المفصل».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنما خصه به».

(٣) أخرجه مسلم (٥٢٣)، وأبو عوانة (١/ ٣٩٥)، والترمذي (١٥٥٣)، وأحمد (٢/ ٤١٢)، وغيرهم من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر.
وأخرجه مسلم (٥٢٢)، وأحمد (٥/ ٣٨٣)، والبيهقي (١/ ٢١٣) من حديث حذيفة.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال الله».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] الآية، أي: الذي أرسلني[١] هو مالك السموات والأرض[٢]، ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ ونزه[٣] نفسه عن الولد وعن الشريك، ثم أخبر أنه ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء، وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت [قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره][٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ إلى قوله: ﴿نُشُورٗا﴾. قال (ك): «يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء المالك لأزمّة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لم[٥] يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعابديهم؟

﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ أي: ليس لهم[٦] من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله[٧] ﷻ الذي يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة، أولهم وآخرهم: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] فهو الله الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي لا ولد له، ولا والد ولا عديل ولا نديد[٨] ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد»[٩]. اهـ (ك).

فصل

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «لمن يستظل بالخضراء ويستقل على

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الذي يقول للشيء: كن، فيكون وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال هٰهنا: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ . . .﴾».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فنزه».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قدره وتقديره وتسخيره وتدبيره».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مرجعه كله إلى الله».

(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بديل»!

(٩) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤) بتصرف.

الغبراء»، الخضراء: هي السماء، والغبراء: هي الأرض، كما قال النبي ﷺ: «**ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر**»(١). المراد بذلك أن محمداً ﷺ أرسل إلى جميع من هم على الأرض وتحت السماء من العقلاء ـ الإنس والجن ـ ليكون لهم نذيراً يحذرهم من عذاب الله إذا أقاموا على الشرك والمعاصي، ولم يمتثلوا ما أمرهم الله به.

الثانية: إن المشركين سفهاء؛ لأنهم اتخذوا آلهة من أهل الأرض، وآلهة أخرى من أهل السماء، مع علمهم بأنهم مخلوقون عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة، فكيف يستطيعون أن ينفعوا غيرهم؟

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان: ١٧ ـ ١٩]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٠٢)، وابن حبان (١٠/ ٢١٣) رقم (٧٠٨٨ ـ «التعليقات الحسان»)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ٢٢٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢/ ٢٣١)، والحاكم (٣/ ٣٤٢) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٥/ ٤٥٤): «وهو كما قالا على ضعف يسير في عكرمة بن عمار».

قال أبو عبيدة: وفي الباب ما يقوّيه، وهو حديث عبد الله بن عمرو، أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٢٤)، وأحمد (٢/ ١٦٣، ١٧٥، ٢٢٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٩/ ٢٣)، والترمذي (٣٨٠١)، وابن ماجه (١٥٦)، وابن سعد (٤/ ٢٢٨)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١/ ١٤٦)، والحاكم (٣/ ٣٤٢). وفي الباب عن أبي هريرة وأبي الدرداء، ومن مراسيل مالك بن دينار وابن سيرين، والحديث **حسن بمجموع طرقه**.

﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: هو عيسى [والعزير] والملائكة[(١)] ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية، فيقول[(٢)] تبارك وتعالى [للمعبودين][(٣)]: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟[(٤)] ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧][(٥)] الآية.

ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك[(٦)] فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برءاء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ الآية [سبأ: ٤٠، ٤١] ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلهم من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ قال ابن عباس: أي: هلكى[(٧)].

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٤١٥) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٧٢)، وهو في «تفسير مجاهد» (٢/ ٤٤٨). وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٦٥) للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، وما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وهو في «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: فيقول الرب».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٤) في الأصل: «يعبدوا».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى آخر».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا نحن ولا هم».

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٧٣) وابن جرير (١٧/ ٤١٧)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٩٤٤)، ومثله في «تفسير مجاهد» (٢/ ٤٤٨)، وأسنده عنه ابن جرير (١٧/ ٤١٧) والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المثور» (٥/ ٦٥).

[من دون الله][١] فيما زعمتم أنهم لكم أولياء [أنهم][٢] يقربونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي: يشرك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد عظيمة النفع لمن فكر فيها وفهمها:

الأولى: إن الله تعالى يجمع العابدين والمعبودين يوم القيامة؛ ليخزي العابدين ويوقعهم في الحسرة والندامة، فيقول للمعبودين كعيسى بن مريم، وعزير والملائكة، والجن والصالحين: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ فقلتم: اعبدونا بالذبح والدعاء والنذر والاستغاثة والتوكل والرجاء والخضوع والتذلل، ونحن نتكفل لكم بقضاء حاجاتكم عند الله في الدنيا وندخلكم الجنة يوم القيامة؟ أم من تلقاء أنفسهم ضلوا السبيل فعبدوكم من دون الله، واعتمدوا عليكم في قضاء الحاجات وتفريج الكربات؟ فيجيب أولئك المعبودون عن سؤال الله تعالى لهم بقولهم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ ننزهك أن يعبد معك غيرك، ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ أن نقول لهؤلاء المشركين ولا أن نرضى بعملهم، ولكن أنت يا رب متعتهم ومتعت آباءهم من قبلهم بطول العمر وسعة الجاه والأموال والأولاد حتى نسوا ذكرك ونبذوا كتابك وما جاءت به رسلك، وكانوا قوماً هالكين.

ثم يقول الله تعالى للعابدين: اسمعوا، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ وتزعمون من أنهم كانوا راضين عنكم بعبادتكم لهم، فأنتم وهم في هذا اليوم عاجزون، لا يستطيعون صرف العذاب عنكم، ولا تستطيعون أن تنصروا أنفسكم ولا غيركم، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ ظلماً كبيراً ـ وهو الشرك بالله ـ أو ظلماً صغيراً ـ وهو المعاصي ـ، ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾. اهـ.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنكم اتخذتموهم قربانا».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٢٩١ ـ ٢٩٣) بتصرف.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤١ ـ ٤٤]

قال (ك): «يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية [الأنبياء: ٣٦] يصفونه[١] بالعيب والنقص وقال ههنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ أي: على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله، كما قال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ يعنون: أنه كاد يفتنهم[٢] عن عبادة الأصنام[٣] لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها[٤] قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الآية.

ثم قال تعالى لنبيه منبهاً له[٥] أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً[٦] كان دينه ومذهبه كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ الآية [فاطر: ٨] ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس: «كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول»[٧].

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية، أي:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعنون». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يثنيهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أصنامهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على عبادتها».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في هوى نفسه».

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٩٩) وعزاه في «الدر المنثور» (١١/ ١٨١) لابن مردويه أيضاً.



هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلم يفعلوا[١] وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: كلُّ المشركين من عُبَّاد الشمس والقمر والملائكة والتماثيل وأرواح الأنبياء والصالحين وقبورهم والقباب المبنية عليها والأشجار التي جلسوا تحتها كلهم سواء، ولا يعقل أن يعبد أحد حجراً لأنه حجر، وإنما يعبده لأنه يعتقد أن روح معبوده متلبِّسة به، وهي التي يرجو أن تقضي حاجته، وهذا من جهلهم بالله العظيم، الذي يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] والجهل أصل لما في النفس من داء، وقانا الله تعالى شر جهلنا، ورزقنا العلم النافع.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٥٥ ـ ٦٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضرّاً ولا نفعاً[٣] بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء،، فهم يوالونهم[٤] ويقاتلون في

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٣٠٩).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نفعاً ولا ضرّاً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يوالون لهم».

سبيلهم، ويعادون الله ورسوله [والمؤمنين](١) فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون، يقاتلون عنهم ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصر(٢) لله ولرسوله [وللمؤمنين](٣) في الدنيا والآخرة، قال مجاهد: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ قال: «يظاهر الشيطان على(٤) معصية الله ويعينه»(٥).

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ(٦) وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨] ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣] الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧] وروى ابن أبي حاتم بسنده عن شهر بن حوشب قال: لقي سلمانُ النبيَّ ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له فقال: **«لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي**

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والنصرة».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «في».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧١١) وابن جرير (١٧/ ٤٧٧)، وبنحوه في «تفسير مجاهد» (٢/ ٤٥٥)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٧٤) إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم».

لا يموت»[١]، وهذا مرسل حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: اقرن بين حمده وتسبيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك**»[٢] أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: لعلمه[٣] التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية، أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السمٰوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: يدبر الأمر ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين، وقوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ فما قاله [هو الحق][٤] وما أخبر به فهو الصدق[٥] وهو الإمام المحكم، الذي إذا تنازع الناس في شيء، وجب ردّ نزاعهم إليه، فما وافق[٦] أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها[٧] فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩] ولهذا قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٨١٣) رقم (١٥٢٩١)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ١٠٣)، والطبري في «تاريخه» (١/ ٢٣٤، ط. الكتب العلمية)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥/ ٣٨٧) (رقم ٨٥١٠، ط. الكتب العلمية) وهو مرسل، **ولكن له شواهد هو بها حسن إن شاء الله تعالى**، منها: حديث أنس، وابن أبي أوفى، وأبي هريرة: وخرجتها في تعليقي على «إعلام الموقعين» (٦/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، وانظر: «الإرواء» (٧/ ٥٤ ـ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩٤) من حديث عائشة.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعلمه»!

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فهو حق». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صدق».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يوافق». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخالفها».

بِهِۦ خَبِيرًا﴾، قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال: «ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك»[(١)].

ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: لا نعرف الرحمن وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمٰن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب (**بسم الله الرحمن الرحيم**)»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم[(٢)]، ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: هو الله وهو الرحمن وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: لا نعرفه ولا نقر به، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد قولك: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمٰن الرحيم ويفردونه بالإلٰهية ويسجدون له، وقد اتفق العلماء[(٣)] رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر في موضعه، والله ﷻ أعلم»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: لقد أجاد الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيات، ولم يترك مقالاً لقائل، والمشركون في هذا الزمان وفي كل زمان لا يريدون أن يصدّقوا أن آلهتهم لا تنفع عبادتها، ولا يضر ترك عبادتها.

وفي هذه السنة سنة ١٣٩٤هـ انقطع المطر في المغْرب وطال انقطاعه فأبى المشركون أن يصلوا صلاة الاستسقاء وتشاءموا منها، وعمد بعضهم إلى ثور

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧١٥) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ١٩٧ ـ ط. هجر) إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير. وهو عند ابن جرير (١٧/ ٤٨١) عن ابن جريج قوله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ومن حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٣) حكى الإجماع على السجدات المتفق عليها الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) وعدّ هذا الموطن منها. وانظر: «مراتب الإجماع» (ص٣١ ـ ٣٢) و«الإقناع» (٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٩ رقم ١٠٦٧) لابن القطان، وهو أكبر موسوعة تراثية في الإجماع.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣١٥ ـ ٣١٨) بتصرف.

فاشتروه بثمانمائة درهم، وساروا به إلى الوثن المنصوب على قبر إدريس بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ، وذبحوه له متوسلين بذلك لنزول المطر فخيّب الله سعيهم(١).

وأخبرني تلميذي الشاب النجيب المحقق علي بن أحمد الريسوني(٢) أن السفهاء من أهل شفشاون ذبحوا بقرة سوداء في موضع يسمى رأس الماء بقرب الكهف المنسوب إلى الجنية مسعودة، ومشوا حفاة حاسري الرؤوس إلى قبر الشيخ الوافي، كل ذلك فعلوه لطلب الغيث فردهم الله خائبين(٣)، ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧١]

أخرج البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم عن عبد الله بن مسعود: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، قال: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»، قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية(٤).

---

(١) فصّل المصنف في هذه الحادثة في «ديوانه» وفي غير ما مقالة له. ولا داعي للتطويل، والله المستعان.

(٢) ظفرتُ بمجموعة مراسلات بينه وبين المصنف، تدل على سعة اطلاع هذا التلميذ، وأنه حقيق بالوصف المذكور.

(٣) انظر: ما قدمناه في تقديمنا لهذا الكتاب عن معرفة المصنف لما عليه الناس من مخالفات في توحيد الألوهية، وممارستهم لذلك في شتى البقاع والصقاع التي زارها ودعي إليها، وأكثر ما ذكر ذلك في كتابه «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة».

(٤) سبق تخريجه.

وروى الإمام أحمد بسنده عن المقداد بن الأسود ﷺ، يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**ما تقولون في الزنا؟**» قالوا: حرمه الله ورسله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**»، قال: «**فما تقولون في السرقة؟**» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره**»[1].

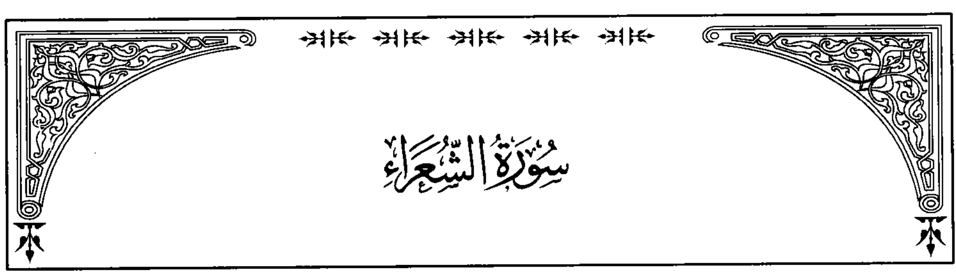
وقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: جزاءً [وعقاباً][2]. وفسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي: حقيراً ذليلاً ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي: في الدنيا إلى الله ﷻ من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣)، وفي «التاريخ الكبير» (٨/ ٥٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/رقم ٦٠٥) وفي «الأوسط» (٦٣٢٩)، **وإسناده جيد**. وقال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٩٢٠ ـ بعنايتي) والهيثمي في «المجمع» (٨/١٦٨): «رجاله ثقات» قلت: وله شواهد، يصح بها إن شاء الله تعالى، وانظر «السلسلة الصحيحة» (٦٥).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا أشبه بظاهر الآية ولهذا فسّره. . . .».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦) بتصرف.



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ١٠٤]

قال (ك): «هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام

إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل[١]، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ، فـ ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون[٢]، أي: مقيمون[٣] على عبادتها ودعائها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾؛ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٧٠].

فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلْتَخلُص إليّ بالمساءة فإنّي عدوٌّ لها لا أبالي بها[٤] ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الآية [يونس: ٧١]، وقال هود ﷺ: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال[٥]: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨١] وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]؛ يعني: لا إله إلا الله[٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: هو

---

(١) دليله: قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١].

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مقيمين». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أباليها».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال».

(٦) ورد هذا التفسير عن غير واحد من السلف، وانظر: «تفسير ابن وهب» (٢/١٤٦) و«تفسير مجاهد» (٢/١٨٥)، «والدعاء» للطبراني (١٥٤١، ١٥٤٢).

الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه فكل يجري على [ما قدر له][(١)] وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ أي: هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء وأحيى به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً «﴿نُسْقِيَهُ﴾[(٢)] ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾» [الفرقان: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخَلْقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، والغضب حذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠] وكذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ أي: هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذي يبدئ ويعيد، ﴿وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ أي[(٣)]: لا يقدر على غفران[(٤)] الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وهو الفعال لما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، هذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً، قال ابن عباس: «وهو العلم»[(٥)]، وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: **«اللهم في الرفيق الأعلى»**[(٦)] قالها ثلاثاً، و[في][(٧)] الحديث في الدعاء: **«اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين،**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قَدَر».

(٢) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «يسقيه»!

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو الذي».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «غفْر».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٨١) (رقم ٥٧٠٧).

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٠٩)، ومسلم (٢١٩١) من حديث عائشة.

(٧) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدلين»(1) وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي: أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ الآية، كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، وقد قطع الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: أجرني من الخزي يوم القيامة، يوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم، قال البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين**»(2)، وفي (أحاديث الأنبياء) بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة على وجه آزر قَتَرة وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول لإبراهيم: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي [الأبعد]**(3)؟ **فيقول الله تعالى: إني حرمت**

---

(1) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩) والنسائي في «الكبرى» (٦/١٠٤٤٥) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٦٠٩) ـ والبزار (١٨٠٠ ـ «زوائده») وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٨١) والطبراني (٤٥٤٩) وفي «الدعاء» (١٠٧٥) والحاكم (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٣/ ٢٣ ـ ٢٤) وأبو نعيم (١٠/ ١٢٧) والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٧٣) من حديث عبيد بن رفاعة، ووهم بعض الرواة في اسمه، كما في «المسند»، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: «الحديث مع نظافة إسناده منكر، أخاف أن يكون موضوعاً»! وقال في «السيرة النبوية» (١/ ٤١٩ ـ ٤٢٠ ـ ط. الرسالة): «هذا حديث غريب منكر»! **وصححه** شيخنا الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (ص٢٥٩ ـ ٢٦٠/رقم ٥٣٨) وفي «تخريج فقه السيرة» (٢٦٤).

(2) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٧٦٩).

(3) سقطت من الأصل، وهي عند البخاري، وكذا عند ابن كثير.

الجنة على الكافرين، ثم يقال[(١)]: يا إبراهيم انظر تحت رِجلَيك[(٢)]؛ فَيَنْظُرُ، فإذا هو[(٣)] بذيخ متلطِّخ، فيؤخَذُ بقوائمه فيُلقى في النار»[(٤)].

قال صاحب «اللسان»: «وفي حديث القيامة: «**وينظر الخليل عليه السلام، إلى أبيه، فإذا هو بذيخ متلطخ**». الذيخ: ذَكَرُ الضِّباع، فأراد[(٥)] بالتلطُّخ التطلخ برجيعه أو بالطين»[(٦)].

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لو افتدى بمن في[(٧)] الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذٍ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له، والتبرؤ من الشرك [وأهله][(٨)]، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: سالم من الدنس والشرك». وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾... إلخ.

قال (ك): «﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة[(٩)] مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها [في الدنيا][(١٠)] ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: أظهرت وكشف عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾ قال مجاهد: «يعني: [قد هووا]

---

(١) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول»!
(٢) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «انظر تحت رجلك».
(٣) سقط من الأصل، وهو من «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير».
(٤) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٠).
(٥) في مطبوع «اللسان»: «وأراد».
(٦) انظر: «لسان العرب» (٣/١٦ ـ ذيخ).
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «على»!
(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بزخرفة».
(١٠) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

فيها»[١]، وقال غيره: كبكبوا[٢] فيها والكاف مكررة كما يقال: صرصر، والمراد أنه ألقي بعضهم على بعضهم من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ألقوا فيها عن آخرهم ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: في العبادة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: ليس لنا شافع يشفع لنا عند الله فينجينا من عذابه، ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: يهتم بأمرنا ويتألم لنا، لأن المشرك لا يستطيع أحد أن يشفع فيه.

وقد تقدم أن الله لم يقبل شفاعة إبراهيم في أبيه آزر، ولا استغفار محمد ﷺ لعمه أبي طالب[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة (ص) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٦٤] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: في محاجة إبراهيم لقومه، وإقامة الحجة عليهم في التوحيد لآية ـ أي: لدلالة واضحة جلية ـ على أنه لا إله إلا الله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ القادر على تعجيل الانتقام، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحد من ذريتهم»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فدهوروا»!، والمثبت من «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧٨٥) رقم (١٥٧٤٦). ثم وجدته بلفظ «دُهْوِروا» عند ابن جرير (١٧/ ٥٩٧)، وعزاه له ولابن أبي حاتم بهذا اللفظ السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٢٧٤ ـ ط. هجر)

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كبوا»!

(٣) سيأتي تخريج ذلك مفصَّلاً، والله الموفق.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣٥٠ ـ ٣٥٦) بتصرف.

الأولى: لماذا قص الله علينا قصة إبراهيم مع قومه وأمر نبيه محمداً ﷺ أن يتلوها علينا؟ قال (ك): «لنقتدي به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله». فهذه أربعة أمور:

الأول: الإخلاص هو تصحيح القصد وإرادة وجه الله تعالى في كل ما نقوله ونعتقده ونفعله وندعو الناس إليه.

الثاني: الثقة بالله تعالى، والاعتماد عليه وعدم الخوف من المشركين والمنافقين.

الثالث: إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

الرابع: وهو شرط في صحة ما تقدم، وقليل من يتفطن له في هذا الزمان، وهو التبرؤ من الشرك وأهله، قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨] وقال في هذه السورة: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ إلى آخر ما تقدم.

فنحن نقول لعباد القبور والأضرحة والقباب: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ولا يتم توحيدنا إلا بذلك، هذا بعد أن نتلطف معهم، ونقيم لهم الحجج على أن ما يفعلونه هو الشرك الأكبر، ثم يصرون على عملهم، ولا نستثني من ذلك أحداً لا أباً ولا أمّاً ولا أخاً ولا عمّاً ولا صديقاً، وقد عسر هذا على بعض الموحدين، وعدّوه من التشدد والخروج من الحكمة، وهم محجوجون بما تقدم وبغيره.

الثانية: إن تماثيل الصالحين، وهي الأصنام والأوثان وهي قبورهم وقبابهم والأحجار التي جلسوا عندها والأماكن التي مروا بها، وسائر آثارهم، إذا دعاها الداعي لا تسمع دعاءه ولا تراه، وكذلك أرواحهم؛ لأن السعيد من المعبودين تكون روحه في الجنة، فهي مشغولة بالنعيم عن سماع دعاء من دعاها ولنفرض أنها سمعته فإنها تكرهه وتمقت ذلك الداعي، لأنه أشرك بالله، ولا تجيبه أبداً إلى

يوم القيامة، قال تعالى في سورة فاطر: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤] وإن كانت أرواح المعبودين شقيّة، فإنها لا تسمع دعاء العابدين، لأنها مشغولة بالعذاب.

الثالثة: جواب المشركين لإبراهيم الخليل، وجواب المشركين لخير أبنائه محمد ﷺ حين سئلوا، من خلق السماوات والأرض، و﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥]، كان اعترافاً بعجز آلهتهم، وأنها لا تسمع ولا تنفع، إلا أنهم اقتدوا بآبائهم.

قال محمد تقي الدين: أما المشركون في هذا الزمان، فإنهم أشد جهلاً وأغلظ كفراً[(١)]، فإنهم يزعمون أن آلهتهم تسمعهم إذا استغاثوا بها، وتتصرف في العالم وتنفع وتضر، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

الرابعة: ذكر الله لنا سبحانه أربعة من الرسل كلهم خوّفهم المشركون من قومهم، وحذروهم أن تصيبهم آلهتهم بسوء، فقالوا لهم كلهم في المعنى: أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم وكيدونا ولا تمهلونا طرفة عين، وكذلك المشركون في هذا الزمان، يخوّفون الموحِّدين من غضب آلهتهم ويقولون لهم: احذروا الأولياء أن يصيبوكم بالمصائب التي لا طاقة لكم بها، ولما خرجت من الطريقة التجانية[(٢)] على يد شيخنا محمد بن العربي العلوي[(٣)] رحمة الله عليه في فاس في ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ ورجعت إلى وجدة، حيث كنت معلماً عند الشيخ أحمد سكيرج[(٤)]، لابنه عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام، وكان يجلّني ويكرمني، وكنا

---

(١) سبقت كلمة مهمة في هذا الباب للأديب الشهير المنفلوطي ـ رحمه الله تعالى ـ، انظرها في التعليق على (ص٦٧).

(٢) انظر قصة رجوعه مفصلة في تقديمنا للكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) ذكره الهلالي في أكثر من موطن من كتابنا هذا، وقال عنه فيما سيأتي (٣/ ١٧٥): «يوجد في زماننا هذا بصيص من نور الكتاب والسنة أوقده شيخنا محمد بن العربي العلوي، واقتبسه من كتب الشيخين الربانيين ابن تيمية وابن القيم ـ رحمهما الله ـ وزادنا الله من هذا النور». ولهذا الشيخ ترجمة في «إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع» (٢/ ٥٨٣) ومجلة «البصائر» العدد (٣٠)، السنة الأولى، ٥ أفريل ١٩٤٨م، وانظر «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٢/ ١٩٣)، وما سيأتي (٤/ ١٢٧).

(٤) درس الهلالي عليه مدة، وظهرت إرهاصات نبوغ الهلالي وهو في طور الدرس عند هذا =

في الهوى سواء، هو مقدم كبير في الطريقة التجانية وأنا مريد.

فلما علم أني نبذت الطريقة التجانية نبذ النوى، أظهر الحزن، وجمع عليَّ علماء وجدة، فناظروني فظهرت عليهم بالحجج القاطعة، فخوفوني من انتقام الشيخ، وذكروني بما نُسب[1] إلى الشيخ أحمد التجاني، أنه قال: من ترك طريقته وأخذ طريقتنا فلا خوف عليه لا من الله ولا من رسوله ولا من شيخه أيّاً كان، من الأحياء أم من الأموات، أما من أخذ طريقتنا هذه الأحمدية المحمديّة الإبراهيمية الحنيفية التجانية وتركها، فإنه يحل به البلاء دنيا وأخرى، ولا يموت إلا كافراً قطعاً، وبذلك أخبرني سيد الوجود ﷺ يقظة لا مناماً[2]، فقلت لهم: دعوني من هذا الوعيد الذي لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولا قام عليه دليل بل هو مضاد للدليل كما أخبرتكم بالأدلة القاطعة، فغضبوا وقالوا للشيخ أحمد سكيرج: (هذا مُفلَّس) لا تنفع فيه النصيحة، والمفلس ـ بفتح اللام وتشديده، وضم الميم وتسكن تخفيفاً ـ في اللغة المغربية هو الذي بلغ غاية الضلال.

ووقع لي مثل ذلك في تطوان لما أصابني مرض الربو، زعم المشركون أن السيد السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض، لأني قلت لهم: لا تذبحوا له ولا تطلبوا منه حاجة، فإنه لا يضر ولا ينفع، وكنت أعلم أن سبب المرض هو التعرض للبرد بعد الخروج من الحمام، وعلمت بعد ذلك بالتجربة أن هذا النوع من الربو دواؤه الانتقال من قرب البحر إلى الأماكن التي هواؤها جاف خال من الرطوبة، لأني إذا كنت في البلاد البعيدة من البحر، كسجلماسة، ومدينة مراكش، ومدينة النبي ﷺ، ومكة، وشمال العراق، لا يصيبني أبداً، فأين غضب السيد السعيدي وانتقامه مني حين أكون في البلاد البعيدة من البحر، وهل سيدي السعيدي يرضى أن يعبده الناس؟ لو كان كذلك لما كان صالحاً، إذ لا يرضى

= الشيخ. انظر «السلفية الوهابية في المغرب» (ص١٥)، وقال الهلالي عن شيخه هذا في مقال «الإسلام يكافح الاستعمار»: «وله فضل عليَّ كبير». وانظر «الهدية الهادية» (١٢ - ١٣) و«الديوان» (ق٩٣، ١٩٦) كلاهما للهلالي.

(١) هذا التشكيك في غير محله، أفاده أستاذنا فضيلة الشيخ العلامة محمد بوخبزة فيما قدمناه عنه (ص٢٣).

(٢) هذه خرافة، كشفتُ عن أصحابها وأضرارها ومن زيّفها من المعتبرين في كتابي «قصص لا تثبت» (٣/ ١٧١ ـ ٢٤٧)، فانظره إن أردت الاستزادة.

بعبادة الناس له إلا شيطان أو طاغوت، فما أسفه عقول المشركين!

الخامسة: يوجد كثير من الدجاجلة يضمنون الجنة لغيرهم بدراهم معدودة، ويقولون لهم: نحن آل النبي لا تمسنا النار، وقد ضمناكم فلا تمسكم النار حتى تَمَسَّنا، وهؤلاء مجرمون كاذبون على الله، فمحمد رسول الله ﷺ لم يستطع أن يدخل عمه أبا طالب الجنة، ولما استغفر له نهاه الله تعالى بقوله في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]، وفي «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ قال: «**يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت وأنقذي نفسك من النار، لا أغني عنك من الله شيئاً**»، وقال مثل ذلك لعمته صفية، ولعمه العباس، ولأقرب الناس إليه، بني هاشم[(١)]، وقد رأينا هنا أن إبراهيم إمام الحنفاء ﷺ يشفع لأبيه آزر فلا يقبل الله شفاعته فيه، بل يَمْسَخُ أباه آزر ذيخاً متلطّخاً بما يخرج منه، ثم يأمر به فيلقى في جهنم[(٢)].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

[الشعراء: ٢١٣ ـ ٢٢٠]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه، ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، أي الأدنين إليه، وأنه لا يخلّص أحداً منهم إلا إيمانه بربه ﷻ وأمَرَه أن يليّن جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى:

---

(١) سيأتي لفظه وتخريجه قريباً.

(٢) مضى لفظ الحديث الوارد في ذلك مع تخريجه قريباً.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ٦] وفي «صحيح مسلم»[1]: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**». وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها:

الحديث الأول: رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ أتى النبي ﷺ الصَّفَا، فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه! فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني**»؟، قالوا: نعم، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، فقال أبو لهب: تباً لك، سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١]»[2].

الحديث الثاني: روى الإمام مسلم وأحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «**يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم**»[3].

الحديث الثالث: روى الإمام البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعم وخص فقال: «**يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾ أي: في جميع أمورك فإنه

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨)، وأحمد (١/ ٣٠٧)، والترمذي (٣٣٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٥)، وأحمد (٦/ ١٣٦، ١٨٧)، والترمذي (٢٣١٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٠)، ومسلم (٢٠٤)، والترمذي (٣١٨٥)، وأخرجه البخاري (٤٧٧١) بنحوه.

مؤيدك وحافظك وناصرك[١] ومظفرك[٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ قال في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ أي: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: نستفيد من هذا الكلام فوائد:

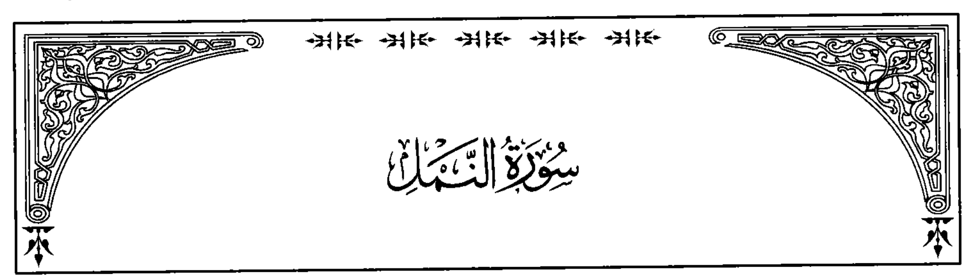
الأولى: إن كل من دعا مع الله غيره لجلب خير أو دفع شر، فإن الله يعذبه في الدنيا وفي الآخرة، وقد وجه الله تعالى الخطاب لنبيه وخير خلقه محمد ﷺ مع علمه سبحانه أنه معصوم من الشرك ومن المعاصي كلها، ليبين لنا أن كل من أشرك به، ولو بلغ في العبادة وعلو المنزلة كل مبلغ، فإن الله يحبط عمله ويعذبه، ولا يستطيع أحد أن يشفع فيه، حتى لو فرض المحال، وهو أن نبيّاً من الأنبياء أشرك بالله، فإن الله يعذبه، وتعليق الحكم على المستحيل موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقد تقدم تفسيره.

الثانية وهي من أهم المسائل: أمر الله تعالى لنبيه أن يحذّر أقرب الناس إليه من عذاب الله لئلا يتكلوا على قرابتهم منه، ويتكاسلوا عن العمل أو يتجرؤوا على ارتكاب المعاصي، اعتماداً على أنهم أقرب الناس إلى سيد الشفعاء، وأنه يشفع لهم، ويخلّصهم من العذاب، وقد قام النبي ﷺ بما أمره الله تعالى به خير قيام، فأنذر الأقربين كلهم حتى أنذر أقرب الناس إليه ابنته فاطمة، وخوفها من عذاب الله، وأخبرها أنه لا يخلصها من العذاب إلا توحيد الله تعالى وطاعة رسوله، وأن القرابة وحدها لا تغني عنها شيئاً.

الثالثة: إن من آمن بالله واتقاه يكون معه بنصره وتأييده، وأنه لا يتوكل إلا على الله في جلب الخير ودفع الشر.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ناصرك وحافظك».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مُعْلٍ كلمتك».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجميع».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٠/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦، ٣٨٢).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦]

قال معين الدين ابن الشيخ صفي الدين في «جامع البيان في تفسير القرآن»: «﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ أي: بلقيس تملكهم، الضمير لسبأ باعتبار أهلها، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بالنسبة إلى عروش أمثالها، من ذهب مكلل بأنواع الجواهر ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فلا يهتدون إلى قبائح أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ منعهم ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ أي: صدهم أو زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، من قرأ[1]: ﴿أَلَآ﴾ بالتخفيف فمعناه: ألا يا قوم اسجدوا، وهو استئناف أمر من الله بالسجود أو من الهدهد أو من سليمان ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾، يظهر ما خفي في غيره وهو عام لإنزال المطر وإنبات النبات، وإنشاء البنين والبنات وغيرها في السموات والأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا

(١) هذه قراءة أبي جعفر والكسائي ورويس عن يعقوب والزهري والسلمي وطلحة وحميد الأعرج والحسن والشنبوذي والمطوّعي وقتادة وأبي العالية والأعمش وابن أبي عبلة. ونسبت لابن عباس. انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٥٦)، «النشر» (٢/ ٣٣٧)، «الحجة» (٢٧٠) لابن خالويه، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/ ٢٧٤)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (٢/ ١٤٨)، «معجم القراءات» (٦/ ٥٠٤).

﴿تَعۡلِنُونَ﴾ فله استحقاق السجود، لا لكرة تدور على الفلك بأمر مديرها ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾ المحيط بجملة المكونات».

فصل

قال محمد تقي الدين: النظر هنا في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الشمس أعظم آية من آيات الله التي نشاهدها بالبصر في هذه المجموعة الشمسية من الكواكب السيارة، والنجوم البعيدة والقمر، وقد جعلها الله تعالى سبباً لحياة الحيوان والنبات، وجعل الأرض التي تسكنها تبعد من الشمس بمقدار معين دقيق لو زاد شيئاً قليلاً في البعد من الشمس لجمد كل ما على ظهر الأرض من حيوان ونبات، ولو دنا قليلاً من الشمس لاحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فكيف يتجاسر الملحدون والقردة الذين يقلدونهم على القول: بأن هذا العالم أوجد نفسه وهو يدبر نفسه، هؤلاء مغالطون مخادعون لأنفسهم قبل غيرهم.

ولما كانت الشمس أعظم المخلوقات التي نشاهدها افتتن بها قوم من الذين يغترون بالظواهر، ولا ينظرون ما وراءها فاتخذوها إلهاً يعبدونها من دون الله، ومن بقاياهم الشعب الياباني، فإنهم يعتقدون أن ملكهم المسمى عندهم (مكدو) هو ابن الشمس، فهم يعبدونه من دون الله، ويوجد في شمال بلاد (نرويج) قوم من أهل البادية يسكنون الخيام في تلك الأراضي القطبية الشديدة البرد، فإنها في وقت شتائها تغيب عنها الشمس ثلاثة أشهر[1]، ولكن القمر يبقى ظاهراً فهم يعبدونه، وأما أهل المدن فإنهم نصارى كسائر الأوربيين.

ولو كانت الشمس هي التي أوجدت نفسها، وهي التي تدير نفسها، ولها علم وإرادة تسير باختيارها، لكان هناك العذر لمن يعبدها، ولكنها مخلوقة لها أجل محدود لم تكن من قبل ثم كانت، وإذا انقضى أجلها تفنى.

وقد قدر علماء الفلك في هذا العصر حسب حدسهم وتخمينهم عمر

---

(١) للمصنف رحلة قام بها إلى بلاد النرويج، ذكرها في مقالة له بعنوان «الشمس في نصف الليل» نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، العدد الخامس، السنة الحادية عشرة، سنة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨م (ص٦١ ـ ٦٤) وفي مجلة «الجامعة الإسلامية» العدد السابع، بتأريخ محرم ١٣٩٠هـ (ص٣٥ ـ ٤٤)، وفي ضمن كتابنا «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره.

الشمس بعشرين ألف مليون سنة، وزعموا أن نصف هذه المدة قد مضى ونصفها باقٍ، وهو عشرة آلاف مليون سنة، ولا يوجد أحد منهم في هذا الزمان يدعي أن الشمس أزلية، ولا أنها تطلع باختيارها وتغرب باختيارها، وتعطي الضوء والحر من تريد وتمنعهما ممن تريد، وعباد البقر في الهند أقل حماقة من عباد القبور، فلا ينبغي أن يعبد إلا رب العرش العظيم، وهو على كل شيء قدير(١).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٤ ـ ٤٧]

قال محمد تقي الدين: إن كثيراً من أهل هذا الزمان الذي لم يقتلوا «تفسير (ك)» درساً وبحثاً يخيل لهم أن فيه خرافات إسرائيلية تكدر صفوه، فيجب حذفها، فأقول لهم: على رسلكم، ومن ذا الذي حرم علينا ذكر الإسرائيليات وروايتها إذا كانت فيها فائدة؟ كيف وقد قال النبي ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»(٢)؟ فكأنّ هؤلاء يعارضون النبي ﷺ ويقولون: لا تحدثوا عن بني إسرائيل، ففي الحديث عنهم حرج، فإذا روى المفسرون السابقون، كابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والحسن البصري، وكبار أئمة الحديث، كأبي بكر بن أبي شيبة شيخ البخاري ومسلم حكايات كثيرة عن

(١) للمصنف أربع وعشرون مقالة نشرت في مجلة «دعوة الحق» بعنوان «دواء الشاكين وقامع المشككين»، وعمل هو على نشر بعضها في كتاب طبع عن دار الفتح، بيروت، سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م في (١٩١ صفحة) بعنوان «الطريق إلى الله»، فيه كثير من آيات الله الكونية، التي تدل على أن الله حق، ومنها كلام مفصل على الفلك والشمس وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو، وأطلتُ النفس في تخريجه في تعليقي على «أوهام الحاكم» (ص١٣٥ ـ ١٣٦) للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي وعلى «جزء الجويباري» (رقم ٢٣) للبيهقي.

بني إسرائيل، منها ما يصح ومنها ما لا يصح، فلا يسع الحافظ (ﷺ) إلا أن يذكر ذلك في «تفسيره».

ولكن هل كان يصدّق كل ما روي في ذلك أو يعتمد عليه في إثبات حكم؟ الجواب: لا، ثم لا، وقد آتاه الله من العلم والحكمة ما يمنعه من ذلك، فقد ذكر رحمه الله في قصة سليمان وبلقيس أخباراً عجيبة غريبة وختمها بقصة طويلة عزاها إلى الإمام أبي بكر بن أبي شيبة، ثم قال بعد حكايتها عند قول ابن أبي شيبة: «ما أحسنه من حديث»، ما نصه: «قلت: بل هو حديث منكر غريب جدّاً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم، والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما يوجد[١] في صحفهم، كروايات كعب، ووهب، سامحهما الله تعالى فيما نقلا[٢] إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن، ومما حرف وبدِّل ونسخ، وقد أغنانا[٣] الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: أفبعد هذا يُتَّهم (ﷺ) بالغفلة وحشو كتابه بالإسرائيليات والحكايات الخيالية؟ اللهم لا، إنه بريء من ذلك[٥]، ثم قال في

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وجد».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «نقلاه»!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أغنى». (٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٤١٣).

(٥) انظر: تفصيل ذلك في كتاب «ابن كثير ومنهجه في التفسير» (ص٣١٤ ـ ٣٢٧)، وفيه (ص٣١٥): «وفي ظني أن الحافظ ابن كثير هو أحد المفسرين القلائل الذين هاجموا بشدّة هذه الخرافات الإسرائيلية، ولطالما حذر منها أثناء تفسيره»، وانظر منه (٣٢٥ ـ ٣٢٦) حول (الإسرائيليات في قصة سليمان وبُلقيس).
هذا وقد تتابعت الكلمات على شكر صنيع ابن كثير في نقد الإسرائيليات، فها هو الشيخ محمد حسين الذهبي يقول في كتابه «الإسرائيليات في التفسير والحديث» (ص١٨٠ ـ ١٨١): «وكذلك حين يفسر يتوخى في «تفسيره» الصحيح، وما يذكره من العليل: ينقده ويكشف عن مواطن الضعف فيه، وما يرويه من إسرائيليات: يكشف عن زيفه وفساده، ويحذر منها أبلغ التحذير. وعلى الجملة فلم نر من المفسرين رجلاً كان له من قوة النقد للمأثورات، وتمييز جيادها من زيوفها مثل ما كان لابن كثير رحمه الله». =

بقية تفسير الآيات: أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع، قال الله ﷻ إخباراً عن فرعون لعنه الله، أنه قال لوزيره هامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الآيات، والصرح قصر في اليمن عالي البناء، والمراد المبني بناء محكماً أملس.

﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ومارد: حصن بدومة الجندل، والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما أتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله ﷻ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: فيما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل

= وقال أيضاً (ص١٩١ ـ ١٩٢): «ولكن مهما يكن من شيء؛ فابن كثير خير مَن رأينا من المفسرين موقفاً من الإسرائيليات، فهو يتعقبها إلا ما ندر، ويبين ما فيها من زيف وفساد، وليت لنا من ينقد ما في كتب التفسير من روايات إسرائيلية وغير إسرائيلية على طريقة ابن كثير ومنهجه... إذن لكان قد أسدى إلى المشتغلين بالتفسير فضلاً لا ينسى، وجميلاً لا يجحد».

ويقول العلامة الشيخ أحمد شاكر في اختصاره لـ«تفسير ابن كثير» المسمى «عمدة التفاسير» (١/ ٥ ـ ٦): «إنه ـ أي «تفسيره» ـ معلم ومرشد لطالب الحديث؛ يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون، وكيف يميز الصحيح من غيره، فهو كتاب في هذا المعنى تعليمي عظيم، ونفعه جليل كثير».

فكيف يدعي مع هذا بعض ناشريه ـ وهم الأساتذة الذين أشرفوا على طبعة الشعب[1] من هذا «التفسير» ـ أنه حفل بالكثير من الإسرائيليات التي لا تستند إلى نقل ولا إلى عقل؟! والتي هي أشبه بالخيالات والأساطير منها بالآثار، كيف يتجرؤون على هذا، وهم الذين عايشوا «تفسيره» تحقيقاً وتخريجاً؟!

هكذا انقلب الإمام الناقد البصير الواعي إلى حاطب ليل! يحفل «تفسيره» بالكثير من الإسرائيليات؟ فموقف ابن كثير على التحقيق، كما قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، وهو موقف الناقد المهاجم المحذر منها.

(١) انظر مقدمته (١/ ٦).

شيء، فقدره تقديراً»، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

قال (ك): «يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ﷺ، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، قال مجاهد: «مؤمن وكافر»[1] كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

قال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال: هذا من قِبَل صالح وأصحابه، قال مجاهد: تشاءموا بهم[2]، وهذا كما قال تعالى: إخباراً عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] أي: بقضائه وقدره[3]، وقال تعالى مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ﴾ [يس: ١٨ ـ ١٩] الآية، وقال هؤلاء: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: الله يجازيكم على ذلك، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية، والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال»[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٩٨) رقم (١٦٤٥٢) وابن جرير (١٨/ ٨٦) والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١١/ ٣٨٦ ـ ط. هجر)، وهو في «تفسير مجاهد» (٥٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٩) رقم (١٦٤٥٩). وانظر: «الدر المنثور» (١١/ ٣٨٦ ـ ط هجر).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بقدر الله وقضائه».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا[(١)] بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٥]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبياؤه الكرام عليهم من الله [أفضل][(٢)] الصلاة والسلام، وهكذا قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفاهم[(٣)] الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

---

(١) في الأصل: (نُشُراً) وسيثبتها المصنف في الشرح بالرسم الذي ذكرناه، و«نشراً» قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب وابن كثير، بالنون مضمومة وضم الشين بعدها، وقرأ ابن عامر والحسن (نُشْرا) بضم النون وسكون الشين. انظر: «السبعة» (٢٨٣)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٦٥)، «الحجة» لابن خالويه (١٥٧)، «إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ٣٣٣).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «اصطفى: هم».

﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ـ ورضي عنهم أجمعين ـ وروي نحوه عن ابن عباس [أيضاً][١] ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من [عباد الله][٢] الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد [ذكره][٣] لهم، ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكاري[٤] على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة آخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه [المنفرد][٥] بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي [خلق][٦] تلك السموات [في ارتفاعها][٧] وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيِّرة والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، و[خلق][٦] الأرض في استفالها[٨] وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال [والأطواد والسهول والأوعار][٩] والفيافي والقفار، [والزروع والأشجار][١٠] والثمار والبحار[١١] والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: جعله رزقاً للعباد،

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». والأثر أخرجه ابن أبي حاتم (٩/٢٩٠٦) رقم (١٦٤٩٥) وابن جرير (١٨/٩٨) والبزار (٢٢٤٣ ـ «زوائده») **وإسناده ضعيف جداً**، مداره على الحكم بن ظهير، متروك رمي بالرفض، واتهمه ابن معين، كذا في «التقريب» (١٤٤٥)، وعزاه في «الدر المنثور» (١١/٣٨٨) لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عباده».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما ذكر».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنكار».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتفرد».

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بارتفاعها».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «باستفالها».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأوعار والسهول».

(١٠) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأشجار والزروع».

(١١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والبحور».

﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي بساتين ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾» أي: منظر حسن وشكل بهي ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها(١) وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المنفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو [المنفرد](٢) بالخلق والرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أإله مع الله يعبد؟ وقد تبين لكم ولكل ذي لب ممن يعترفون(٣) به أيضاً أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾(٤) فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به، فيقال: كيف تعبدون معه غيره، وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: ١٧] الآية.

وقوله تعالى هٰهنا: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ﴿أَمَّنۡ﴾(٥) في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق، وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ثم قال في الآية الأخرى(٦): ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً، وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: ٩] أي: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]. ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شجرها». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتفرد».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعرفون».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: أإله مع الله».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمّن».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «آخر الآية».

تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا[1] ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً، ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤].

[وقوله][2]: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة [شقها][3] في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض ويسير إليهم[4] أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو، هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً، يسقي[5] الحيوان والنبات[6] منها، والبحار المالحة[7] المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب[8]، كما قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تشقها».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سيّر إليهم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تسقي».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والثمار».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هي».

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً؛ لئلا يفسد الهواء بريحها».

فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: فعل هذا، [أو يعبد][١] على القول الأول[٢] وكلاهما متلازم صحيح، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: في عبادتهم غيره».

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

قال (ك): «ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وهكذا قال هٰهنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي [لا][٣] يلجأ المضطر [إلا][٣] إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين[٤] سواه.

وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن سُلَيم الهُجَيْمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتبٍ بشملة وقد وقع هُدَبُها على قدميه، فقلت: أيكم محمد رسول الله؟ فأومى بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيَّ جفاؤهم فأوصني، قال: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تسبن أحداً**»[٥]. قال: فما سببت أحداً ولا شاة ولا بعيراً.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وبعد». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآخر».

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «المضطرين»!

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣، ٦٤، ٩٤)، والبخاري في «التاريخ الصغير» (١/ ١١٨)، وفي «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٠٦)، وفي «الأدب المفرد» (١١٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩٦٩١ ـ ٩٦٩٤)، وأبو داود (٤٠٧٥)، والترمذي (٢٧٢١)، والطيالسي (٢٠٨)، وعبد الرزاق (١٩٩٨٢)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٩١ ـ ٣٩٣)، وأبو عبيد في «الخطب والمواعظ» (رقم ١٥ ـ بتحقيقي)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٨٥)، وابن سعد (٧/ ٤٤)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٤٢)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٦٦)، وابن حبان (٥٢١)، والطبراني (٦٣٨٥ ـ ٦٣٨٨)، والحاكم (٤/ ١٨٩)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٦) **والحديث صحيح**، وانظر: «الكبائر» (٣٩١ ـ ٣٩٢ رقم ٣٤٦ النشرة الثانية ـ بتحقيقي).

وقال أبو حاتم بسنده عن عبيد الله بن أبي صالح قال: «دخل علي طاوس يعودني، فقلت: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن، فقال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه»[١]. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي، قال هذا الرجل: كنت أكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل، فمررنا [في][٢] بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر ووادٍ عميق، وفيه قتلى كثير[٣]، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه، وقصدني ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله، وقلت: خذ البغل بما عليه. فقال: هو لي وإنما أريد قتلك، فخوَّفته الله والعقوبة، فلم يقبل فاستسلمت بين يديه، وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين، فقال: وعجِّلْ فقمتُ أصلي فأرتج عليَّ القرآن، فلم يحضرني منه حرف واحد فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه افرغ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم [الواد][٤] وبيده حربة، فرمى بها الرجل، فما أخطأتْ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩١٠) رقم (١٦٥١٩)، والخطيب في «تالي تلخيص المتشابه» (رقم ١١٥ ـ بتحقيقي)، وعبيد الله بن أبي صالح مقبول، كما في «التقريب».

وكره السلف طلب الدعاء من الغير إن دخل فيه أمر زائد، صار الدعاء بتلك الزيادة مخالفاً للسنة، كأن يعتقد فيه أنه مثل النبي، أو أنه وسيلة إلى أن يُعتقد ذلك، أو يُعتقد أنه سنة تلزم، أو تجري في الناس مجرى السنن الملتزمة. قال شيخ الإسلام في «قاعدة جليلة» (ص٧١، ط. ربيع): «هذا ليس من المقتدين بالرسول، المؤتمين به في ذلك، بل هذا من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله وسؤاله ـ وتحرف في جميع الطبعات إلى «ورسوله»: وهو تحريف قبيح يفضي إلى الشرك والعياذ بالله ـ أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله، وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع»، وانظر فيما ورد عن السلف في ذلك مع توجيهه: «المجالسة» (٤/ ٧٠ ـ ٧١)، و«الاعتصام» (٢/ ٣١٤ ـ ٣١٩) وتعليقي عليهما.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كثيرة»!

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الوادي».

فؤاده، فخرَّ صريعاً، فتعلقت بالفارس، وقلت [له][(١)]: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قرن قرناً[(٣)] قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣] ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، كما قدمنا تقريره[(٤)] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: يقدر

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) القصة في «تاريخ دمشق» (٦٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢، ط. دار الفكر)، ورويت على ضروب وألوان، فوردت عن (أبي معلق) وفي القصة: «رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار» عند ابن أبي الدنيا في «مجابي الدعوة» رقم (٢٣)، و«الهواتف» رقم (١٤) ـ ومن طريقه اللالكائي في «كرامات الأولياء» رقم (١١١)، وعبد الغني في «الترغيب في الدعاء» رقم (٦١) ـ وأبي موسى المديني في «الوظائف»، وابن بشكوال في «المستغيثين بالله» رقم (٣)، والضياء في «العدة للكرب والشدة» رقم (٣٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٥/ ٣٠٢)، وابن حجر في «الإصابة» (٧/ ٣٨٠)، **وإسنادها مظلم**، وقال الذهبي في «التجريد» (٢/ ٢٠٤): «أبو معلق الأنصاري له حديث عجيب، لكن في سنده الكلبي، وليس بثقة»، وهي مسندة عند أبي سعيد النقاش في «فنون العجائب» (رقم ٨٣ ـ بتحقيقي) مما قصه عبد الله بن سلام على النبي ﷺ، وفي إسنادها عبد المنعم بن إدريس اليماني قصاص مشهور، ليس يعتمد عليه، تركه غير واحد، واتّهم.
وأسندها المعافى النهرواني في «الجليس الصالح» عن بعض بني إسرائيل، وكذا ذكرها التنوخي في «الفرج بعد الشدة» (ص٤٩ ـ ٥٠).
وشاعت وذاعت قديماً وحديثاً، وفي «الحلية» (٧/ ٢٩٢ ـ ٤٩٤) أن ابن عيينة كان يطلب من رجل وقعت له أن يقوم ويحدث بها، وهكذا ذكرها عنه الدميري في «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩) ثم وجدتها مسندة عند ابن شاهين في «جزء من حديثه عن شيوخه» رقم (٢٧)، وزادت عليها الألسنة، وغيَّرت فيها الأسنة، كما تراه ـ مثلاً ـ في «آداب الدعاء» (٧٣ ـ ٧٤) للأقفهسي نقلاً عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتناقلها وطار بها أي مطار الشيخ عبد الحميد كشك ـ رحمه الله تعالى ـ وجماعة التبليغ، وهما في هذا العصر من أكبر مصادر الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قرناً لقرن».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير» بعد كلام: «ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾».

على ذلك، أو: أإله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد[١] بفعل ذلك [وحده لا شريك له][٢] وقال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣] يقول تعالى: أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر[٣] بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٧] الآية [وقال تعالى][٤]: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث [الله][٥] به عباده المجدبين[٦] القنطين، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق: ١١، ١٢] فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه[٧] ينابيع في الأرض ثم يخرج به [منها][٨] أنواع الزروع والثمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى، ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: فعل هذا، وعلى القول الآخر يعبد[٩]، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المنفرد». (٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٤) سقط من الأصل، وأثبته من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأزلين».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيسكنه».

(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بعد هذا».

صحّة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم [في ذلك][(١)] ولا برهان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: إنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب [إلا الله][(١)] وقوله تعالى: [﴿إِلَّا﴾][(٢)]، استثناء منقطع أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ، فإنه المتفرد[(٣)] بذلك وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ..﴾ [لقمان: ٣٤] إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة، وقوله تعالى: [﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾][(٤)] أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: ٨٧] أي: ثقل علمها على أهل السموات الأرض، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «من زعم أنه يعلم ـ تعني: النبي ﷺ ـ ما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾»[(٥)].

وقال قتادة[(٦)]: «إنما جعل [الله][(٧)] هذه النجوم لثلاث [خصال][(٨)]: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناساً[(٩)] جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلّا الله».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المنفرد».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾».
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/٢٩١٣) رقم (١٦٥٣٥)، ومسلم (١١٧) مطولاً، والترمذي (٣٠٦٨) وغيرهم.
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إن الله».
(٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خصلات» وفي مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «خصال».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ناساً».

كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم[(١)]، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه[(٢)] ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون»[(٣)]. رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه، وهو كلام جليل متين»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن كل من يقرأ الآيات ويفهم معناها ويبقى معتقداً بجواز عبادة غير الله تعالى بالدعاء وبالاستغاثة والذبح والنذر والخوف والرجاء والتوكل والخضوع والتذلل، فلا شك أن الله تعالى ختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهدي من أضل الله؟

الثانية: ذكر الله تعالى في هذه الآيات خمسة عشر دليلاً، كل واحد منها كاف شاف في أنه لا يعبد إلا الله، ومن عرف ذلك الدليل، وعبد غير الله، فهو أضل من الأنعام:

الأول: خلق السمٰوات والأرض.

الثاني: إنزال الماء من السماء.

الثالث: إنبات النبات من حدائق وغيرها.

الرابع: جعل الأرض قراراً.

الخامس: خلق الجبال في الأرض لتثبيتها.

السادس: جعل الأنهار تجري خلالها.

السابع: خلق حاجز بين الماء العذب والماء المالح.

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدال مهملة، وفي الأصل بذال معجمة.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أن»!

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩١٣) رقم (١٦٥٣٦)، والخطيب في «القول في علم النجوم» (ص١٨٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤١٨ ـ ٤٢٦) بتصرف.

الثامن: إجابة المضطر وغوث الملهوف كصاحب البغل.

التاسع: كشف السوء كله من فقر ومرض وسجن وغير ذلك من أنواع الضيق والكرب.

العاشر: جعل الله الناس خلفاء في الأرض يخلف بعضهم بعضاً، يعمر الأرض قوم ثم يذهبون، ويأتي قوم آخرون، وهكذا إلى يوم القيامة.

الحادي عشر: هداية الله الناس في أسفارهم في ظلمات البر والبحر بنجوم السماء، وعلامات الأرض.

الثاني عشر: إرسال الله الرياح مبشرات بين يدي المطر.

الثالث عشر: إن الله يبدأ الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم.

الرابع عشر: إن الله يرزق عباده أنواعاً من الرزق، بعضها من السماء وبعضها من الأرض.

الخامس عشر: استئثار الله تعالى بعلم الغيب.

الثالثة: تكرار قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خمس مرات، وقد فسرها بعض المفسرين بقولهم أإله يعبد مع الله؟ وفسرها آخرون بقولهم: أإله آخر هناك فعل ذلك؟ والجواب: لا، لأن المشركين في ذلك الزمان يعتقدون جازمين أنه لا يفعل ذلك إلا الله، فيقال لهم: لماذا تعبدون غيره إذاً؟!

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٣]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن رسوله[1] وآمراً له أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ [يونس: ١٠٤] وإضافة[2] الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لرسوله».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أضاف».

والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣، ٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها...**»(١) الحديث بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، [لا إله إلا هو](٢).

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٨]، وكقوله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣] الآية أي: أنا مبلغ ومنذر: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لي [أسوة بالرسل](٣) الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: لله الحمد الذي لا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، [والإنذار](٤) إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة**

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، وأبو داود (٢٠١٨)، والترمذي (١٥٩٠).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سوية الرسل».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والإعذار».

والخردلة والذرة»[(١)]، وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين، إما له وإما لغيره[(٢)]:

إذا ما خلوت الدهرَ يوماً فلا تقل   خَلَوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفَل ساعة   ولا أن ما يَخفىٰ عليه يغيبُ

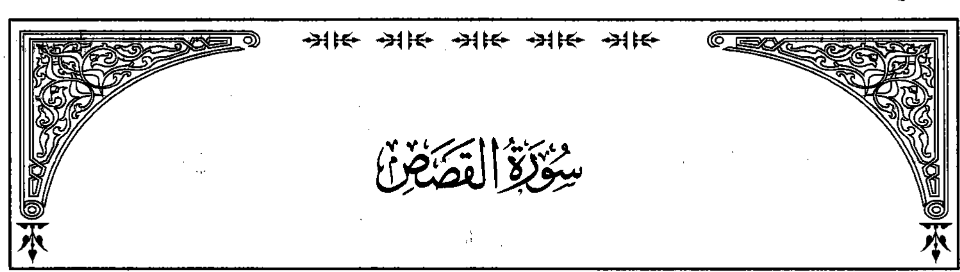
فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله رسوله ﷺ وأمر أمته تبعاً له بعبادة الله وحده لا شريك له، رب كل شيء، وأمره أن يكون من المسلمين، أي: الذين أسلموا نفوسهم وقلوبهم لله رب العالمين، ووحدوه وأطاعوه، وأمره بقراءة القرآن لوجه الله لا لغرض آخر، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: ٤٧] فمن قرأ القرآن لغرض آخر من أغراض الدنيا كتحصيل المال أو الفخر، فإنه يكون عليه وبالاً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٣٧) رقم (١٦٦٥٩)، وانظر تخريجه مفصلاً في (٣/ ٣٢٠).

(٢) وقع اضطراب شديد في نسبة هذين البيتين لا سيما الأول؛ فنسب للحسن بن عمرو الإباضي في «ديوان الخوارج» (٢٥٩ ـ ٢٦١)، و«شعر الخوارج» (ص٩١).
ونسب لصالح بن عبد القدوس في «شعره» (ص١٣٣)، وهو في «ديوان أبي نواس» (ص٦١٥)، وله في «شرح الصولي» (٩٧٨)، و«زهدياته» (٧١)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦) و«روح المعاني» (٢٤/ ١١٧) للآلوسي، و«شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول» (مقطع ٢٩).
وكان يتمثل به الشافعي في «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٠٨)، و«مناقب الرازي» (١٩٦) لابن أبي حاتم، و«تاريخ دمشق» (٥١/ ٤١٥) لابن عساكر، و«طبقات الشافعية» (١/ ١٤) للإسنوي.
وتمثل به الإمام أحمد في «الحلية» (٩/ ٢٢٠)، و«تاريخ بغداد» (٥/ ٢٠٥)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٨٣)، و«مناقب الإمام أحمد» (ص٢٦٥)، و«عين الأدب والسياسة» (ص١٨٦)، و«المنهج الأحمد» (١/ ٢٥).
وهو في «أخلاق الوزيرين» (ص٣٧٤) لنصيح بن منظور الفقعسي، وفي «ربيع الأبرار» (٢/ ٤٢٣)، و«روضة العقلاء» (ص١٣)، و«الأمالي» (٢/ ٩١)، و«الإحياء» (٤/ ٣٩٨)، و«إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٩٨)، و«المخلاة» (٧٢) دون نسبة.
ونسبت للحجاج بن يوسف التيمي في «عيون الأخبار» (٢/ ٣٤٧، ط. دار الكتب العلمية، و٢/ ٣٢٢، ط. المصرية)، و«البيان والتبيين» (٣/ ١٧٤)، و«حماسة البحتري» (٣٣٠)، و«الأغاني» (١٨/ ١١٩) ونسبت لأبي العتاهية وهي في «ديوانه» (١٤، ١٥)، وانظر: «المجالسة» لأحمد بن مروان الدينوري (٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ بتحقيقي) والتعليق على «ديوان الخوارج»، وتخريج د. معيبد على «حماسة الظرفاء».



سورة القصص

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٦٢ ـ ٧٥]

قال (ﷺ): «يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة

حيث يناديهم، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد؟! ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني: من[1] الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] الآية، وقال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧] ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ ليخلّصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ النداء الأولى عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

[و][1] كيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك، وما دينك؟ فأما المؤمن؛ فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه، هاه، لا أدري[2]، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [الإسراء: ٧٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾، وقال مجاهد: فعمِّيت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: في الدنيا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَعَسَىٰ﴾ من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته[3] لا محالة».

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ إلى قوله: ﴿يُرْجَعُونَ﴾: قال (ك): «يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع، ولا معقب قال[4] تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفي على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقد اختار ابن جرير[5]، أن ما هٰهنا بمعنى: الذي، تقديره: ويختار الذي لهم خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح[6]، والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس[7] وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق، والتقدير، والاختيار، وأنه

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) سيأتي الحديث بطوله في (٥/ ١٢٧)، (٦/ ١٠، ١٢١، ١٦٨) وهناك تخريجه.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومنِّه». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال».

(٥) انظر: «تفسيره» (١٨/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

(٦) انظر مذهبهم في: «شرح الأصول الخمسة» (٥٢٣ ـ ٧٧٩)، «المغني في أبواب التوحيد والعدل» (١٤/ ٤٧)، وانظر مناقشتهم في: «المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف» (١/ ١٩١ ـ ٢٩٢، ٢١٢، ٢١٤، ٤١٢، ٤١٣).

(٧) يشير إلى قصة، أخرجها عبد الرزاق (٣٩٧٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ١٧٦٨٨)، والبيهقي (٢/ ٤٥٣) يستفاد منها أن رأي ابن عباس في (ما) أنها نافية، وعزاها السيوطي في «الدر المنثور» (١٢/ ٥١) لابن مردويه أيضاً.

لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: يعلم [ما تكنُّ][1] الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [أي: هو][2] المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ويختار سواه. ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في جميع ما يفعله، هو المحمود عليه لعدله[3] وحكمته ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة فيجزي[4] كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: **قال (ك)**: «يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخَّر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبيّن أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم ولسئمته[5] النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً [أي][6]: دائماً مستمرّاً إلى يوم القيامة؛ لأضر ذلك بهم ولتعبت الأبدان، وكلّت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي بكم: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في النهار بالأسفار

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مكتمة».
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل!
(٣) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعدله».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيجازي».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «سئمته».
(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

والترحال والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢] والآيات في هذا كثيرة، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

وهذا أيضاً نداء [ثان][1] على سبيل التوبيخ والتقريع[2] لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب على رؤوس الأشهاد، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في دار الدنيا، ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني: رسولاً[3]، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره فلم ينطقوا»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: المعبودون من دون الله قسمان: **أبرار** وغيرهم، **فالأبرار**: الملائكة والأنبياء، كعيسى بن مريم، والصالحون كأصل أصنام قوم نوح.

وغير الأبرار قسمان: قسم دعوا الناس إلى عبادتهم أو رضوا بها، كفرعون والسدنة الأولين للأصنام، وسدنة القباب المعبودة، والقسم الثاني: الأصنام والأوثان[5]، فالأصنام تماثيل الصالحين أو الأنبياء، ولو في نظر من يعبدونهم، والأوثان: كل جماد عبد من دون الله كالشمس والقمر والنجوم والقباب والقبور والأشجار والأحجار والمياه والنار.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التقريع والتوبيخ».

(٣) أخرجه ابن جرير (١٨/٣٠٧)، وابن أبي حاتم (٩/٣٠٠٤)، والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ـ كما في «الدر المنثور» (٥/١٣٦) ـ، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٥٣١).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولم يحيروا جواباً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم»، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٠/٤٧٧ ـ ٤٨١).

(٥) انظر: ما قدمناه من التفريق بين (الصنم) و(الوثن).

وهؤلاء الشركاء المذكورون في هذه الآية من الصنف الأول من (القسم الثاني)، وهم الذين يدعون الناس إلى عبادتهم أو يرضون بها، وذلك لقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أما قولهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ فهو تبرؤ لا ينفعهم لأنهم في دار الجزاء.

وأما قولهم: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فإنه يحتمل وجهين: **أحدهما**: نتبرأ إليك اليوم من عبادتهم لنا في دار الدنيا. **والثاني**: إنهم كانوا يعبدون الشيطان الذي زين لهم عبادتنا، فإن كل عابد لغير الله هو عابد للشيطان كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١١٨] وقال تعالى في سورة يس: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

فائدة ثانية: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: هل قلتم لهم: سمعنا وأطعنا، أو قلتم: سمعنا وعصينا، فمن قال: سمعنا وأطعنا، فهم المسلمون، فإن قالوها ظاهراً وباطناً فهم المخلصون إذْ نجوا من الرياء والسمعة، وهم السعداء الذين ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، وإن قالوها بألسنتهم دون قلوبهم وأعمالهم، فهم المنافقون والمتمذهبون المقلدون، إذا وجدوا حجة من كتاب الله أو سنة رسوله تخالف مذهبهم، أو تخالف ما وجدوا عليه آباءهم، رفضوا قبولها وأصروا على اتباع آبائهم وعادات بلادهم، فهم من المنافقين، وسيأتي الكلام على ذلك في (قسم توحيد الاتباع) إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: لا يجدون جواباً، فيكبتون حين يصرح الأئمة ببراءتهم منهم ويقولون: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا﴾ أمرناهم بتقليدنا ولا باتخاذ المذاهب والتعصب لها، وإنا كنا نأمر الناس باتباع كتابك وسنة نبيك يا رب، فيسقط في أيديهم ويندمون حين لا يفيد الندم.

فائدة ثالثة: قوله: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله موجبة يعني: إن الله وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن يكونوا من المفلحين يوم القيامة، الذين فازوا بما أمَّلوا، ونجوا مما خافوا، فإن قيل: فما فائدة التعبير بعسى؟ ولماذا لم يقل: فأولئك من المفلحين؟ فالجواب: والله أعلم، أن فائدتها أن يكون العبد بين الخوف والرجاء، وأن لا يتكل على عمله، ولذلك كان كبار الصحابة يخافون على

أنفسهم النفاق، وفي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب سأل حذيفة بن اليمان بقوله: أنشدك الله هل ذكر لك النبي ﷺ اسمي في أسماء المنافقين؟ قال: لا، ولا أزكّي بعدك أحداً[1].

فائدة رابعة: أكثر البلدان جعل الله لهم نهاراً وليلاً في كل أربع وعشرين ساعة، وسكان الأراضي القطبية، كما في شمال نرويج جعل الله لهم السنة أربعة أقسام، القسم الأول زمان الربيع، فيه نهار وليل لكن كل يوم ينقص الليل ويزيد النهار، وفصل الصيف: كله نهار لا تغيب الشمس فيه مدة ثلاثة أشهر بالحساب الشمسي، وفصل الخريف: فيه ليل ونهار، ولكن كل يوم ينقص النهار ويزيد الليل بعكس الربيع مدة ثلاثة أشهر، وعند ذلك يجيء الشتاء: وهو كله ليل لا تظهر فيه الشمس مدة ثلاثة أشهر، وقد شاهدت ذلك بنفسي، وشاهده من معي [لما][2] وصلنا تلك البلاد في فصل الصيف الذي لا تغيب فيه الشمس[3]، وهذا هو الزمان المناسب لزيارة تلك البلاد لشدة البرد في الفصول الأخرى، فسبحان الخلاق العليم.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ

---

(١) عزوه للبخاري وهم! والذي فيه (٣٧٤٣) قولة أبي الدرداء لعلقمة: «أليس فيكم أو منكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ يعني: حذيفة. قال علقمة: قلت: بلى»، وخبره في معرفة أسماء المنافقين معروف، تراه عند ابن أبي شية (١٢/ ١٩، ٥٨)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٠٤، ٨٥٠٥، ٨٥٠٦)، والترمذي (٣٧٢٢)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٤٠)، والقطيعي في «زوائد الفضائل» (١٠٩٩)، والحاكم (٣/ ٣٨١)، وأبو نعيم (١/ ٦٨)، **وهو صحيح.**

وقصة عمر مع حذيفة على الرغم من شيوعها إلا أني لم أظفر بسندٍ معتبر لها، والذي وقفتُ عليه قريباً من اللفظ الذي أورده المصنف: ما أخرجه الطبراني (٢٣/رقم ٧١٩) عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أصحابي من لا يراني بعد أن أموت أبداً**». فجاء عمر ودخل عليها، فقال: أنشدك الله أنا منهم؟ قالت: لا، ولا أزكي أحداً بعدك أبداً، فبكى عمر رضي الله عنه.

وانظر: «مسند أحمد» (٦/ ٢٩٨، ٣١٢).

(٢) سقط من الأصل، والسياق يقتضيه.

(٣) للمؤلف مقالة منشورة في رحلته للنرويج، أشرنا إليها في تعليقنا على (ص١٢٤)، وهي ضمن كتابي «مقالات الهلالي»، يسر الله إخراجه بخير وعافية.

رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

[القصص: ٨٧، ٨٨]

قال (ك): «﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك، وصدهم الناس عن طريقك ولا تبال[1] فإن الله مُعلٍ كلمتك، ومؤيدّ دينَك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧]. فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هٰهنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا إياه، وقد ثبت في «الصحيحين»[2] من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا اللهُ باطلُ»[3]

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في «صحيحه» كالمقرر له[4].

قال ابن جرير[5]: «ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر[6]:

أستغفر اللهَ ذنباً لستُ مُحصِيهُ   رَب العباد إليه الوَجْهُ والعمَلُ»

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال أنها

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا تلوي على ذلك ولا تباله».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).
(٤) سيأتي تخريجه.
(٥) في «التفسير» (١٨/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).
(٦) البيت في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٤) وهو في «خزانة الأدب» (٣/ ١١١)، وقال: «وهذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها»، قلت: وهو في «الكتاب» (١/ ٣٧) لسيبويه.

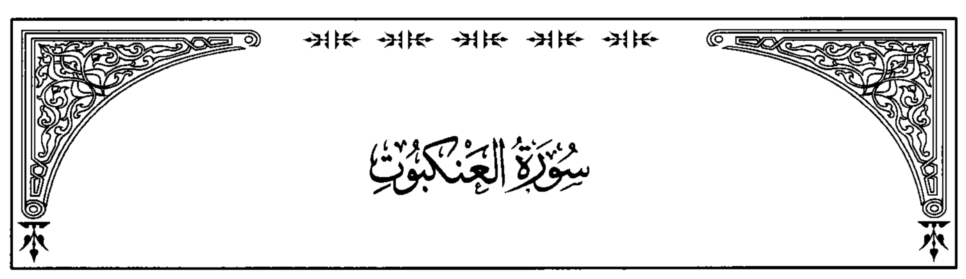
باطلة إلا ما أريد به[1] وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة الإسلامية، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية[2] وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس[3]، فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الملك والتصرف ولا معقب لحكمه، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: معنى التفسير الأول أن كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الحي الباقي، سبحانه لا إلٰه إلا هو، ومعنى التفسير الثاني: إن كل ما أنفقه الإنسان أو عمله، ولم يقصد به التقرب إلى الله تعالى، فهو ضائع لا ينفعه في الدار الآخرة، فيكون الوجه بمعنى التوجه، كما في قول الشاعر[5]: «إليه الوجه والعمل»، أي: نتوجَّه ونعمل له.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بها».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهالكة».
(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤٩١ ـ ٤٩٢) بتصرف.
(٥) في البيت المتقدم قريباً.



سُورَةُ العَنكَبُوتِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت: ٨]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما إليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤] ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال تعالى: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على[1] دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إليَّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين، لا في زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي حباً دينياً»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: بر الوالدين أعظم الواجبات بعد توحيد الله ﷻ، وعقوقهما شر المعاصي بعد الإشراك بالله، ومع أن الله أوصى بالإحسان إليهما،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤٩٥).

فإذا أمرا بمعصية الله أو بالشرك بالله وجبت معصيتهما في ذلك، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[١]، وفي الحديث أن أم سعد بن أبي وقاص قالت له: لا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد، فأخبر النبي ﷺ فقال له: «**دعها**» فبقيت ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب، فلما اشتد جوعُها وعطشُها أكلت وشربت[٢].

وفي الحديث أيضاً أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق كان في غزوة بدر كافراً يقاتل مع المشركين ثم أسلم بعد ذلك، فقال لأبيه: لقد هدفتَ لي يوم بدر فلم أقتلك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: «أما إنك لو هدفت لي لقتلتك»[٣] ومن هذا نعلم أن استعمال كتّاب هذا العصر، (هدف واستهدف)، بمعنى: قصد، جهل عظيم باللغة العربية[٤] فإن معناهما نصب نفسه هدفاً لمن يرميه، ومن ذلك قولهم:

---

(١) ورد بهذا اللفظ من حديث عمران بن حصين، أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٧٣)، وعلقه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٤٥) من طريق محمد بن جعفر الوركاني حدثنا يحيى الأبح عن محمد بن سيرين عنه.
وإسناده جيد؛ لكن في سماع محمد بن سيرين من عمران نظر، وفي بعض طرق الحديث سماعه منه، وهذا بحاجة إلى بحث.
ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٣٨١) من طريق يحيى بن سليم، عن هشام بن حسان، عن الحسن عن عمران، ويحيى بن سليم ـ هو الطائفي ـ فيه كلام، والحسن مدلس، وقد عنعن، وفي سماعه من عمران نظر أيضاً.
ورواه ابن أبي شيبة (١٢/ ٥٤٦) من طريق مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.
واعلم أن حديث عمران بن حصين هذا ثابت من طرق عنه بلفظ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»، رواه أحمد (٤/ ٤٢٦ و٤٣٢ و٤٣٦ و٥/ ٦٦ و٦٧)، والطيالسي (٨٥٦)، وعبد الرزاق (٢٠٧٠٠)، والبزار (١٦١٣ و١٦١٤ و١٦١٥ و١٦١٦)، والطبراني في «الكبير» (٣١٥٩ و٣١٦٠ و١٨/ ٣٢٤ و٣٦٧ و٣٨١ و٣٨٥ و٤٠٧ و٤٣٢ ـ ٤٣٨)، وصححه ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٨٩ ـ بتحقيقي) باللفظ المزبور، الله الموفّق، لا رب سواه.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٤٨)، والترمذي (٣١٨٩)، وأحمد (١/ ١٨٥) في قصة مطولة بنحوه، وهذا لفظ الطبراني في «العشرة» أفاده ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٥٤).

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٠٧٦ ـ بتحقيقي) ـ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ١٢٧ ـ ١٢٨) ـ والخبر في «غريب الحديث» (١/ ٥٧٨) لابن قتيبة، و«النهاية» (٥/ ٢٥١)، و«الفائق» (٤/ ٩٧).

(٤) انظر: «تقويم اللسانين» (ص٩١ ـ ٩٢) رقم (٣٩) للمصنف. فقد أسهب في بيان ذلك، =

«مَنْ أَلَّف فقد استُهدِف»، أي: نصب نفسه هدفاً للطاعنين في كتابه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٧]

قال (ك): «يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم لا مُسْدٍ لها غيره، فقال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: أخلصوا له في[1] العبادة والخوف.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك[2] حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة، ثم أخبر[3] تعالى أن الأصنام التي يعبدونها[4] والأوثان لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم[5] لها أسماء فسميتموها[6] آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم، وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾، وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] ولهذا قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ أي: فاطلبوا[7] ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لا عند[8]

= وقال: «ومن ذلك تعلم أن استعمال العرب للإهداف والاستهداف في وادٍ واستعمال المعاصرين لهما في وادٍ آخر».

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أخبرهم».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تعبدونها» بالخطاب!
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنتم».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سميتموها».
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «واطلبوا».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعبدوا».

غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: كلوا من رزقه، واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة فيجازي كلَّ عامل بعمله»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: ملة إبراهيم هي الحنيفية التي أمر الله نبيه محمداً ﷺ باتباعها وأمته تبع له، فأهل هذه الملة لا يتوجهون بقلوبهم ولا بألسنتهم ولا بذبائحهم ونذورهم إلا إلى الله وحده، جازمين بأن غيره لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، فكيف يملك ذلك لغيره؟

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]

قال (ك): «﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم بعضاً(٢) في الحياة الدنيا، وهذا على قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع(٣)، فمعناه: إنما اتخاذكم هذا لتحصل(٤) المودة

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥٠٠) بتصرف.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لبعض».

(٣) قرأها بالرفع وخفض نون (بينكم) على الإضافة: ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس وابن محيصن واليزيدي ويعقوب ومجاهد والحسن وأبو زيد عن المفضل وعلي بن نصر.
وقرأ الأعشى عن أبي بكر عن عاصم والشموني والبرجمي (مودةُ بينَكم) بالرفع ونصب الظرف.
ومنهم من قرأها بالرفع والتنوين، ونصب الظرف بعده، وانظر: «البحر المحيط» (٧/ ١٤٨)، «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٦٧)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/ ٤٩٠)، «تفسير ابن عطية» (١١/ ٣٧٨)، «الكشاف» (٢/ ٤٩٤)، «روح المعاني» (٢٠/ ١٥١).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يحصّل لكم».

في الدنيا فقط ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ينعكس هذا الحال فتنقلب[1] هذه الصداقة والمودة بغضاً[2] وشنآناً، ثم ﴿يَكْفُرُ[3] بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاحدون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية، أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك، قال ابن أبي حاتم بسنده عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب، قالت: قال لي النبي ﷺ: «**أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد، فمن يدري أين[4] الطرفين؟**» قالت: الله ورسوله أعلم، [قال]: «**ثم ينادي مناد من تحت العرش: يا أهل التوحيد، إن الله قد عفا عنكم، قال: فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلامات الدنيا** ـ يعني المظالم ـ ثم ينادي: «**يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب**»»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: وهذه الآية تنطبق على أصحاب المواسم الذين يجتمعون كل سنة عند الأوثان، فيذبحون لها ويختلطون رجالاً ونساء ويستوجبون

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فتبقى». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بغضة».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيكفر».

(٤) هكذا في الأصل، والظاهر أنه: «من أي الطرفين»؟ (منه).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٤٩) رقم (١٧٢٤٢)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسي، ثنا أبو عاصم الثقفي الربيع بن إسماعيل عن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي عن أبيه عن جده عن أم هانئ به، **وإسناده ضعيف جداً**. قال الطبراني: «لا يروى عن أم هانئ إلّا بهذا الإسناد، تفرد به أبو عاصم»، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٥٥): «وفيه أبو عاصم ـ الربيع بن إسماعيل ـ منكر الحديث، قاله أبو حاتم».

وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤).

بذلك غضب الله تعالى، روى مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١). اهـ.

فإذا كان غضب الله يشتد على من بنى المساجد على قبور الأنبياء وجعل صلاته ودعاءه عند قبورهم، وإن كان يدعو الله وحده ولا يشرك به شيئاً، فما بالك بأصحاب المواسم الذين يشدون الرحال من بلدان بعيدة بنسائهم وأولادهم إلى الوثن، ويذبحون له ويطوفون بضريحه، ويتمسَّحون به ويستغيثون به، لا شك أن غضب الله يكون عليهم أشد، وستصير تلك المودة التي جمعتهم على الأوثان عداوة يوم القيامة حين ينكشف الغطاء، ويتبين لهم أنهم كانوا خاسرين ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤١ ـ ٤٣]

قال (ك): «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به(٢): إنه تعالى يعلم ما هم عليه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد و﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم والمتضلعون[1] منه، وروى ابن أبي حاتم بسنده[2] عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: قال الله تعالى في سورة السجدة: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٦ ـ ٧]، فكل ما خلقه الله فهو حسن كامل واف بالغرض الذي خلق لأجله، فبيوت النمل في غاية الإحكام وحسن الهندسة، تتحير فيها الألباب، وبيوت النحل كذلك، وأعشاش الطيور، فكذلك بيت العنكبوت هو في غاية الكمال، واف بالغرض الذي خلق لأجله، وليس فيه نقص ولا عيب، ولكن لو أن الإنسان اتخذ بيتاً من نسج العنكبوت لا يصلح أن يكون له مسكناً لا يقيه حرّاً ولا برداً ولا مطراً ولا يحفظه من السراق واللصوص، فهو كالعدم، فكذلك الذين اتخذوا أولياء يعبدونهم مع الله لا ينفعونهم بشيء، ولا يدفعون عنهم شيئاً من الضر، فهذا وجه الشبه بين المشركين وبين من اتخذه من نسيج العنكبوت.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

[العنكبوت: ٥٦]

قال (ك): «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين بأن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتضلعون» من غير واو في أوله.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٤) رقم (١٧٣٢٧).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥١٢ ـ ٥١٣) بتصرف.

يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾، قال الإمام أحمد بسنده عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «**البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم**»[١].

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين [هناك][٢] أصحمة النجاشي ملك الحبشة ـ رحمه الله تعالى ـ فآواهم[٣] وأيدهم بنصره وجعلهم[٤] ببلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه[٥] الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة»[٦].

فصل

قال محمد تقي الدين: حاصل هذا الكلام أن المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد لا يستطيع أن يعلن فيه توحيد الله والبراءة من الشرك وأهله، وقد ضمن الله سبحانه لكل موحد صادق أن يهيئ له مكاناً في هذه الأرض الواسعة يستطيع أن يحقق فيه توحيد الله تعالى، فعليه أن يسعى بجد[٧]، والله لا يخلف الميعاد.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٥٠)، وفيه مجاهيل، ولذا **ضعّفه** السخاوي في «المقاصد» (ص١٤٧) وقبله العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٢٢٤). وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٧٢): «فيه جماعة لم أعرفهم» نعم، **لأوله شاهد** عند أبي داود (٣٠٧٦) من حديث عروة، يكون ـ إن شاء الله تعالى ـ **حسناً به**.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

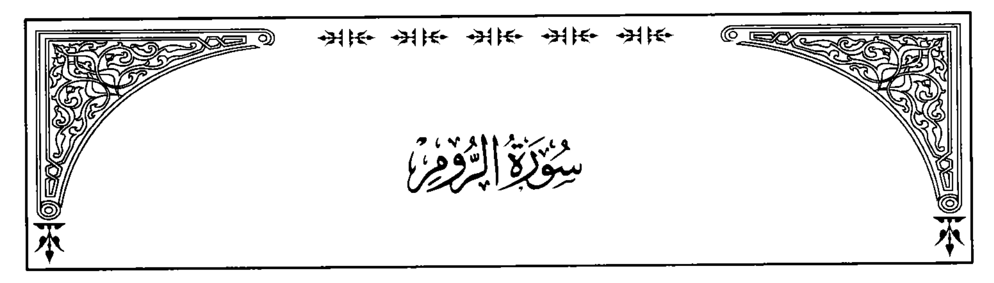
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «آواهم».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سُيُوماً».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والصحابة».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥٢٥).

(٧) قال النووي في «روضة الطالبين» (١٠/ ٢٨٢): «المسلم إذا كان ضعيفاً في دار الكفر، لا يقدر على إظهار الدين، حرِّم عليه الإقامة هناك، وتجب عليه الهجرة إلى دار الإسلام». وقيد ذلك بالقدرة على الهجرة، فقال: «فإن لم يقدر على الهجرة فهو معذور إلى أن يقدر».
وقد تكلمت على هذه المسألة بتفصيل وتقعيد وتدليل في كتابي «السلفيون وقضية فلسطين» (ص١٤ ـ ٣٧)، وفي تعليقي على «الإنجاد في أبواب الجهاد» لابن المناصف (١/ ٦٧ ـ ٧٥)، وذكرت أسماء الرسائل التراثية في موضوع الهجرة، وجلَّيتُ حقيقة فتوى شيخنا الألباني في هجرة أهل فلسطين ـ أعادها الله إلى حظيرة الإسلام والمسلمين ـ، وانظر له =



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣﴾ [الروم: ١٢ ـ ١٣]

قال (ك): «﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون[١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: المراد بالمجرمين هنا المشركون، أخبر الله تعالى أنهم ييأسون من رحمة الله يوم القيامة، ومن عبدوهم من الملائكة والأنبياء والصالحين وتماثيلهم وقبابهم وآثارهم، لا ينفعونهم بشيء يوم القيامة، بل يكفرون بعبادتهم، ويكونون لهم أعداء، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٦].

= في الموضوع: «السلسلة الصحيحة» التعليق على حديث رقم (٢٨٥٧)، وينظر كتاب أخينا الشيخ حسين العوايشة ـ حفظه الله ـ: «الفصل المبين في مسألة الهجرة ومفارقة المشركين»، وكتاب الشيخ العلامة المحدث حماد الأنصاري رحمه الله «إعلام الزُّمرة بأحكام الهجرة»، وهما مطبوعان.

(١) لم يعزه في «الدر المنثور» (١١/ ٥٨٧) إلا لابن أبي حاتم، وهو في «تفسيره» (٩/ ١٧٤٧١) ضمن الفوت غير المسند، المتمم من «الدر».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٧).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٢٨ ـ ٣٥]

قال (ك): «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا[١] يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك[٢]، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: [يرضى أحدكم][٣] أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال، قال أبو مِجْلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذلك[٤]، كذلك الله لا شريك له، والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذاك[٥]، فكيف تجعلون

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في تلبيتهم».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يرتضي أحد منكم».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذاك». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

[﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾][1] من خلقه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]»[2]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: ومعنى ذلك مفسر بقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل: ٥٧] وقال تعالى في سورة النجم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢] وهذا شأن المشركين يصفون الله تعالى بما يكرهونه لأنفسهم، ولو وصفوا الله بصفاتهم لكانوا كافرين جاهلين ظالمين، فكيف إذا وصفوه بما لا يرضونه لأنفسهم؟ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، ما أوضح بيان الله تعالى وما أشد عمى بصائر المشركين.

رجوع إلى بقية تفسير (ك): «ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك[3] بطريق الأولى والأحرى، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: المشركون، ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي: في عبادتهم الأنداد ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم عن قدرة الله[4] منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن».

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إلى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ﴾. قال (ك): «يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ـ ملة إبراهيم التي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال ـ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه: لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لله الأنداد».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٤ ـ ٢٥)، ولابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ ـ بتحقيقي)، و«المدارج» (١/ ٢٤٠)، و«الجواب الكافي» (ص٢٠٧) كلام قيم على المثل المذكور في الآيات، فلينظر.
(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وهو[١] معنى حسن صحيح.

وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: إنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلَّة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لدين الله، وقال البخاري: «قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدين الله، خُلُقُ الأولين: [دين الأولين][٢] والفطرة: الإسلام»[٣]، قال البخاري[٤] بسنده أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء؟»** ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين[٥] المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا[٦] لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد وابن جريج[٧]: أي: راجعين إليه ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه، قال ابن جرير بسنده عن يزيد بن أبي مريم قال: «مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر: ما قوام هذه الأُمة[٨]؟ فقال معاذ: ثلاث وهن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: و«صحيح البخاري»، وفي الأصل: «والآخرين على الدين».

(٣) كذا في «صحيح البخاري» كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (قبل رقم ٤٧٧٥)، وهكذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والإسلام».

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القويم».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولهذا».

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وابن جرير»!!

(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الآية»!!

المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والصلاة: وهي الملة، والطاعة، وهي: العصمة، فقال عمر: صدقت»[١].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين[٢] فرقوا دينهم أي: بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرأ بعضهم[٣]: **(فارقوا دينهم)** أي: تركوه وراء ظهورهم[٤]، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما روى[٥] الحاكم في «مستدركه» أنه

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٨/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤)، ولم يعزه في «الدر المنثور» (١١/ ٩٠٠) إلا له! **وإسناده ضعيف**، وفيه انقطاع.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قد».

(٣) هذه قراءة حمزة والكسائي وتروى عن علي بن أبي طالب، وابن عامر في رواية، وكان يقرأ بها الأعمش. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٥)، «الحجة» (٣/ ٤٣٨) للفارسي، «الإتحاف» (٢/ ٣٩)، «التيسير» (١٠٨)، «النشر» (٢/ ٢٦٦)، «تفسير ابن عطية» (٢١/ ٤١)، «الاعتصام» (١/ ٨٥)، وفي تعليقي عليه تخريج قراءة **(فارقوا)** عن علي، وبيان ضعف إسنادها إليه.

(٤) قال أبو علي الفارسي في «الحجة» (٣/ ٤٣٨): «ومن قرأ **(فارقوا)**، فالمعنى: باينوه، وخرجوا عنه، وإلى معنى ﴿فَرَّقُوا۟﴾ يؤول، ألا ترى أنهم لما آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه فارقوه كلَّه، فخرجوا عنه، ولم يتّبعوه؟».

وقال صديقنا الشيخ محمد بازمول ـ حفظه الله ـ في كتاب «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام» (٢/ ٥٥٣):

«بيّنت الآية بالقراءتين أن حال من فارق دينه وحال من فرّق في دينه، فآمن ببعض وكفر ببعض أنه حال واحد، ومآل واحد، وفي الآية بالقراءتين إشعار بأن مآل من فرق في دينه إلى المفارقة لدينه، نسأل الله العفو والعافية». قال: «وفيها بالقراءتين أيضاً تحذير من الحزبية التي تفرِّق المسلمين، وأنها ليست من الإسلام في شيء»، وانظر في ذم الحزبية ما علقناه على (٤/ ٨٨ ـ ٩٥)، فإنه مهم، والله الموفق.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رواه».

سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «**من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾. قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفتُ منه، فكيف والمتوعد ههنا الذي يقول للشيء: كن، فيكون.

ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة غيره[(٢)] بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن شيء من ذلك»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: هذا المثل لا يبقي شكّاً لكل امرئ تدبره ولم يختم الله على قلبه، أن عبادة غير الله باطلة، وذلك لأن كل شيء خلقه الله ملك لله تعالى، سواء أكان عاقلاً كالملائكة والأنبياء والصالحين، أم غير عاقل كالأصنام والأوثان، ولا يوجد شخص عاقل يرضي أن يشاركه عبده في ماله، لأنه من جملة ماله، فكيف يتخذون من عبيد الله شركاء يعبدونهم معه بالذبح والنذر، والاستغاثة وغيرها من أنواع العبادة.

تجادلت امرأتان منذ مدة قريبة وهما مغربيتان، إحداهما موحدة والأخرى مشركة، وكانتا جالستين في المسجد النبوي، فقالت الموحِّدة للمشركة: لا ينبغي لك أن تستغيثي بنبي ولا بصالح، بل يجب عليك أن تستغيثي بالله وحده، فلم

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٢٨، ١٢٩) وقد سبق تخريجه، مفصَّلاً، والحمد لله وحده.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأوثان».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٥ ـ ٣١) بتصرف.

تقبل المشركة، ورأت أن عدم الاستغاثة بالأنبياء والصالحين يحطُّ من قدرهم، لأن مقامهم عند الله عال. فقالت الموحّدة للمشركة: أترضين أن يتزوج عليك زوجك امرأة أخرى؟ فقالت: لا ثم لا. فقالت لها: أليس ذلك حلالاً في دين الإسلام؟! فقالت: بلى، ولكنني لا أرضى بذلك، لأن ذلك يدل على أنني لا أملأ عينه ولا أكفي رغبته، فقالت الموحدة: فكيف ترضين لله رب العالمين ما لا ترضينه لنفسك؟! فإن من دعا غير الله لم يكفه الله، فتأملت المرأة المشركة كلام الموحدة ففقهت واعترفت بخطئها، ولله المثل الأعلى.

ومن العجائب التي شاهدناها في بلدان مختلفة أن العامي الأمي من الرجال والنساء إذا وحَّد الله ينفتح له باب العلم والفهم، حتى إنه يناظر علماء المشركين فيفحمهم ويهزمهم، كان معنا في بغداد رجل من الفلاحين لا يعرف إلا قراءة المصحف بلحن وصعوبة، فلما وحَّد الله وتمسك بسنَّة الرسول ﷺ صار علماء المذهب الحنفي يخافونه، وإذا رأوه في طريق سلكوا غيره، صلى مرة في المسجد المنسوب إلى أبي حنيفة رحمه الله، ويسمونه جامع الإمام الأعظم، وهذا لقب منحه جهال الحكام من الأتراك لأبي حنيفة رحمه الله، فصار المرء لا يسمع إلا مذهب الإمام الأعظم، وقول الإمام الأعظم، فقلت لهم: إن الإمام الأعظم على الإطلاق هو رسول الله ﷺ، ويطلق هذا اللفظ على خليفة المسلمين، فقالوا: إنك تبغض أبا حنيفة، فقلت: لا أبغضه، لأنه من أئمة السلف المثبتين لصفات الله تعالى كلها، ومنها علوه تعالى، واستواؤه على عرشه، وهو بريء ممن يفتي بالتقليد أو يقضي به أو يبيح التفرق في الدين، أو يعتقد اعتقاد الجهمية بأن الله ليس فوق العرش، بل هو في كل مكان، ولكنكم تعبدون خيالاً، وتسمونه الإمام الأعظم.

ومن الحكايات الطريفة التي وقعت لذلك الشيخ الفلاح وهو أبو عبد الله أنه ذهب قصداً ليغيظ غلاة المقلدين فصلى معهم في مسجد أبي حنيفة فلما قال الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال أبو عبد الله: آمين، ورفع صوته ومده بها، وكان الإمام رقيق الدين خرج من المذهب الشافعي ودخل في المذهب الحنفي ليكون إماماً لذلك المسجد، فلما فرغ من الصلاة غضب على أبي عبد الله وقال رافعاً صوته: من ذا الذي يصرخ بآمين (ليش الله أصمخ)؟! يعني: هل الله أصم؟ فقال له أبو عبد الله على البديهة: وأنت لماذا تصرخ بقولك: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ليش الله أصمخ؟! فقال له: أنت (وكح) أي: وقح، فقال أبو

عبد الله: (أنا ما وكح) ولكن متمسك بسنة النبي، فقال الحاضرون: كيف تجادل العالم وأنت جاهل؟! فقال أبو عبد الله: بل هو الجاهل أو المخالف للسنة على عمد، لأن الجهر بالتأمين سنة[1]، ولا يستطيع هو أن يزعم أنه ليس بسنة.اهـ.

فائدة ثانية: قول البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «خلق الأولين»، إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن قول قوم هود لنبيهم حين دعاهم إلى عبادة الله وحده واتباع رسوله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، أجابوه بقولهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨]، قرئ[2] (**خَلْق الأولين**) بفتح فسكون، بمعنى: كذب الأولين لأن الخلق والاختلاق في اللغة هو الكذب، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أي: يكذبون كذباً، وقرئ[3] بضم الخاء واللام، بمعنى: العادة والطبيعة، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى: هذا الذي تدعونا إليه يا هود إنما هو كذب الأمم السابقة وأساطيرهم وليس من الله كما تدعي، وعلى القراءة الثانية يكون المعنى على أحد وجهين:

الأول: هذا الذي تقوله يا هود ليس من الله، وإنما هو من عادة الأولين.

الثاني: معناه: نحن على عادة الأولين ودينهم، لا ننتقل عن ذلك إلى ما تدعونا إليه، وهذا أضعف الأقوال وأقواها أولها.اهـ.

فائدة ثالثة: قول (ك): «خبر بمعنى الإنشاء» أي: لا تبدلوا خلق الله، فعلى هذا يكون المعنى لا تبدلوا أيها الناس دين الله الذي بعث به رسله، وهو: توحيده وإقامة العدل والإحسان بين الناس، ومحاسن الأخلاق، وتحكيم شرع الله، فإن الله خلق عباده على الفطرة، فمتى عرض عليهم دين الحق مالت إليه قلوبهم وانشرحت له صدورهم ما لم تغير فطرتهم بتعليم كُفريّ، كالمجوسية،

---

(١) انظر في ذلك كتابي: «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص٢٤٥ ـ ٢٤٧).

(٢) هذه قراءة ابن مسعود وعلقمة والحسن وأبي عمرو وابن كثير والكسائي ويعقوب وسهل. انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٣٣ ـ ٣٤)، «الإتحاف» (٣٣٣)، «الكشف» (٢/ ١٥١)، «السبعة» (٤٧٢)، «النشر» (٢/ ٣٣٥)، «الحجة» لابن خالويه (٢٦٨)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (٢/ ١٣٦)، «زاد المسير» (٦/ ١٣٧)، «تفسير ابن عطية» (١١/ ١٣٧)، «الدر المصون» (٥/ ٢٨٢).

(٣) هذه قراءة نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبي عمرو وخلف والأعمش وشيبة، ورجحها الطبري. انظر المراجع السابقة.

واليهودية، والنصرانية، وعبادة الأوثان، والابتداع في دين الله كطرق المتصوفة التي فرقت الناس وأفسدت عليهم دينهم ودنياهم.

وحتى بعد ما تغير الفطرة ويقع صاحبها في الضلال إذا جاءه داع يدعوه إلى دين الحق، ولم يكن عنده مانع من اتباع الهوى[1]، يتلقى الدعوة بفرح، ويتوب إلى الله ويتمسك بدين الحق، ويتعجب من نفسه كيف كان يقرأ القرآن ولا يتدبره ولا يفهم معناه مع وضوحه، لأن ذلك التعليم الخبيث الذي سبق له أعماه عن فهم القرآن، ولا سيما وقد حرفه المضلون وسدوا باب فهمه، وفتحوا أبواباً أخرى من الجهالات والضلالات، فالحمد لله الذي هدانا لدين الحق وأخرجنا من الظلمات إلى النور، فلّله الحمد في الأولى والآخرة.

فائدة رابعة: قول الإمام (ﻙ): «وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة. . . إلى آخره».

قال محمد تقي الدين: ومن الضلال إحداث المذاهب والتعصب لها، كما بيَّنه (ﻙ) رَحِمَهُ اللَّهُ فيجب على المسلمين في كل زمان ومكان أن يكونوا في دين الله كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، لم تكن عندهم مذاهب ولا طرق ولا فرق ولا نحل، فلو كان التفرق حقّاً لكان أصحاب رسول الله ﷺ على مذاهب بكرية، وعمرية، وعثمانيّة، وعلوية، حاشاهم من ذلك، وهم خير القرون، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتبعهم بإحسان.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤٠ ـ ٤٢]

---

(١) ذكر ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص١٨) الأسباب المانعة من قبول الحق، فهي جديرة بأن تحفظ وتنشر، ولأخينا فضيلة الشيخ حمد العثمان كتاب مطبوع بعنوان «الصوارف عن الحق»، وهو مهم.

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عُرياناً[١]، لا علم له، ولا سمع ولا بصر ولا قوة[٢]، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب، كما قال الإمام أحمد بسنده عن حَبَّة وسَوَاء ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً، فأعنَّاه، فقال: «**لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت[٣] رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ﷻ**»[٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: [تقدس وتعالى][٥] وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك، أو نظير أو مساو أو ولد أو والد؛ بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحداً»[٦].

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

قال القاسمي: «﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: كثرت المضار والمعاصي على وجه الأرض وعلى ظهر السفن في لجج البحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: من الآثام والموبقات، ففشا الفساد وانتشرت عدواه، وتوارثه جيل

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عريان»!
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قوي»!
(٣) في الأصل: «تهزهزت»! والصواب المثبت.
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٥٣)، وفي «التاريخ الكبير» (٣/ ٩٢)، وابن ماجه (٤١٦٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤٦٦)، وابن سعد (٦/ ٣٣)، وابن حبان (١٠٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٣٤٧٩، ٣٤٨٠، ٦٦١٠، ٦٦١١)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٤٩)، وفي «الآداب» (٩٥١)، **وإسناده ضعيف**، فيه سلام بن شرحبيل، لم يوثقه غير ابن حبان. وانظر: «الضعيفة» (٤٧٩٨).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعالى وتقدس».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٣).

عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ اللام للعاقبة، أي ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم[1]. وقيل: اللام للعلة على معنى أن ظهور الجدْب والقحط والغرق بسبب شؤم معاصيهم، ليذيقهم وبال بعض أعمال في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: أذاقهم[2] سبحانه سوء العاقبة، لشركهم المستتبع لكل إثم وعصيان»[3].

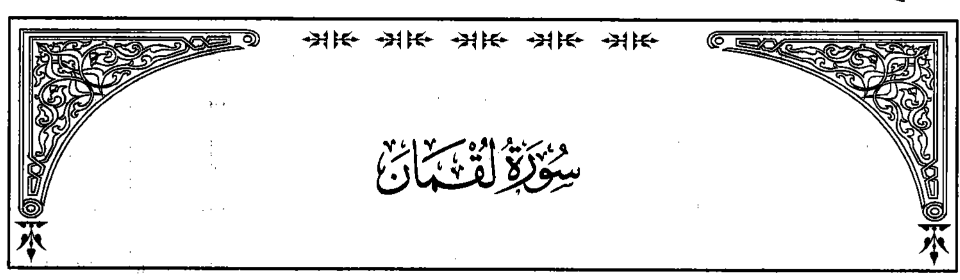
فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآيات بين توحيد الربوبية في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ «وما بعده» وتوحيد الإلهية في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فائدة ثانية: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ مقروناً بالشرك والمعاصي وخصوصاً في البلدان التي أسعد الله أهلها بالإسلام بعد أن كانوا لا شيء، فأعطاهم العزة والسيادة والعلم، واستخلفهم في أرضه، وكانت لهم البلاد، ثم رجعوا على أعقابهم وتنكروا للإسلام ونبذوا شريعته، فجعلهم الله أسفل سافلين، وسلبهم ما منحهم، فصاروا أذل الناس وأحقرهم، وأفقرهم وأجهلهم وصاروا أذناباً بعد أن كانوا رؤوساً، اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «إرادة الرجوع».
(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «فأذاقهم».
(٣) انظر: «تفسير القاسمي» (١٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥).



سورة لقمان

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٥]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكر[١] الله تعالى [لقمان][٢] بأحسن الذكر، وأنه[٣] آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أظلم الظلم، وتقدم في (سورة الأنعام) الكلام على قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ في (الباب التاسع) عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وفيها حديث مرفوع إلى النبي ﷺ[٤].

ثم قرن وصيته إياه بعبادة الله وحده البر[٥] بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذكره».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنه».
(٤) انظره في (١/٣٤٧) وهناك تخريجه.
(٥) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بالبر».

[ذات وهن أو تهن ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: تضعف][١] ضعفاً [فوق][٢] ضعف، [فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها][٣].

وقوله: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين[٤]، ومن هٰهنا استنبط ابن عباس وغيره[٥]، من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليُذكّر بإحسانها

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال عطاء الخراساني».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على». (٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]».

(٥) يشير المصنِّفُ إلى ما أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٢٥ ـ رواية يحيى)، ومن طريقه إسماعيل بن إسحاق القاضي في «أحكام القرآن» كما في «المعتبر» رقم (٢٠٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣) أنه بلغه أن عثمان بن عفان أتي بامرأةٍ قد ولدت في ستَّة أشهر، فأمر بها أن ترجم، فقال له علي بن أبي طالب: ليس ذلك عليها، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ وقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ﴾؛ قال: فالرضاعة أربعة وعشرون شهراً، والحمل ستة أشهر.

ووصله ابن أبي ذئب في «موطئه» ـ كما في «الاستذكار» (٢٤/ ٧٣)، ومن طريقه ابن جرير في «التفسير» (٥/ ١٠٢) ـ، وابن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ـ ومن طريقه ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ٢١٤) ـ من طريق يزيد بن عبد الله بن قسيط عن بعجة بن عبد الله الجهني به مطوّلاً، قال ابن حجر: «وهذا موقوف صحيح» وقال: وأظن مالكاً سمعه من ابن قسيط؛ فإنه من شيوخه».

ثم قال: «وقد أخرج إسماعيل القاضي في كتاب «أحكام القرآن» بسندٍ له فيه رجل مبهم عن ابن عباس أنه جرى له مع عثمان في نحو هذه القصَّة الذي جرى لعلي، فاحتمل أنه كان محفوظاً أن يكون توافق معه، وأما احتمال التعدد؛ فبعيد جدّاً».

قلت: وأخرج ما جرى بين ابن عباس مع عثمان ـ كما قال المصنف ـ: ابن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٧، ٩٨٧)، وابن جرير في «التفسير» (٥/ ٣٤، ط. شاكر)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٣/ ٢/ ٦٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٣٥١، ٣٥٢)، وهذه رواية ثقات أهل مكة، والرواية الأولى رواية أهل المدينة، وأهل البصرة يرونها لعمر مع علي؛ كما عند ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٤٢).

وانظر: «الاستذكار» (٢٤/ ٧٤ ـ ٧٥)، و«المعتبر» (ص١٩٤) للزركشي، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٤، ١٥٧).

المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

قال ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن وهب، قال: قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا آلوكم خيراً، وإن المصير إلى الله وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت**»[1].

وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾؛ يعني: المؤمنين.

﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال الطبراني في «كتاب العشرة»[2] بسنده عن داود بن أبي هند: أن سعد بن مالك قال: أنزلت فيَّ هذه الآية، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، قال: «كنت رجلاً باراً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحتْ قد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحتْ قد جهدت، فمكثتْ يوماً وليلة أخرى لا تأكل فأصبحتْ قد اشتد جهدُها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أماه والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» ـ كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٥٤) ـ، والحاكم (١/ ٨٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ق٦٢١) من ثلاثة طرق عنه، **هو بها حسن** ـ إن شاء الله تعالى ـ. وبعث النبي ﷺ معاذاً لليمن ثابت في «الصحيحين»، وانظر: «إتحاف المهرة» (١٣/ ٢٧٤).

(٢) عزاه له: ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٥٤) وأورد إسناده بتمامه، ووقع تصريحه بأن نزول الآية كانت فيه عند مسلم في «صحيحه». انظر الهامش الآتي.
وكتاب «العشرة» للطبراني في ثلاثين جزءاً حديثياً، لم نظفر له بأثر، ولم نفز عنه بخبر، وانظر كتاب: «الحافظ الطبراني وجهوده في خدمة السنة النبوية» (ص١٣٦) للشيخ محمد أحمد صالح.

تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لقد عظم الله شأن بر الوالدين إذ قرن الإحسان إليهما بتوحيده الذي هو أشرف العبادات وأعظمها، فيفهم من ذلك أن بر الوالدين أعظم العبادات بعد توحيد الله تعالى، ومع ذلك لم يبح لعباده أن يرضوا والديهم إذا أرادوا منهم أن يشركوا بالله تعالى، وتأمل قصة سعد بن مالك مع أمّه تزدد علماً وتحقيقاً للتوحيد، جعلنا الله وإياك من أهله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٢ ـ ٢٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتّبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله باتباع ما به أمر وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾[(٢)] لا تحزن [عليهم يا محمد][(٣)] في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، إلى الله مرجعهم فينبئهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾، أي: فيجزيهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية.

ثم قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ

(١) أخرجه مسلم (١٧٤٨)، والترمذي (٣١٨٩)، وأحمد (١/ ١٨١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠/ ٣٣١) وغيرهم.
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يا محمد عليهم».

نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩ ـ ٧٠]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: إسلام الوجه هنا، معناه: توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، واتباع الوحي الذي أنزله على نبيه، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣١ ـ ١٣٢] انظر ما تقدم في (الباب الحادي عشر) من (سورة البقرة).

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ دليل على شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ والعمل بمقتضاها، وهو محبة النبي ﷺ واتباعه في كل ما جاء به من أمور الدين، كما أن إسلام الوجه لله تعالى يتضمن معنى لا إله إلا الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] فـ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ تضمنت معنى، (لا إله إلا الله)، و﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، تضمنت معنى (محمد رسول الله) ومثل ذلك حديث سفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك؟ قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»(٢)، رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾؛ يعني: أن من أشرك بالله ولم يسلم وجهه إليه، أو أعرض عن اتباع رسول الله فهو كافر فلا يحزنك كفره، فسوف يمتع قليلاً ثم يضطر إلى عذاب غليظ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨) وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «المجالسة» رقم (١٧٢١).

لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٢٩ ـ ٣٢]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بمعنى: يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ثم يشرع في النقص، فيطول الليل ويقصر النهار. وهذا يكون في الشتاء.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة، وقيل: إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، وقال ابن أبي حاتم بسنده(١) عن ابن عباس أنه قال: «الشمس بمنزلة الساقية، تجري في السماء بالنهار في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر». إسناده صحيح.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠] ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، لأن كل ما في السمٰوات والأرض، الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ الذي لا أعلى منه، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٢) إلى ابن إسحاق، وابن جرير وابن أبي حاتم، وهو ليس في مطبوع «تفسير ابن جرير» عند هذه الآيات، وهو ساقط من مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»، وأورد ابن كثير (١١/ ٧٩) إسناده، وقد **صححه!**
ووجدته في «الهيئة السنية» رقم (١٩١) للسيوطي، ولم يعزه إلا إلى ابن أبي حاتم، ثم وقفت على إسناد ابن أبي حاتم، فأخرجه من طريقه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١١٥٠ ـ ١١٥١) رقم (٦٣٠) وإسناده رجاله ثقات، إلا أن أبا صالح كاتب الليث كثير الغلط، وكانت فيه غفلة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، قال (ك): «يخبر تعالى أنه الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من قدرته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء شكور في الرخاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال والغمام ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي: كافر[(١)]، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ فالختار هو الغدار، قاله مجاهد[(٢)] والحسن[(٣)] وقتادة[(٤)] ومالك عن زيد بن أسلم[(٥)]، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخَتْر أتم الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معديكرب[(٦)]:

وإنَّكَ لو رأيتَ أبا عُميرٍ ... مَلأتَ يديك من غدرٍ وخَتْرِ

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها»[(٧)].

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٥٨٠)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣١٠١) رقم (١٧٥٦٣) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٨) إلى ابن أبي شيبة والفريابي وابن المنذر، وهو عند البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٩٤) وغيره.

(٢) انظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٥٠٦)، و«تفسير ابن جرير» (١٨/ ٥٨٠، ٥٨١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣١٠١).

(٣) انظر: «تفسير الحسن البصري» (٤/ ٢٨١) رقم (٨١٨ ـ جمع شير علي شاه)، و«تفسير ابن جرير» (١٨/ ٥٨١)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٢٨).

(٤) انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٠٦)، «تفسير ابن جرير» (١٨/ ٥٨١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣١٠١)، و«الدر المنثور» (٥/ ١٦٨).

(٥) انظر: «الإمام مالك مفسراً» (٣١٧/ رقم ٣٧٥).

(٦) البيت في «ديوانه» (١٠٥).

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٧٩ ـ ٨١).

فصل

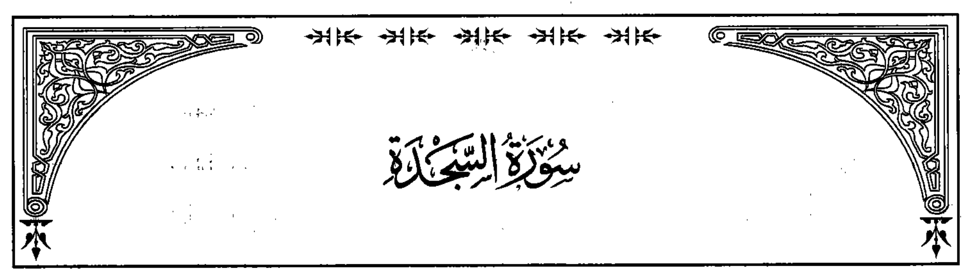
يقول محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآيات بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة فمن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾، إلى ﴿خَبِيرٌ﴾ آية دالة على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الآية دالة على توحيد العبادة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ الآية دالة على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ الآية دالة على توحيد العبادة، وتفسير ابن عباس[1] لجريان الشمس يعلم منه أن الشمس حين تغيب عن قوم تطلع على آخرين، فهي تجري دائماً ليلاً ونهاراً حتى ينتهي عمرها، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

---

(١) المتقدم لفظه قريباً، وهناك تخريجه.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمّة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القاهر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ يعني أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك [أو وزير أو ند](١) أو عديل، لا إله إلا هو، ولا رب سواه»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «تقدم الكلام على ذلك» يعني: في (سورة الأعراف)، وجميع الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وأئمة الحديث يعتقدون أن الله فوق عرشه الذي هو أعظم المخلوقات، وعرشه فوق سمواته ويحاربون عقيدة من يقول: إن الله في كل مكان، وسأتعرض لذلك بإقامة البراهين والبحث والتحقيق في (قسم توحيد الأسماء والصفات) في (الجزء الثالث) من (هذا الكتاب)(٣) إن شاء الله تعالى.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أو نديد أو وزير».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٩٠).

(٣) انظر منه (٥/ ٨٩ وما بعد) من نشرتنا هذه، والله الموفّق للخيرات، والهادي للصالحات.

قوله: «فلا ولي لخلقه سواه» العقيدة الشائعة عند أكثر من ينتسب إلى الإسلام أنهم يقولون بوجود أولياء ينفعون ويضرون، وقد منحهم الله التصرف[1] في العالم، يفعلون ما يشاؤون، يحيون الأموات، ويميتون الأحياء، ويعطون كل من سألهم حاجته، وهذه عقيدة أهل الكفر والشرك، وقد نفى الله الأولياء في مواضع لا تحصى من كتابه العزيز:

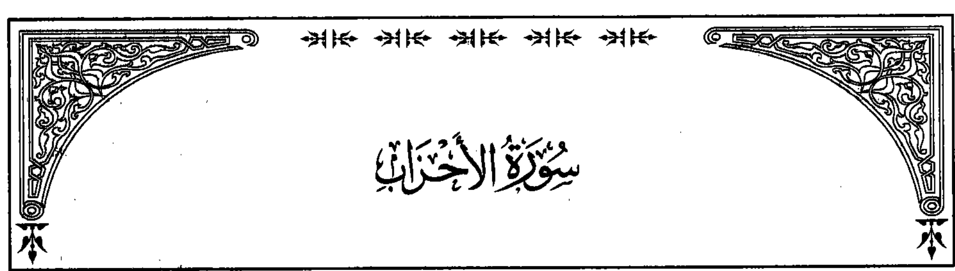
فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ [الشورى: ٦] وقال تعالى في هذه السورة أيضاً منكراً على المشركين اتخاذ الأولياء: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾.

فالمسلم الحقيقي الموحد ليس له إلا ولي واحد، وهو الله سبحانه، قال تعالى في سورة الأعراف آمراً رسوله محمداً ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٥ ـ ١٩٦] وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ[2] ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. اهـ.

---

(١) تحرف في الأصل إلى «التصوف»!

(٢) في الأصل: «أفغير»!



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ [الأحزاب: ٣]

قال (ك): «﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: التوكل(٢): هو الاعتماد بالقلب على الله وحده في جلب كل محبوب ودفع كل مكروه، فطالب العلم يبذل جهده في التعلم، ولا يتوكل على جهده بل يتوكل على الله في بلوغ النجاح، والزارع يبذل كل جهده في الحرث وإصلاح التربة، واستعمال المخصبات، ولا يتكل على ذلك، بل على الله وحده، فإن من اعتمد على حوله وقوته وكله الله إلى نفسه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩]

قال (ك): «يمدح تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام - بل وفي كل مقام - محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١١٢). (٢) سقط من الأصل!

جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي [قبله إنما][(١)] يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم. ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثم ورَّث مقام البلاغ عنه أمته من بعده[(٢)]، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ﷺ بلغوا عنه كما أمرهم في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم ثم ورثه[(٣)] كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم، روى الإمام أحمد وابن ماجه بسندهما[(٤)] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ولا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه»**، فقال: **«ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقوله؟ فيقول: رب خشيت الناس؟ فيقول: فأنا أحق أن يخشى»**[(٥)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أثنى الله تعالى على ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وأخبر أنه ينصرهم ويعينهم، وقد بين الحافظ (رحمه الله) من هم هؤلاء المعنيون بهذا وأنهم الأنبياء وورثتهم، فلا يكون منهم حقاً وصدقاً إلا من اتصف بخشية الله وحده، ولم يخش أحداً غيره، وتكفل الله سبحانه لمن كانت هذه صفته بالنصر والعون، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم. اهـ.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعد».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ورث».

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وعبد بن حميد (٩٧١)، وابن ماجه (٤٠٠٨)، والبيهقي (١٠/ ٩٠ ـ ٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٤)، **وإسناده ضعيف لانقطاعه**، أبو البَخْتري لم يسمع من أبي سعيد، وبينهما راوٍ مبهم، وضعفه شيخنا الألباني أيضاً.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢ ـ ٧٣]

قال محمد تقي الدين: ذكر الحافظ (ﷺ) في تفسير هذه الآية روايات كثيرة، حاصلها أن الأمانة هي الفرائض، والإنسان هو آدم، ثم ذكر أحاديث الأمانة أنقل شيئاً منها، روى أحمد والشيخان بسندهم[1] عن حذيفة رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال**[2]**، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة»**[3]، ثم حدّثنا عن رفع الأمانة فقال: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٣)، والبخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣)، والترمذي (٢١٧٩)، وابن ماجه (٤٠٥٣) وغيرهم.

(٢) الجذر: الأصل، فجذر الشجرة: أصلها، وجذر الأربعة اثنان، وخص الرجال بالذكر لأنهم المخاطبون، فالنساء مثلهم، وذلك على حد قول الشاعر:

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ

(٣) من المعلوم أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتُنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبُها بسقْيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتّذكر على التفكّر، والتفكّر على التّذكّر إلا أوشكت أن تيبس، فالفطرة التي جعلها الله في أعماق الإنسان كالنبتة، تحتاج إلى سقي ونماء، وسقيها بالعلم، ونماؤها بالعمل، وهكذا كان الصحابة، علموا الكتاب والسنة، وحافظوا على الفطرة.

وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشَكَ أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظّفَها عليهم، وجعلها مادةً لسَقْيِ غراس التوحيد الذي غَرَسَه في قلوبهم.

ومنها: إن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بُدَّ أن يُخالطه دَغَل ونَبْتٌ غريب ليس من جنسه، فإنْ تَعاهده رَبُّه ونَقّاه وقَلَعه كمل الغرس والزرع، واستوى، وتَمَّ نباتُه، وكانَ أَوْفَرَ لثمرته، وأطيَبَ وأزكى، وإنْ تركه أوشَكَ أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلّته، ومَنْ لم يكن له فِقْهُ نفسٍ في هذا ومعرفة به، فاته ربْحٌ كبير وهو لا يشعر؛ =

قلبه، فيظلّ أثرها مثل أثر المَجْل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبراً، وليس فيه شيء». قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال: **«فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً! حتى يقال للرجل: ما أجلده وأظرفه وأعقله، وما في قلبه حبة خردل من إيمان»**، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه علي دينه، وإن كان نصرانيّاً أو يهوديّاً ليردنه عليَّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً»[1].

١ ـ قال صاحب «اللسان»: «مَجِلَتْ يده بالكسر ومَجَلَت تَمْجَل وتَمْجُل مَجَلاً ومَجْلاً ومُجُولاً لغتان، نَفِطَتْ مِن العمل، أي: [تقرحت][2] من [الشغل بها][3] فمرنت وصلبت وثخن جلدها، [وتحجر][4] وظهر فيها ما يشبه البَثَرَ من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة. وفي حديث فاطمة[5] أنها شكت إلى علي ﷺ، مَجْل يديها من الطحن، وفي حديث حذيفة: «فيظلُّ أثرها مثل أثر المَجَل»، وأمجَلَها العملُ»[6].

٢ ـ قال صاحب «اللسان»[7]: «النَّبرَة: الورم في الجسد، وقد انتبر، ومنه

= فالمؤمن دائماً سعيُه في شيئين: سَقْي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التُّكْلَان. [ولا حول ولا قوة إلا به]. أفاده ابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ـ بتحقيقي).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١، ٢٥٥) بتصرف.

(٢) في مطبوع «اللسان»: «نفِطَت».

(٣) في مطبوع «اللسان»: «العمل».

(٤) في مطبوع «اللسان»: «وتعجّر».

(٥) الحديث طويل، انظره عند أحمد (١/ ١٠٦)، والحميدي (٤٤)، وابن سعد (٨/ ٢٥)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٢٥٩)، وأبي نعيم (٢/ ٤١) وفي «الأربعين» (١٦)، **وهو صحيح**. وفيه طلب علي وفاطمة من رسول الله ﷺ الخادم، وإرشاده لهما بالتسبيح والتحميد والتكبير قبل النوم، وهذا القسم منه عند البخاري (٣١١٣، ٣٧٠٥، ٥٣٦١، ٥٣٦٢، ٦٣١٨)، ومسلم (٢٧٢٧) وغيرهما، وبيّنت ذلك في تعليقي على «رجحان الكفّة» للسخاوي (١٠٩ ـ ١١٢)، ونقل عن ابن تيمية أنه استخلص من القصة المشار إليها أنّ من واظب على هذا الذكر عند النوم لم يُصبْه إعياء، لأنّ فاطمة ﵂ شكت التعب من العمل، وأحالها ﷺ على ذلك، وينظر لهذا: «فتح الباري» (١١/ ١٢٥).

(٦) انظر: «لسان العرب» (١١/ ٦١٦ ـ مجل).

(٧) انظر: «لسان العرب» (٥/ ١٨٩ ـ نبر).

حديث عمر رضي الله عنه: «إياكم والتخلُّل بالقصب، فإن الفم يَنْتَبِر منه»، أي يَتَنَفَّط».

٣ ـ ساعيه: المكلف بأخذ الجزية منه، قال الإمام أحمد بسنده(١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«أربعٌ إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة(٢)، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفّة [في](٣) طعمة»(٤)**، وروى أبو داود عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حلف بالأمانة فليس منا»(٥)**.

وقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ منهم ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسوله(٦)، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: ويرحم(٧) المؤمنين من الخلق [الذين آمنوا](٨) بالله وملائكته وكتبه ورسله(٩)، العاملين

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، وابن وهب في «الجامع» (١/ ٨٤)، والحاكم (٤/ ٣١٤)، وعنه البيهقي في «الشعب» (٥٢٥٧) **بإسناد منقطع**، الحارث بن يزيد الحضرمي لم يسمع عبد الله بن عمرو؛ نعم، له طريق أخرى موصولة، أخرجها الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٦، ٢٧، ٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٥٨) وقال: «هذا الإسناد أتم وأصح»! قال أبو عبيدة: نعم، ولكن فيه ابن لهيعة والأصح منهما ما أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٠٤) عن عبد الله بن عمرو موقوفاً، **وإسناده صحيح**.

(٢) في الأصل: «أمانتك»! والمثبت من «المسند».

(٣) سقطت من الأصل، وأثبتها من «المسند».

(٤) أي: يتعفف عن الحرام والمشتبه فيه. (منه).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وأحمد (٥/ ٣٥٢)، وأبو يعلى في «مسنده الكبير» ـ كما في «إتحاف الخيرة» (٦٥٩٨، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠) ـ والحارث بن أبي أسامة ـ كما في «المطالب العالية» (٣٢١٩) ـ والبزار (١٥٠٠ ـ «كشف الأستار») في «مسانيدهم»، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ٣٧)، وابن حبان (٤٣٩٣ ـ «الإحسان») والطحاوي في «المشكل» (١٣٤٢)، والحاكم (٤/ ٢٩٨)، والبيهقي (١٠/ ٣٠)، وفي «الشعب» (١١١١٦)، والخطيب (١٤/ ٣٥) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه، ووهم فيه بعض الرواة فقال: «سليمان»! بدل «عبد الله»! **وإسناده صحيح**. وصححه شيخنا الألباني في «صحيح موارد الظمآن» (١/ ٥٢٧) رقم (١١٠٠).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسله».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وليرحم».

(٨) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ورسوله».

بطاعته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عرض الله الأمانة، وهي التكاليف الشرعية على الأشياء المذكورة بكيفية يعلمها هو سبحانه، فخافت هذه الأشياء أن لا تقوم بعملها خير قيام، مع قوتها وعظم حجمها، وحملها الإنسان الضعيف، والمراد بالإنسان جنسه، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ٢] وقد فسر الإنسان في «التفاسير» التي عندي بأنه آدم، وفيه إشكال، لأن آدم لا يتصف بكثرة الظلم والجهل. بخلاف الجنس، فإن أكثرهم متصفون بذلك[٢]، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فائدة ثانية: ذكر حذيفة في الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ حديثين، أحدهما قد رآه والآخر لم يره، ولكنه ينتظره، الحديث الأول، رفع الأمانة من قلوب الرجال، وقد عاش حذيفة إلى أن رأى ذلك، فقبل رفع الأمانة كان يعامل جميع الناس من المسلمين وأهل الذمة، ولا يخشى غدراً ولا خيانة، أما بعد رفع الأمانة صار لا يعامل إلا من يعرفه ويثق به.

فائدة ثالثة: وصف النبي ﷺ ارتفاع الأمانة من قلوب الرجال، وشبهه بموضع من جسم الإنسان وقعت عليه جمرة فانتفخ، فإذا رآه الإنسان منتفخاً

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٢) إلا من اعتنى بنفسه، وحصل نصيباً من (التزكية) التي ترفع (الظلم)، و(العلم) الذي يرفع (الجهل)، ولذا بعث النبي ﷺ مزكّياً معلّماً، كما جاء في غير ما آية، والتزكية لا تتحصل إلا بالتربية، والعمل الصحيح لا يتحصل إلا بالتصفية، ولذا كان الشعار السلفي في الإصلاح: (التصفية والتربية)، وهما بمثابة الوسائل لتحصيل (التزكية والعلم)، وقد بسطتُ هذا المعنى في مقالة نشرتُها في مجلة «الاستقامة» البحرينية، العددان السابع عشر والثامن عشر، جمادى الأولى والآخرة ١٤٢٦ (ص٣٢ ـ ٣٤) وهي بعنوان (نظرة تأصيلية في التصفية والتربية الإيمانية من الشعار السلفي في عملية التغيير).

ناتئاً، يظن أنه يشتمل على شيء، وهو في الحقيقة فارغ. فكذلك الذي يدعي الإسلام إذا سمع الإنسان دعواه يظن أنه ثقة، فإذا امتحنه بالمعاملة، وجده فارغاً من الإيمان الذي ثمرته الصدق في المعاملة. اهـ.

فائدة رابعة: تأملوا قول النبي ﷺ: «**أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا**»[(١)]، فقد جمعت هذه الأربع الخلال الخير كله، فمن كانت فيه فهو سعيد في الدنيا والآخرة، ومن نقصه شيء منها نقصت سعادته، ومن لم يكن فيه شيء منها فهو شقي، نسأل الله أن يرزقنا إياها كلها. اهـ.

فائدة خامسة[(٢)]: المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات أعد الله لهم عذاباً أليماً، إلا أن المنافق شر من المشرك وأكثر ضرراً للمسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

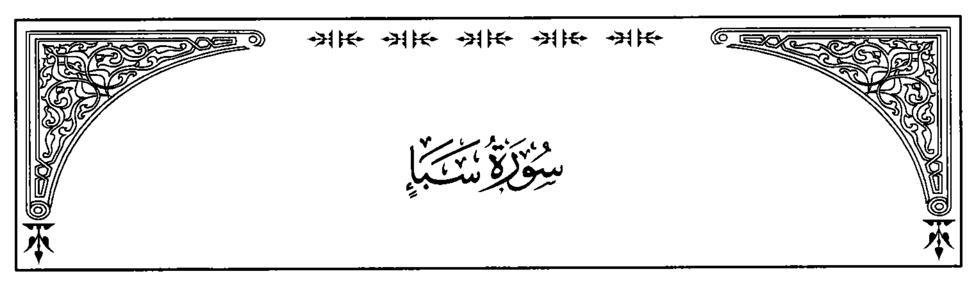
---

(١) قطعة من حديث تقدم بتمامه وتخريجه هناك.

(٢) **وسادسة**: ذكر الله في الآيات مَنْ حمل الأمانة ظاهراً وباطناً، وهم المؤمنون والمؤمنات، ومن حملها ظاهراً دون الباطن وهم المنافقون والمنافقات، ومن ردها ظاهراً وباطناً وهم المشركون والمشركات، والله أعلم.

وسابعة: إن امتزاج (الظلم) مع (الجهل) يتولّد منه (الضلال المبين)، وسبق أن بيّنت أن (الظلم) يرفع بـ(التزكية)، و(الجهل) يرفع بـ(العلم)، ولما ذكر الله تعالى منّته الكبرى على البشرية بأن بعث في الأميين رسولاً منهم، ونعته بقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ثم نعتهم عند فقدان هاتين الخصلتين فيهما ـ ولازمه تحقق الظلم والجهل فيهم ـ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فالإنسان ما لم يقبل على العلم والتزكية فهو غير مبرأ من النفاق والضلال، ومصداق ذلك قوله ﷺ الصحيح: «**خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت، وفقه في الدين**».





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]

قال (ك): «بيّن[1] تبارك وتعالى أنه [لا إله إلا هو][2] الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقلُّ بالأمر وحده من غير مشارك، ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيدٌ لديه، قال قتادة في قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: «من عون يعينه بشيء»[3]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذن له في الشفاعة كما قال ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يبين».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإله الواحد».
(٣) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٢٧٣)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٠٥).

قال البيضاوي: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ غاية لمفهوم الكلام من أن ثم توقفاً وانتظاراً للإذن، أي: يتربصون فزعين، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين، والمشفوع لهم بالإذن، وقيل: الضمير للملائكة، وقد تقدم ذكرهم ضمناً، ﴿قَالُوا۟﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ قالوا: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، وهم المؤمنون، وقرئ بالرفع[1] أي: مقولُهُ الحق، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا لنبي من الأنبياء أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هاتين الآيتين إرشاد عظيم لمن نوّر الله قلبه ولم يمنعه اتباع الهوى عن قبول الحق، وحجة دامغة لأهل الباطل، فقد نفى الله فيها أربعة أمور:

الأول: إن الآلهة الذين يعبدهم المشركون سواء أكانوا ملائكة أم أنبياء أم صالحين أم تماثيل أم أوثاناً لا يملكون من الخير ما يزن نملة صغيرة، لا في السموات ولا في الأرض استقلالاً.

الأمر الثاني: إنهم لا يملكون مثقال ذرة على وجه الشركة مع الله تعالى.

الأمر الثالث: إن الله تعالى ليس له معين من خلقه.

الأمر الرابع: وهو آخر ما يؤمله المؤمل الشفاعة، فإن الله لا يشفع عنده أحد لأحد إلا إذا أذن للشافع ورضي عقيدة المشفوع له.اهـ.

والشفاعة عند الله تعالى ليست كشفاعة المخلوقين بعضهم عند بعض، فالملك والأمير وإن كبر شأنه لا بد أن يكون عنده من يخافه ويستحيي منه، كالوالدين والزوجة والأولاد وكبار رجال الدولة، فهؤلاء إذا أرادوا أن يشفعوا عنده لا يحتاجون إلى استئذان لما لهم عنده من المنزلة. فهذه هي الشفاعة التي نفاها الله، وينبغي أن نعيد هنا الحديث الذي في «الصحيح»، وهو قول النبي ﷺ: **«ليرفعنَّ أقوام منكم إليَّ، وأنا على الحوض، ثم ليختلجن دوني، فأقول: إلى أين؟**

---

(١) هذا قراءة ابن أبي عبلة، انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٢٧٩)، «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٢) للفراء، «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٢٠٩)، «معاني القرآن» (٤/ ٢٥٣) للزّجاج.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) بتصرف.

فيقال: إلى النار، فأقول: أي ربي أصحابي أصحابي - وفي رواية خارجة عن الصحيح: إنهم من أمتي[١] **- فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم بدَّلوا وغيَّروا فأقول: سحقاً سحقاً»**[٢]. أي: بُعداً بُعداً لهم، بمعنى: أبعدهم الله. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣]

قال (ك): «يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن، [وبما][٣] أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الله ﷻ متهدِّداً لهم ومتوعِّداً ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجِّهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ منهم[٤] وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ منهم[٥] وهم قادتهم وسادتهم [﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي:][٦] لولا أنتم تصدونا[٧] لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به، فقال لهم

---

(١) عند مسلم (٢٢٩٤) من حديث عائشة: «فلأقولنّ: أي ربّ! مني ومن أمتي».
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث ابن مسعود.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وما».
(٤) سقطت من الأصل، وهي في «تفسير ابن كثير».
(٥) سقطت من مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تصدوننا»!

القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم[١] أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل[٢] لشهوتكم، واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً [وتغروننا وتمنوننا وتخبروننا][٣] أنا على هدى، وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين، قال قتادة وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يقول: «بل مكركم بالليل والنهار»[٤]، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم: «مكركم» بـ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٥]، ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهاً وأشياء من المحال تضلونا بها، ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما يجازيكم بأعمالكم كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]»[٦].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في (الباب الأول) من (سورة البقرة) معنى الند، وجمعه الأنداد عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وذكرت هناك أحاديث في هذا المعنى، منها: قول النبي ﷺ لمن قال له: ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**»[٧] وفي الحديث الآخر: «**لا**

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنبياء».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتغرونا وتمنونا وتخبرونا».

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٣٢)، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢١٩) ـ عن قتادة، وابن جرير (١٩/ ٢٩٢) وابن أبي حاتم عن ابن زيد.

(٥) انظر: «الإمام مالك مفسراً» (ص٣٢٩/ رقم ٣٩٧).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

(٧) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨)، وابن ماجه (٢١١٧)، وأحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٦)، وابن أبي =

تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»[(١)]، وهذه إذا كان القائل يعتقد أن المخاطب بذلك له إرادة مع الله، فهو من الشرك الأكبر، وأما إذا قال ذلك غفلة وهو يعتقد أن المشيئة لله وحده، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فحينئذ يكون من الشرك الأصغر، فكيف بمن يتخذ أنداداً يهتف بأسمائهم عند القيام والقعود والفزع، ويستغيث بهم في الشدائد، ويخافهم ويرجوهم، ويتوكّل عليهم، فالحمد لله على العافية، اللهم أتمم علينا نعمتك، ولا تردنا على أعقابنا. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤٥]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس

= الدنيا في «الصمت» (٤٣٥)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٥)، والطبراني (١٣٠٠٦)، والبيهقي (٣/ ٢١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٩) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، **وحسّنه** شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١/ ٢٦٦) رقم (١٣٩).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٠، ١٠٨٢١)، وابن ماجه (٢١١٨)، والطيالسي (٤٣٠)، وابن أبي شيبة (٩/ ١١٧، و١٠/ ٣٤٦)، وأحمد (٢٣٣١٣، ٢٣٤٢٩)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٦)، والبيهقي (٣/ ٢١٦) من حديث حذيفة، ووقع اضطراب في سنده لا يعل به أصل الحديث، انظره عند النسائي والطحاوي، وفي «الفتح» (١١/ ٥٤٠) و«النكت الظراف» (٣/ ٢٩)، **وصححه** شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١/ ٢٦٣) رقم (١٣٧).

الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على [صورهم][(١)] ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] وكما يقول لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، يعنون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأضلوهم[(٢)] ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧ - ١١٨] قال الله ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأصنام[(٣)] التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

قال (ك): «ويخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان [رسول الله][(٤)] ﷺ ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يعنون: دين آبائهم هو الحق وأن ما جاء به الرسول عندهم باطل[(٥)] ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صور الملائكة».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويضلونهم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأوثان».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسوله».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم وعلى آبائهم لعائن الله».

إليهم نبيّاً قبل محمد ﷺ وقد كانوا يودون ذلك، ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا، فلما منّ الله عليهم بذلك، كذبوا وجحدوه وعاندوه[١]، ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: من الأمم ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ قال ابن عباس وغيره: «أي من القوة في الدنيا»[٢] وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم كما كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: نستفيد من هذه الآيات أن عبادة غير الله تعالى كلها سواء، وإن اختلف المعبودون، فمن عبد الملائكة والأنبياء، كمن عبد الشياطين والأوثان، وإن المشركين في كل زمان ومكان إذا جاءهم الحق من الله تعالى بواسطة رسله أو بواسطة أتباعهم أجابوه بقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ قال تعالى في سورة (ص): ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٦ ـ ٧] وهذا لا يضر دعاة التوحيد[٤] أهل الاتباع إن أخلصوا لله وصبروا على ما يلاقون، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. اهـ.

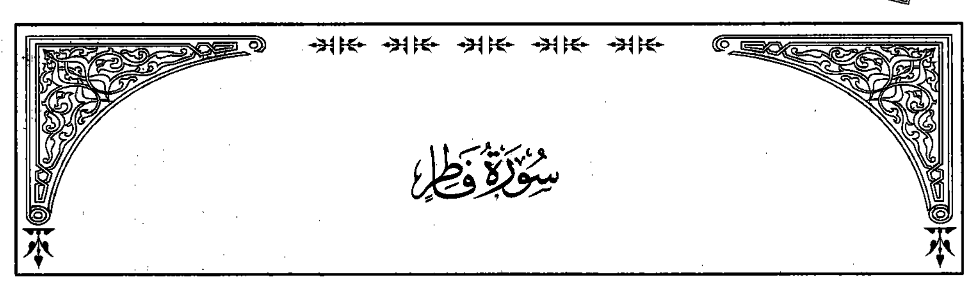
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعاندوه وجحدوه».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٣٠٢)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٦٨) رقم (١٧٩٠٢)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٢٨، ط. هجر).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) بتصرف.

(٤) فالحقائق لا تغلب بالتخييلات والخرافات، وسنة الله معلومة في أهل الخرافة، فإنه لا وزن لهم، وها هو التاريخ قد أعدمهم، ولم يبق لهم ذكر حسن في الناس، وهكذا البدع والشرك وأهلها، فإن مآلها إلى تباب وضياع، وإن انتفشت وظهرت فسرعان ما تزول، فالحق ثقيل ومريء، والباطل خفيف ووبيء.



سورة فاطر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤]

قال (ك): «وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيد في قصر هذا، فيعتدلان ثم يأخذ من هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً، وشتاء، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر تقديراً من عزيز عليم، ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، له [الملك وحده][1]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأصنام والأنداد[2] ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف[3]: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين».

(٣) سمّاهم ابن كثير، فهم: مجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي، والحسن وقتادة، قال: «وغيرهم»، وانظر: «تفسير ابن جرير» (١٩/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠)، «تفسير ابن وهب» (١/ ٢٠، ٩١ ـ ٩٢ رقم ٤١، ٢٠٩)، «فتح الباري» (٨/ ٥٤٠)، «الدر المنثور» (١٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

التمر، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القطمير، ثم قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾؛ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع[1] دعاءكم[2] ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون على [شيء مما][3] تطلبونه منهم، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ذكر الله سبحانه قبل هاتين الآيتين أدلة متعددة على توحيد الربوبية، بدأها بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: ١١]، وختمها بأولى هاتين الآيتين، ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ ثم أخبر ﷻ أن جميع المدعوين من الملائكة والأنبياء والصالحين وتماثيلهم وآثارهم، لا يملكون لمن دعاهم شيئاً ولو قطميراً، فإذا كانوا لا يملكون القطمير وهو غلاف رقيق يكون على ظهر نواة التمر أبيض فكيف يملكون نواة؟ فكيف بالتمرة؟ وإذا كانوا لا يملكون شيئاً، فدعاؤهم في غاية الجهل والضلال والسفاهة، ولو أمن الداعي من عذاب الله، كيف وهو مع خسارته في سعيه ينتظر عذاب الله، ثم أخبر ﷻ أن أولئك المدعوين لا يسمعون دعاء الداعي أبداً؛ لأن الذي يسمع كل نداء هو الله وحده، ولأن أولئك المدعوين غافلون عن دعاء الداعي، فالملائكة غافلون لاشتغالهم بعبادة الله تعالى، والصالحون غافلون عنهم لاشتغالهم بالنعيم، هذا لو كانت لهم القدرة

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يسمعون».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لأنها جماد لا أرواح فيها».

(٣) بدلها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣١٥) بتصرف، وأثر قتادة أخرجه ابن جرير (١٩/ ٣٥٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٢٤٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

على سماعهم، وقد تقدم أن الذي يسمع كل نداء هو الله وحده، ثم قال تعالى: وهبوا أنهم سمعوا دعاءكم، فإنهم لا يستجيبون لكم، ويوم القيامة ينكشف لهم، أنكم كنتم تعبدونهم وتتخذونهم شركاء مع الله، وحينئذ يكفرون بشرككم، فتعظم حسرتكم وندامتكم حين لا ينفعكم الندم، والذي نبأكم بهذا هو العليم الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية.

وهنا نكتة يجب التنبيه عليها وهي أن كل من دعاه الإنسان لجلب خير أو دفع شر، فقد عبده واتخذه شريكاً مع الله، نبه الله على ذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ولم يقل: بدعائكم، ليبين لعباده أن دعاء غير الله شرك.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: ٤٠]

قال (ﷺ): يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام[1] ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير، وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ليس الأمر كذلك، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيَّهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور باطل وزور»[2].

فصل

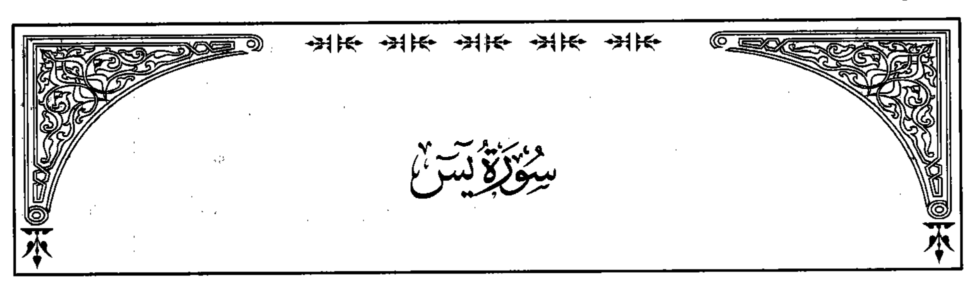
قال محمد تقي الدين: في هذه الآية الكريمة احتجاج على المشركين في غاية البيان، لو أنهم يعقلون، وذلك أن أولئك المعبودين الذين اتخذوهم شركاء مع الله لم يخلقوا شيئاً، ولا ذباباً أو نملة أو بعوضة، ولا يملكون من السموات

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٣٧).

والأرض شيئاً بل هم مخلوقون ومملوكون لله تعالى، فأي سفاهة، أعظم من اتخاذهم شركاء(١)، وأخبر الله تعالى أن جميع الكتب السماوية التي أنزلها على الأنبياء تدعو إلى توحيد الله، وليس فيها دليل، ولا شبهة للمشركين يستدلون بها على عبادة غير الله، ومن يضلل الله فما له من هاد.اهـ.

(١) إذ الخالق هو المالك، والمالك هو المتصرف بالذي يملكه على أي وجه شاء، ولذا: السعيد مَنْ كان عبداً لله تعالى بالاختيار، كما هو عبدٌ له بالاضطرار، ولا يستقيم حاله، ويجتمع أمره إلا بهذا، ومن أعظم نِعَم الله علينا أنه سبحانه المتكفّل بتشريع ما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة، فمن ظن أن له مصلحة في العاجل قبل الآجل في الخروج عن أمور المولى، والاستجابة إلى داعي الهوى فهو واهم، والمصلحة ـ حينئذٍ ـ ليست بحقيقية، نعم قد تبدو لغير صاحب البصيرة، كالمرابي في تعامله مع البنوك! ولكن سرعان ما تظهر له الحقيقة، فالبنك يعطيه القرض الربوي، وحاله كالذي يحمل مظلة ويرفعها بيده فوق رأسه، ولم ينزل المطر بعد، فإذا نَزَل المطر، سحب البنك منه المظلة، وهكذا فالبنت المتبرجة يأتيها الزوج عند رؤية مفاتنها، وسرعان ما يظهر خلقه السيئ عند مرضها أو كبرها أو اعتياد الحياة معها، وعليه فقِس.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢٧]

ذكر (ك) مما نقل عن أهل الكتاب أن اسمه حبيب النجار[(١)]، وذكر كثيراً من أخباره، ولم أر في نقل ذلك فائدة، والذي يهمنا من شأنه أنه كان موحداً متَّبعاً لما جاءت به الرسل، وكان قومه مشركين، اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله، وعصوا المرسلين، فدعاهم إلى توحيد الله واتباع المرسلين، وأقام لهم البرهان على ذلك، وكان بيته في طرف البلد، فجاءهم ماشياً، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم، وإن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ

---

(١) انظر ما ورد في ذلك في: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣١٩٢)، «زاد المسير» (٧/ ١٢)، «الدر المنثور» (١٢/ ٣٣٧، ط. هجر)، «صلة الجمع وعائد التذييل» (٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥)، وقصته في «تاريخ ابن جرير» (٢/ ٢١)، «مروج الذهب» (١/ ٦٦)، «الكامل في التاريخ» (١/ ٢١١).

ءَالِهَةً﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وهذه الآلهة[١] لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله، وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾، قال ابن عباس يقول لقومه: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي كفرتم به ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي: فاسمعوا قولي، ويروى أنهم قتلوه فأدخله الله الجنة، فاغتبط بذلك، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[٢]»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: قال بعض السلف: «المؤمن ينصح دائماً لقومه حيّاً وميتاً» فهذا الرجل تمنى لقومه أن يعرفوا فضل التوحيد واتباع الرسل، وما أعد الله لصاحبه من الكرامة، فيعمل بذلك فينال من السعادة مثل ما نال.اهـ.

قال محمد تقي الدين: كل مسلم مخلص يجب عليه أن يقتدي بهذا الرجل [الذي][٤] ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، وأثنى عليه بهذا الثناء العظيم، خصوصاً في زمان غربة الإسلام.اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

[يس: ٦٠ ـ ٦١]

قال (ك): «هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام».

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٢٩) بنحوه عن ابن مسعود، وعزاه في «الدر» (١٢/ ٣٣٩) لعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر عن كعب أنَّ ابن عباس سأله، ... وذكر نحوه.

(٣) من «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥) بتصرف يسير.

(٤) سقطت من الأصل.

الشيطان، وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمٰن، وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي: قد أمرتكم في [دار][1] الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ يقال: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم وتشديد اللام[2]، ويقال: (جُبُلاً) بضم الجيم والباء وتخفيف اللام[3]، ومنهم من يسكن الباء[4]، والمراد بذلك الخلق الكثير، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [أي: أن] في ذلك هلاككم فتجتنبوه][5]»[6].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم أن كل من عبد غير الله سواء زعم أنه عبد الملائكة، أم الأنبياء أم الصالحين وآثارهم، فإنما عبد الشيطان الذي أضله عن الصراط المستقيم، وزين له الشرك، فالصراط المستقيم، وهو توحيد الله، واتباع رسوله ﷺ. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٦]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الدار».

(٢) قال عنها النحاس: «أبين القراءات»، وهي قراءة الكافة. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٩٣)، «معاني القرآن» (٤/ ٢٩٢) للزجاج، «شرح الشاطبية» (٢٧٤)، «التيسير» (١٨٤)، «حجة القراءات» (٦٠١).

(٣) هذه قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وابن محيصن والحسن والأعمش وزيد ورويس عن يعقوب وخلف، انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢١٩)، «النشر» (٢/ ٣٥٥).

(٤) هذا قراءة أبي عمرو وابن عامر والهذيل بن شرحبيل والأشهب العقيلي وأبي حيوة، انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٣٤٤)، «النشر» (٢/ ٣٥٥)، «فتح الباري» (٨/ ٣٨٢)، «إرشاد المبتدي» (٥١٧)، «روح المعاني» (٢٣/ ٤١).

(٥) هذه العبارة غير موجودة في «تفسير ابن كثير» وقد وجدت نحوها عند الآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٤١).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

قال (ك): «يقول تعالى منكراً على المشركين[١] اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة، وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال مجاهد: «يعني: عند الحساب»[٢]، يريد: أن هذه الآلهة[٣] محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في خزيهم[٤] وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم، وقال قتادة: «﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾؛ يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سوءاً»[٥] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك، وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم فيه وسيجزيهم وصفهم ويعاملهم[٦] على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: المشركون في كل زمان ومكان يستنصرون بآلهتهم، ويظنون أنها تنصرهم وتأتيهم بالعز، فما أسخف عقولهم! وما أضلهم! فإنَّ كل من عبد غير الله تعالى، يذلّه الله في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ[٨] الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ

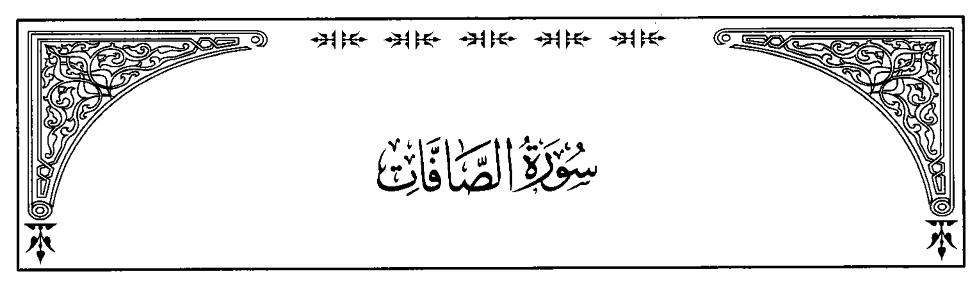
---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».
(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٤٨٤)، والفريابي ـ كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٩١) ـ وهو في «تفسير مجاهد» (٥٦١).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «حزنهم»!
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٢٠١) رقم (١٨١١٧)، و«تفسيرابن جرير» (١٩/ ٤٨٥)، وفي الأصل: «شرّاً»! وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٢٦٩) لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما هم عليه وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣) بتصرف.
(٨) في الأصل: «ويوم»!

ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧] وقد تقدم الكلام عليها في سورة النحل، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢] ولما حصر الفرنسيون مدينة فاس في عهد السلطان عبد الحفيظ، استنصر الجهال بالإمام إدريس بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ، فقال قائلهم:

أمولاي يا إدريس يا ابن نبينا . . . .

البيتين، وقد تقدم ذكر ذلك في (سورة آل عمران) في (الباب الثالث)، فعاقب الله جميع المغاربة ـ لأن أكثرهم مشركون ـ بالخذلان والهزيمة، وانتصر عليهم الفرنسيون، وحكموا بلادهم ثلاثاً وأربعين سنة، وهذا جزاء من يستنصر بغير الله.



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾

[الصافات: ١ ـ ٥]

(الصافات) هم الملائكة الجماعات الصافات المصطفة صفوفاً. وروى مسلم وغيره عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟**»، قلنا: كيف تصفّ الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «**يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصفوف**»(١).

قال محمد تقي الدين: فسر السلف (الصافات) بجموع الملائكة، تصطف عند ربها و(الزاجرات) بالآيات القرآنية التي تزجر الناس عن معصية الله، و(التاليات ذكراً) بالملائكة تتلو كلام الله على الأنبياء والأنبياء يتلونه على أممهم، أقسم الله سبحانه بهذه الأقسام على أنه إله واحد، وأن كل إله اتخذ من دونه، فعبادته ضلال يفضي إلى الهلاك.

قال (ك): «وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾(٢) ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات، تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليهما، وقد صرح بذلك في قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج: ٤٠] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: ١٧]؛ يعني

(١) أخرجه مسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١)، وابن ماجه (٩٩٢)، وغيرهم.
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا هو المقسم عليه: أنه تعالى لا إله إلّا هو».

في الشتاء والصيف للشمس والقمر»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: يا عجباً للمشركين! يقسم الله بأنه إله واحد، ثم هم يتخذون معه آلهة أخرى، يدعونها لرغبتهم ورهبتهم، ويخافونها ويرجونها ويتوكلون عليها، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٣٠]

«قوله(٢) تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه: «يعني بأزواجهم: أشباههم وأمثالهم»(٣) ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام(٤)، ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٦ ـ ٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ١٤٨)، وأخرجه جمع عنه عن عمر بن الخطاب قوله، كما عند أحمد بن منيع ـ كما في «المطالب العالية» (١٥/ ١٤٧) ـ، وابن جرير (١٩/ ٥١٩)، والحاكم (٢/ ٤٣٠) وصححه، وعزاه في «الدر المنثور» (١٢/ ٣٩٤) للفريابي، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وقال ابن حجر في «المطالب» (١٥/ ١٤٧) رقم (٣٦٩٣، ط. العاصمة) عن إسناد ابن منيع: «صحيح»! والأدق منه قول البوصيري في «الإتحاف» (٢/ ق ١٦٦/ ب): «رواته ثقات»، **والأثر حسن إن شاء الله تعالى.**

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ أي: قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ أي: منقادون لأمر الله تعالى، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾ إلى قوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قال (ك): «يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨﴾ قال ابن زيد: «معناه: تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير، الذي أمرنا به»[2] ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي[3]: حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا، وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله، إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣﴾ أي: الجميع في النار كل بحسبه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ﴾ أي: في[4] الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون، ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون: رسول الله ﷺ، قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ يعني: رسول الله ﷺ، جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١ ـ ١٢) بتصرف.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦).

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الدار».

من الإخبار والطلب ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره، كما أخبروا، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣]»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: من أعظم المصائب التي حلَّتْ بمشركي هذا الزمان، ويأسف لها كلُّ مشفق عليهم: إنهم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله، وقد أضلهم رؤساء جهال ينسبون إلى العلم زوراً وبهتاناً، ففسروا لهم لا إله إلا الله تفسيراً ضلالاً، قال بعضهم: معنى لا إله إلا الله: لا مُسْتَغْنٍ عن كل ما سواه ومفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله[٢]، فظن هذا الجاهل أن لا إله إلا الله يقصد بها توحيد الربوبية وهو إثبات الغنى لله تعالى، وإثبات الفقر لكل من سواه فقط، ولو فكر في معنى أله يأله إلاهَةً، أي: عبد يعبد عبادة، لعلم أن كلمة (إله) فعال بمعنى مفعول أي: معبود، فقائل لا إله إلا الله، العالم بمعناها، يشهد على نفسه أنه لا يعبد إلا الله، وأنه بريء مما يعبد من دونه، كما قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧] وقال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال تعالى في سورة مريم حكاية عن إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨] وقال تعالى في سورة هود حكاية عنه قال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥] وتقدمت قصة أبي طالب لما قال له النبي ﷺ: **«يا عم قل لا إله إلا الله»**، فهم أبو طالب وأبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أن معنى لا إله إلا الله، أن يترك ملة عبد المطلب وهي

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٢ ـ ١٤) بتصرف.

(٢) ومثله قول التبليغيين[١] في بياناتهم في المجالس العامة والخاصة في معنى (لا إله إلا الله): عدم اليقين على الأشياء، واليقين على الله تعالى فقط، ولا ينكر عليهم أحدا! إلى الله المشتكى من غربة الإسلام والسنة!

---

(١) يسميهم الهلالي (الإلياسيين)، انظر كلامه عنهم في (٣/ ٢٣٣) وما ذكرناه في المقدمة (ص٧٢ وما بعد).

الشرك[(١)]، فهؤلاء الكفار الثلاثة فهموا معنى لا إله إلا الله، وكثير ممن ينسب إلى الإمامة في العلم والدين يجهل معناها، وقال في هذه الآية حكاية عن الكفار، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ فهموا أنهم إن قبلوا لا إله إلا الله تحتم عليهم ترك عبادة آلهتهم، ووجب عليهم الكفر بها، والمشركون في هذا الزمان يقولون: لا إله إلا الله في كل حين، وهم يعبدون آلهتهم، ويستغيثون بها، فلا نسمع إلا يا شيخنا يا سيدي فلان، فسبحان من طبع على قلوبهم وأعمى بصائرهم.اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

[الصافات: ٨٣ ـ ٩٨]

قال محمد تقي الدين: أريد أن أفسر هذه الآيات بلفظي لأن التفاسير التي بيدي لم تتفق مع رغبتي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من أهل دين نوح السائرين على منهاجه في عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ هو الخليل الذي ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك معاد لأهله متبرئ منهم، حين قال: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام وما وراءها من الأنداد، أتقصدون بعبادتكم آلهة اتخذتموها من دون الله كذباً وزوراً؟ فإن الله لا يرضى أن يعبد معه غيره، ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ماذا تظنون أن يفعل بكم من العذاب، لأنكم ما

(١) مضت القصة مع تخريجها.

قدرتموه حق قدره حين أشركتم به؟ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: نظر إلى السماء مفكراً في حيلة يحتال بها على عدم الخروج معهم إلى العيد؛ ليخلو بأصنامهم ويكسرها في غيبتهم، فرأى أن يقول لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض، ليفهموا أنه لا يستطيع الخروج معهم ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: تركوه وانطلقوا إلى عيدهم، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي: مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيده اليمنى، حتى كسرها كلها إلا الصنم الكبير وقد تقدم في (سورة الأنبياء) أنهم لما رجعوا ووجدوا أصنامهم مكسَّرة، سألوا عن من كسَّرها، فأخبرهم إبراهيم أن كبير الأصنام هو الذي كسَّر رفقاءه، وقال لهم: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فقالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ...﴾ [الأنبياء: ٦٥] إلى آخر ما تقدم، وفي هذه السورة، أخبرنا الله تعالى أن إبراهيم ﷺ قال للأصنام لما رأى الطعام موضوعاً عندها وضعه عُبّادها لتجعل لهم فيه البركة ثم يأكلوه بعد ذلك: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؟ قال ذلك استهزاء بهم، وبمن يعبدونهم، فإن من أعظم الجهل أن يعبد الإنسان جماداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، وبعدما كسرهم أقبل عبادهم ﴿يَزِفُّونَ﴾، يهرعون، فقال لهم إبراهيم ﷺ: منكراً ومشنِّعاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الأصنام المنحوتة، فكيف تتخذونها آلهة، أين ذهبت عقولكم؟

قال (ك): «فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فـ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته، ونصرها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في (الباب الثالث) من (سورة الأنبياء) حديث أن إبراهيم، لم يكذب إلا ثلاثاً[2]...، فراجعه هناك. والمشركون في كل زمان ومكان متشابهون؛ فإن مشركي هذا الزمان يبنون بأيديهم قباباً ينسبونها إلى الصالحين، ويعبدونها بالذبح والنذر والتمسح، فيجيء السيل العظيم، فيجرف

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٦).

(٢) مضى الحديث بطوله مع تخريجه في (ص٦٤ ـ ٦٥).

القبة ولا تستطيع هي ولا من نسبت إليه أن يحولا بين السيل وبينها، فيعيد المشركون بناءها ويعبدونها، وإذا قيل للمشركين: كيف تعبدون شيئاً بنيتموه بأيديكم؟ فيزعمون أن روح ذلك الصالح ملازمة لتلك القبة، وهي التي تقضي حاجات عابديها، يقال لهم: إن كان الأمر كما زعمتم، فلماذا لم تدفع السيل عن قبتها؟ فلا يجدون جواباً، ومع ذلك يستمرون في شركهم، ولو أن شخصاً من الموحدين جاء يهدمها، لتصدوا لقتاله، ولو كانوا صادقين في زعمهم أن معها قوة تقضي الحاجات، وتفرج الكربات، لتركوا بينها وبين هادمها تنتقم منه، ولكنهم لا يعقلون.اهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)﴾

[الصافات: ١٢٣ ـ ١٢٨]

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ هو أحد الرسل من بني إسرائيل ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قومه ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله وتخافون عقابه، كيف تعبدون ﴿بَعْلًا﴾ وهو صنم مشهور عندهم، وتتركون عبادة الله الذي هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه من التوحيد ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للعذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ فإنهم لم يكذبوه بل آمنوا به، ووحدوا الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي: تشركون به فإنهم لم يتركوا عبادة الله، ولكنهم لما عبدوا معه غيره حبط عملهم وبطلت عبادتهم لله، فوصفوا بأنهم تركوا عبادة الله، كما قال تعالى في المشركين من العرب: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)﴾ فكل من صرف لغير الله مثقال ذرة من عبادته، فهو تارك لعبادة الله تعالى، وفي الحديث القدسي: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[1].اهـ.

---

(١) سبق تخريجه.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

[الصافات: ١٥٨ ـ ١٦٣]

قال (ك): «﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: «قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال[١] أبو بكر ﷺ: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن»[٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم، وقوله جلت عظمته: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به[٣] الظالمون الملحدون علوّاً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت»[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ «يقول تعالى مخاطباً للمشركين، ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: إنما[٥] ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة، والعبادة الباطلة[٦] من هو أضل منكم ممن ذُرِئَ للنار»[٧].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسأل».

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٩/ ٦٤٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٣١) رقم (٨٣٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٦٦)، رقم (١٤١)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٥٧١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٢/ ٤٨٤) لآدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن المنذر.

(فائدة): سروات الجن: أشرافهم.

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٦٢) بتصرف.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلا».

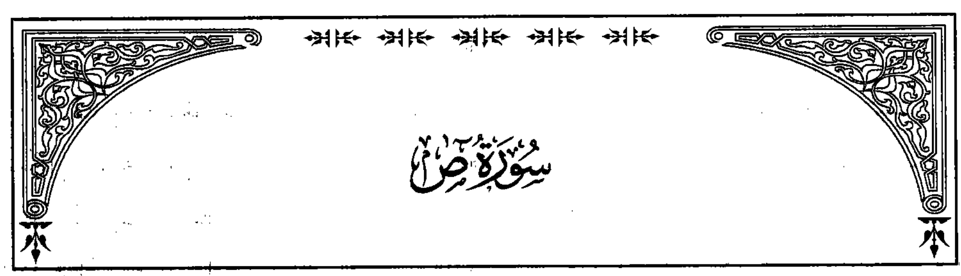
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٦٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: قول الحافظ (ك): «استثناء منقطع من مثبت» قد يشكل فهمه على بعض الناس. من المعلوم أن الاستثناء يكون من مثبت ومنفي، مثال المثبت: حضر الطلبة إلا سعيداً، فالاستثناء متصل، والمستثنى من مثبت، فإذا قلنا: حضر الطلبة إلا جملاً، فالمستثنى منه مثبت والاستثناء منقطع، لأن الجمل غير داخل في الطلبة. ومثال الاستثناء من منفي: ما جاء أحد إلا عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ . . .﴾ إلى آخره، منطبق على سدنة القبور والقباب وعلى الدعاة إلى أخذ الطرائق التي انتشرت في هذه الأزمنة، لأنهم يزيّنون للناس الدخول في طرائقهم، فيضمنون لهم الجنة افتراء على الله، ويضمنون لهم الحماية من شرور الدنيا والآخرة، والدخول في طرائقهم أعظم الشرور التي تصيب الناس في دنياهم وأخراهم، ولكن لا يفتن بوساوسهم إلا من ذرئوا لجهنم، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].





الباب الأول

قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: ١ ـ ٨]

قال (ﷺ): «أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته هٰهنا، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد، قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: تذكيركم(١)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ أي: إن في هذا القرآن لذكراً(٢) لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: مخالفة(٣) له ومعاندة ومفارقة، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/٩)، وانظر: «تفسير البغوي» (٧/٢٦٩)، و«زاد المسير» (٧/٩٨)، و«تفسير الضحاك» (٢/٧١٥) جمع د. محمد شكري الزاويتي.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الذكرى»!

(٣) في الأصل: «ومخالفة»، بزيادة واو في أوله!

﴿قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة مكذِّبة ﴿فَنَادَوا۟﴾ أي: حين جاءهم العذاب، استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله[٢] ﷺ بشراً[٣] كما قال ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: ٢] وقال جل وعلا ههنا: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ﴾ أي: بشر مثلهم: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ أَجَعَلَ كَذَّابٌ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ﴾ أي: أزعم أن المعبود واحد لا إلٰه إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى، وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإلٰه[٤] بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾؟!! ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ٱمْشُوا۟﴾ أي: استمروا على دينكم ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: «إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم اتباع ولسنا مجيبيه[٥] إليه»[٦].

ذكر سبب نزول هذه الآيات

قال السدي: إن ناساً من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلّمه فيه، فلينصفنا منه، فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلٰهه الذي يعبده، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٧١ ـ ٧٢).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الرسول».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل بدل منه: «بشيراً ونذيراً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».
(٥) كذا في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»، وفي الأصل: «نجيبه».
(٦) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٠/ ٢١) بنحوه.

فيكون منا إليه شيء فتعيّرنا به العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه، فبعثوا رجلاً منهم يقال له: المطلب، فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال: أدخلهم، فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلٰهه، قال: فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتنا[1] وَيَدَعوك وإلٰهك، قال ﷺ: «**يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟**» قال: وإلام تدعوهم؟ قال ﷺ: «**ادعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم**» فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها، قال ﷺ: «**تقولون: لا إلٰه إلا الله**» فنفروا وقالوا: سلنا غيرها[2] قال ﷺ: «**لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها**» فقاموا من عنده غِضَاباً وقالوا: والله لنشتمنك وإلٰهك الذي أمرك بهذا، ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝﴾»[3].

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾، أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: في دين قريش، ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: كذب، وقولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ يعني: إنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «آلهتهم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فنفر وقال: سلنا غير هذا».

(٣) أخرج هذه القصة: أحمد (١/ ٢٢٧)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٣٦)، وابن حبان (٩/ ٣٧٣) رقم (٦٦٥١ ـ «التعليقات الحسان»)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم (٣٧٥٦١)، وأبو يعلى (٢٥٨٣)، وابن جرير في «التفسير» (٢٠/ ٢٠)، وفي «التاريخ» (١/ ٥٤٤، ط. الكتب العلمية)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٣٥) رقم (١٨٣٢٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٤٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٣٢٢) **وإسنادها ضعيف**، فيه يحيى بن عمارة، ويقال: يحيى بن عباد، تفرد به عن الأعمش، فهو في عداد المجاهيل، وفصلت في تخريجه في تعليقي على «أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ» (ص١٧ ـ ٢٠) لعلي القاري، وضعفه شيخنا الألباني.

يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: ٣٢]. ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم، وقلّة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلمون غِب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا»(١). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، أقسم الله تعالى بالقرآن وهو كلامه ووصفه بقوله سبحانه: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: التذكير لأنه يذكر كل غافل، ويعلم كل جاهل، ويهدي كل ضال إلا من أبى واستكبر وكان من الكافرين وأعرض عن القرآن واستبدل به الشرائع الأرضية فإنه يخسر دنيا وأخرى. قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]، فيجتمع له شقاء الدنيا وشقاء الآخرة.

فائدة ثانية: قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ هو قول المشركين في كل زمان ومكان، ومنهم المشركون في هذا الزمان، فإنهم إذا قيل لهم: لا تستغيثوا إلا بالله، ولا تدعوا لجلب الخير ودفع الشر إلا الله، غضبوا وقالوا: إن لله أولياء، لا يحصل لأحد خير إلا بواسطتهم، وهذا افتراء على الله، فالمؤمنون الصادقون ليس لهم إلا الولي الحميد، الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، الذي يطعم ولا يطعم، ويعين ولا يعان، ويجير ولا يجار عليه.

فائدة ثالثة: قولهم: إنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون إليه شيء. . .، إلى آخره. يقصدون بذلك أنهم يخافون أن يموت أبو طالب فيفضي بهم بغضهم للإسلام إلى أن يقتلوا النبي ﷺ أو يحبسوه، أو ينفوه، فتعيّرهم قبائلُ العرب بأنهم تركوا شيخهم ورئيسهم أبا طالب إلى أن مات واعتدوا على ابن أخيه، ولم يحفظوا حرمته. وقد فعلوا ما كانوا يتخوَّفون منه حين عزموا على قتل النبي ﷺ، قبيل الهجرة»(٢)، وبذلوا كل جهد في ذلك، فأنقذه الله منهم.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٧١ ـ ٧٦) بتصرف.

(٢) يشير إلى حادثة مبيت علي بن أبي طالب في فراش رسول الله ﷺ، إذ عزم الكفار على =

فائدة رابعة: قولهم «فمره أن يكف عن شتم آلهتنا»: ما هو شتم النبي ﷺ لآلهتهم؟ هو قوله: **اتركوا هذه الإلهٰة، فإنها لا تنفع ولا تضر، واعبدوا الله وحده الذي بيده الخير**، فعدّوا هذا شتماً، وهكذا المشركون في هذا الزمان، إذا قلت لهم: إن أولياءكم الذين اتخذتموهم من دون الله، لا ينفعون ولا يضرون، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا حياة، ولا موتاً، ولا بعثاً، فكيف يقدرون أن ينفعوكم، غضبوا وثاروا، وقالوا: هذا يسب أولياءنا، ويتنقصهم وينكر كرامتهم، وتصرفهم في الكون، ويحاربون ذلك الداعي إلى الله بكل ما يقدرون عليه. وقبل أيام قليلة كان أحد الإخوان الموحدين، واقفاً أمام دكان فقال صاحب الدكان: يا مولاي إدريس، فقال له الموحد: قل يا الله، فإن المخلوق لا ينفع ولا يضر، فاستمع صاحب الدكان لقول الحق واعترف به.

وكان هناك سادن يعيش على النذور التي تقدم للأوثان، فغضب على الموحد غضباً شديداً، وقال: كيف تسب مولاي إدريس؟ فقال: أنا ما سببته، ولكن أنكرت الاستغاثة به، وأخذ يصيح لتجتمع الناس، ظانّاً أنهم إذا اجتمعوا سينصرونه، فاجتمعوا ولكنهم لم ينصروه بل نصروا الموحد على السادن. ومدينة مكناس هذه كانت قبل خمس عشرة سنة، هي مركز الشرك والبدع، ولكن الله الكريم بارك في دعوتي التي بدأتها وحدي، فاستجاب إليها كثير من الناس، فأينما ذهبت في أنحاء المدينة تجد أنصار التوحيد، إخوان من وحد الله، ولا تزال دعوة التوحيد تنتشر وتنتصر يوماً بعد يوم، اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، فلك الحمد ولك الشكر. اهـ.

فائدة خامسة: قول النبي ﷺ لمشيخة قريش[1]: **«أفلا أدعوهم إلى ما هو**

= قتله، وهي حادثة مشهورة، أخرجها أحمد في «مسنده» (١/ ٣٤٨ و٢/ ٢٧٩ ـ «الفتح الرباني»)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤)، وابن جرير في «التاريخ» (٢/ ٣٧٢، ٣٧٣)، وأبو نعيم في «الدلائل» (ص٦٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٨٩)، والطبراني كما في «المجمع» (٦/ ٥٢ ـ ٥٣)، والبزار في «المسند» (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠/ رقم ١٧٤١ ـ «زوائده»)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه؛ كما في «فتح القدير» (٢/ ٣٠٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٧٣) بأسانيد وألفاظ مختلفة، فيها القصة المذكورة.

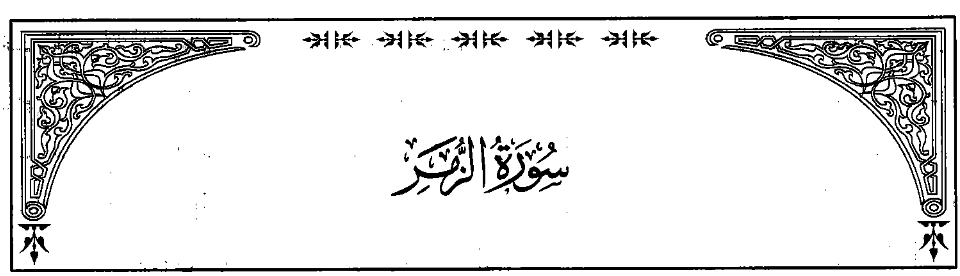
وحسن بعضَ طرقها ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٣٦)، وابن كثير في «السيرة» (٢/ ٢٣٩).

(١) في القصة المتقدمة قريباً، وهناك تخريجها.

خير لهم؟ أدعوهم إلى كلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم، قال: **وهي: أن تقولوا لا إله إلا الله»**، ولم يقصد النبي ﷺ مجرد التلفظ بها، انظر: (الباب الثاني) من (سورة الصافات)، بل أراد منهم، أن يقولوا بألسنتهم، ويعتقدوا معناها بقلوبهم، ويعملوا بها بكل جوارحهم، وهذه الكلمة المباركة: لا إله إلا الله تحقق بها ما قاله رسول الله ﷺ، فدانت العرب لقريش، وملكوا بها العجم. وسرها لا يزال فيها كما كان، فكل من أخذها بصدق في كل زمان ومكان ملك العالم، وهؤلاء العرب الذين يتخبطون في محنتهم الحاضرة، ويبحثون عن حل لمشكلتهم وغسل العار عنهم، دواؤهم حاضر في غاية السهولة، وهو في أيديهم، ولا يحتاجون أن يسافروا إلى (موسكو) ولا (بكين) ولا (واشنطن) ولا (باريس) ولا (لندن) وإنما يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ ويعتقدون معناهما، ويعملون بمقتضاهما، فيملكون العالم مرة أخرى، وبدون هذا الحل الذي هو بلسم الشفاء الوحيد، سيبقون يئنّون من مرضهم العضال إلى الأبد. وما أحسن ما قال الشاعر، وهو منطبق عليهم أتم انطباق:

ومن العجائب والعجائبُ جَمَّة ... قُربُ الحبيبِ ومَا إليه سبيلُ
كالعيسِ في البيداءِ يقْتُلها الظَّمَا ... والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ[1]

(١) انظر تخميساً جيداً له في: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (٣/١٣٠٨).



الباب الأول

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ١ ـ ٣]

قال (ك): «يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب، وهو: القرآن العظيم، من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢] وقال: جل وعلا هٰهنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجناب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ أي: فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده][1]، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، ثم أخبر ﷻ عن عبّاد الأصنام من المشركين، أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم؛ أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور[(١)] الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له، كافرين به، قال زيد بن أسلم وغيره: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة[(٢)]، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»[(٣)]، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها، والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا الشيء[(٤)] اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وأخبر أن الملائكة الذين[(٥)] في السموات من الملائكة المقربين، وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تعالى الله عن ذلك [علوّاً كبيراً][(٦)]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[(٧)] يوم القيامة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كافر[(٨)] بآياته وحججه[(٩)] وبراهينه»[(١٠)].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمر».

(٢) أخرج مقولة زيد: ابن جرير (٢٠/ ١٥٨)، وانظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤١٥)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٦٣٢ ـ ٦٣٣، ط. هجر).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شيء».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التي».

(٦) سقطت من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كفّار».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يجحد بآياته».

(١٠) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١١ ـ ١١٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لم يكن عند المشركين من العرب شك في أن الله هو الخالق والرازق المحيي المميت، المعطي المانع الخافض الرافع المتصرف في السموات والأرض، وهذا توحيد الربوبية، وإنما كانوا يشركون بالله في توحيد الألوهية؛ باتخاذهم وسائط شفعاء تقربهم إلى الله، وتقضي حاجاتهم عند الله، فأخبرهم الله تعالى أن ذلك العمل الذي يعملونه لأولئك الشفعاء، من ذبح ونذر ودعاء واستغاثة وخوف ورجاء، وهو كذب وكفر شديد، يستوجب ضلالهم وخسرانهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، وإنما ينال ما عند الله من خيري الدنيا والآخرة، بعبادته وحده لا شريك له، والكفر بكل معبود سواه، والتبرؤ من عبادته، والتوفيق بيد الله. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء، وبأنه[١] مالك الملك، المتصرف فيه، يقلِّب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا يقرّان[٢]، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، وقوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم تنقضي يوم[٣] القيامة ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه وقوله [جلت عظمته][٤]: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنه».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يفترقان»!

(٣) في بعض نسخ «تفسير ابن كثير»: «بيوم» ولعلها أصوب، فتأمل.

(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم، وألوانكم من نفس واحدة هو آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليها[(١)] السلام، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: وخلق لكم من ظهور[(٢)] الأنعام ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، وهي المذكورة في سورة الأنعام ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ... وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾، وقوله ﷻ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي: قدَّركم في بطون أمهاتكم، ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾[(٣)] يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً، وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ يعني: [في][(٤)] ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن، كذا قال ابن عباس[(٥)] وغيره. وقوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ[(٦)]﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده [لا شريك له][(٧)] ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره، أين يُذهَب بعقولكم»[(٨)].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآية بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قد يقول متفلسف معتوه: كيف

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهما».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وبدلها بياض في الأصل!

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».

(٥) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٤٨) بسندٍ ضعيف، وبنحوه ثابت عن عكرمة، كما في «تفسير الثوري» (ص٢٦٢)، وابن جرير (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦)، ومجاهد في «تفسيره» (٥٧٧)، والسدي الكبير، كما في «تفسيره» (٤١٦ ـ جمع عطا محمد يوسف) وقتادة، كما عند عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٧١)، وانظر: «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٢).

(٦) في الأصل: «إلا الله»، والمثبت ما في القرآن الكريم.

(٧) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١٣ ـ ١١٤).

يكون أجناس بني آدم مع اختلاف ألوانهم وملامحهم وصور خلقهم المتباينة؟ فكلهم من رجل واحد، وامرأة واحدة، هذا أمر يستبعده العقل، فنقول له: على رسلك! إنك لم تؤت من العلم إلا قليلاً، أو لم تؤت شيئاً، فأنت مثل الفرخ الذي فقست عنه البيضة، ففتح عينيه فلم ير إلا العُشَّ الذي هو فيه، وهو مصنوع من ليف، فاعتقد أنه لا يوجد في الدنيا إلا هو وأمه والعش، ثم فتح عينيه أكثر فرأى أوراق الشجرة التي فيها العش، فاطلع على شيء آخر لم يكن يعرفه، وهو أوراق الشجرة، ولما صار له جناحان، وطار في السماء ورأى الشمس والقمر والنجوم والبحر والبر والحيوان والإنسان والجبال، وغير ذلك تبين له أنه كان على جهل عظيم عندما فتح عينيه لأول مرة. وليعلم أن الله سبحانه وتعالى أظهر في هذا الزمان آية عظيمة تدل على وحدة الإنسان، وأن أجناسه ترجع إلى أصل واحد، وذلك أن العلماء وجدوا أن دماء البشر تنقسم إلى فصائل فإذا احتاج إنكليزي مثلاً بسبب نزيف دموي وكان معه جماعة من أبناء جنسه وجماعة من الزنوج السود، وجماعة من الصينيين الصفر، وجماعة من سكان أمريكا الأصليين الحمر، وجماعة من أهل الهند السمر، فإن الدم الذي يناسب فصيلة دمه، ويمكن تعويض جسمه لما خسره منه، قد يكون في جسم زنجي أو صيني، أو غيرهما، ولا يوجد في أبناء جنسه الإنكليز، فهذه الفصائل الدموية لا تعرف لوناً ولا جنساً، وهي متفرقة في جميع بني آدم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقُلْ لِمَنْ يدَّعي بالعلمِ معرفةً ... علمتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ[1]

الباب الثالث

قوله تعالى ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨]

قال (ك): «﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: عند الحاجة [يتضرع][2] ويستغيث بالله وحده لا شريك له، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا

---

(١) البيت لأبي نواس، وهو في «ديوانه»، وفيه: «في العلم فلسفة»، و«حفظت» بدل «علمتَ».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يضرع».

كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾: أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال جل جلاله، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: في حالة العافية يشرك بالله ويجعل أنداداً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حالته[1] وطريقته ومسلكه، ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، وهو[2] تهديد ووعيد أكيد، كقول تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]»[3].

فصل: فائدة

قال محمد تقي الدين: تقدم في مواضع أن شرك المشركين في هذا الزمان، أغلظ بكثير من شرك المشركين في زمان النبي[4] ﷺ، مع أن أولئك لم يكن عندهم كتاب منزل محفوظ، ولا سنة نبي مدونة، وإنما كان عندهم بقية قليلة من دين إبراهيم وإسماعيل، وهؤلاء عندهم كتاب الله مصون في المصاحف محفوظ في الصدور، مبين بالتفاسير، وعندهم سنة النبي سيد المرسلين مدونة مبينة، ومع ذلك بلغوا إلى هذا الدرك الأسفل من الشرك، ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم، واستعاضوا عنها أساطير المتأخرين، فنحمد الله على العافية.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حالُه». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١٥).

(٤) سبق نقلنا ذلك عن المنفلوطي، انظر التعليق على (٦٧).

يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٨]

قال (ك): «وقوله: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ﴾ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ قال السدي: يعني من أمته ﷺ».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد، وأنت رسول الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا شرط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبرؤ منهم، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة، وقد ذهبوا[1] إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: هذا هو ﴿ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[2] الظاهر الواضح، ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وقوله: جل جلاله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، ليزجروا عن المحارم والمآثم، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي».

قال (ك): «﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ فهؤلاء هم الذين ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، ثم قال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تبارك وتعالى لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين آتاه التوراة ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الخسار البين».

هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ذوو العقول الصحيحة والفطر السليمة[1]»[2].

فصل: فائدة:

قال محمد تقي الدين: الموحِّدون الله تعالى المتبعون لرسل الله في كل زمان ومكان ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٤]، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم الذين هداهم الله، وهم أصحاب العقول الصحيحة، ومن خالف طريقهم، فلا بشرى له ولا هدى ولا عقل، نسأل الله أن يجعلنا من الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله.اهـ.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٤ ـ ٢٩]

قال صاحب «جامع البيان»[3]: «﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، شدته يوم القيامة، ظرف ليتقي، وخبره محذوف، أي: كمن يأتي آمناً يوم القيامة، والإنسان إذا لقي مخوفاً استقبله بيده، يقي بها وجهه، الذي هو أعز أعضائه، والكافر المغلول لا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه».

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المستقيمة».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١٨ ـ ١١٩).

(٣) صاحبه معين الدين الصفدي محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله الحسيني (٨٣٢ ـ ٩٠٥هـ)، طبع في الهند مطبعة فاروقي سنة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، عن دار نشر الكتب الإسلامية، بتحقيق منير أحمد، انظر: «معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية» (ص٤٨ ـ ٤٩)، ثم نشر عن دار الكتب العلمية، والمزبور فيه (٣/ ٥٠١).

قال (ك): «ويقرِّع فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وقوله جلت عظمته: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾؛ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من العذاب والنكال، وتشفّي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾».

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فإن المثل يقرِّب المعنى إلى الأذهان[1] ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، ولا لبس؛ بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك[2] وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون[3] بما فيه من الوعد، ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، أي: سالماً[4] لرجل، [أي: خالصاً][5] لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس وغيره: «هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص»[6]. ولما كان هذا المثل ظاهراً بيّناً جليّاً قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلماذا يشركون بالله؟»[7].

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ويعلمون».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خالصاً».

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢٠/١٩٨)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٩٢ - ٢٢٩٣)، وينظر: «الدر المنثور» (٥/١٤٩).

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٢٦). ولابن القيم في «المدارج» (١/ ٢٤٠)، وفي «مفتاح =

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ معناه: يلقى سوء العذاب بوجهه لا يستطيع أن يتقيه بيديه، لأن يديه مغلولتان إلى عنقه، وهو في هذه الحال؛ يوبَّخ فيقال له ولأمثاله من المشركين: ﴿ذُوقُواْ﴾جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشرك بالله، والاعتداء على خلق الله، كيف يستوي من هذه حاله مع من يجيء آمناً قد بشر برضوان الله تعالى وكرامته؟ وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ إلى آخره، كل أمة قامت عليها حجة الله بإرسال رسول ونزول كتاب فنبذت كتاب الله وراء ظهورها، وعصت رسوله، يذيقها الله الخزي في الحياة الدنيا، وما أعد الله لها من العذاب في الآخرة أعظم مما يصيبها في الدنيا.

فائدة ثانية: ما أبلغ هذا المثل الذي ضرب الله للمشركين والموحدين، فالمشركون في هذا الزمان يعبدون كل من يسمى وليّاً في اصطلاحهم، وعلامته أن تبنى عليه قبة ويقصده المشركون لقضاء حاجاتهم، ويتزلّفون له بالذبح والنذر والتمسح بتابوت قبره، والخضوع له والاستغاثة به، والشكوى إليه، وهؤلاء الأولياء مبثوثون في كل مكان، والمشرك يخافهم ويرجوهم، ويكون قلبه موزعاً بينهم يحاول أن يرضيهم جميعاً ويخاف غضبهم، وذلك عذاب مُعجَّل. أما الموحد فإنه لا يعبأ بوجودهم، فهو آمن مطمئن أنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يملكون مثقال ذرة، فيكون خوفه ورجاؤه كله لله، قائلاً: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ

= دار السعادة» (ص٤١٠)، وفي «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ و٣١٩ ـ ٣٢٠) كلام واسع مهم على المثل المذكور، فلينظر.

﴿بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وقرأ بعضهم[1]: (عباده)، يعني أنه تعالى يكفي من عَبَده وتوكل عليه، وقال الترمذي بسنده وصححه عن فَضَالة بن عبيد الأنصاري، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «**أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به**»[2]. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ يعني: المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بآلهتهم[3] التي يدعونها[4] من دون الله جهلاً منهم، وضلالاً، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: منيع الجناب لا يضام من استند إلى جنابه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به، وأشرك وعاند رسوله ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ يعني: المشركين، كانوا يعترفون بأن الله ﷻ هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره مما[5] لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

---

(١) هذه قراءة أبي جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة وخلف والأعمش وحمزة والكسائي والسلمي وشيبة. انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤٢٩)، «حجة القراءات» (٦٢٢)، «السبعة» (٥٦٢)، «تفسير الكشاف» (٣/ ٣٣)، «تفسير ابن عطية» (١٢/ ٥٣٩)، «الدر المصون» (٦/ ١٦)، «تفسير الآلوسي» (٢٤/ ٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٩)، وابن حبان (٢٥٤١)، وابن المبارك في الزهد (٥٥٣)، والحاكم (٤/ ١٢٢) **وصححه**، وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٠٦) عن تصحيح الحاكم وموافقة الذهبي له: «وهو كما قالا».
وأخرج مسلم (١٠٥٣)، والترمذي (٢٣٤٨)، وأحمد (٢/ ١٦٨)، والفسوي (٢/ ٥٢٣)، والبيهقي (٤/ ١٩٦)، وأبو نعيم (٦/ ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو رفعه: «**قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً [فصبر عليه]، وقنّعه الله بما آتاه**». وورد في الكفاف ومعناه أحاديث كثيرة، ذكرتُ طرفاً منها في تعليقي على «السر المكتوم في الفرق بين المالين المحمود والمذموم» للسخاوي (ص١١٩ ـ ١٢١).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بأصنامهم وآلهتهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعبدونها».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ممن».

﴿مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر»[١].

وقال صاحب «جامع البيان»: «وهذا بيان أنها لا تنفع ولا تضر، فلا خوف منها.

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾:

قال (ك): «أي: الله كافيَّ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، كما قال هود عليه الصلاة والسلام حين قال له[٢] قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦] وقال ابن أبي حاتم بسنده[٣] عن ابن عباس رضي الله عنه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: قال: «**من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم على الله فليتق الله عز وجل**»»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كل من آمن بأن الله كافٍ عباده وأنه لا شريك له ولا معين له، لا بدّ أن يكتفي به، ولا يسأل غيره شيئاً مما لا يقدر عليه إلا الله، كإنزال المطر، وهداية القلوب، وإعطاء المرأة العقيم أولاداً، وتوسيع الرزق، وشفاء المرضى، إلى غير ذلك، ومن عادة المشركين في كل زمان ومكان، إذا رأوا موحداً لا يؤمن بآلهتهم التي يسمونها أولياء، أن يخوّفوه من انتقام تلك الآلهة فإذا رأوا آلهتهم عجزت أن تصيبه بضر عمدوا إلى إعانتها فآذوه، ولكن الله ينصره عليهم، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. اهـ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٣١).

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل!

(٣) هو قطعة من حديث، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٥٢)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٦٧٥)، **وإسناده ضعيف جدّاً**، فيه هشام بن زياد أبو المقدام متروك.
وأخرجه مختصراً (طرفاً منه) دون موطن الشاهد: أبو داود (٦٩٤) وطرفاً آخر برقم (١٤٨٥)، وبعضه عند ابن ماجه (٩٥٩، ١١٨١، ٣٨٦٦)، وأعله أبو داود، وضعفه الخطابي، وانظر: «عون المعبود» (٢/ ٣٨٧)، و«النكت الظراف» لابن حجر.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٣٢).



الباب السابع

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٦]

قال (ك): «يقول تعالى: ذامّاً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم: الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حَدَاهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير» قال: «﴿قُلۡ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلّاً بعمله، ثم قال تعالى: ذامّاً للمشركين أيضاً، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ أي: إذا قيل: لا إله إلا الله، ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، قال مجاهد: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ انقبضت[1]، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من الأنداد والأصنام[2] قاله مجاهد[3] ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويسرون، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/٢١٩)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٢/٦٦٨، ط. هجر) وهو في «تفسير مجاهد» (٥٧٩).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٣) وغيره، انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/١٧٤)، و«تفسير ابن جرير» (٢٠/٢١٨)، و«الدر المنثور» (١٢/٦٧٠، ط. هجر).

الشرك، ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السر والعلانية، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم ستفصل بينهم ويوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم، قال مسلم في «صحيحه»: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة ﵂: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يَفتَحُ صلاته إذا قام من الليل؟ قالت ﵂: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: **«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»**[(١)].

وقال الإمام أحمد بسنده، عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: إن رسول الله ﷺ قال: **«من قال: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرِّ، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. إلا قال الله ﷻ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة»**[(٢)].

وقال الإمام أحمد بسنده[(٣)]: إن عبد الله بن عمرو أخرج قرطاساً، وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا نقول: **«اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشِرْكه[(٤)]، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثماً، أو أجرَّه إلى مسلم»**.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤١٢) بسندٍ رجاله ثقات، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٧٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٧١)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٣٨)، والترمذي (٣٥٢٩)، **والحديث صحيح لغيره بشواهده**، ففي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة.

(٤) روي على وجهين: أظهرهما وأشهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء من (الإشراك)، =

قال أبو عبد الرحمن[1] ﷺ: كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو ﷺ أن يقول ذلك حين يريد أن ينام»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قول الحافظ (ك) في الأصنام: «بل وليس لها عقل تعقل به؛ ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير».

إذا سئل عباد الأصنام والأوثان: لماذا تعبدون الأصنام وهي تماثيل صنعتموها بأيديكم؟ وإذا سئل عباد الأوثان: لماذا تعبدون هذه القبور وهذه التوابيت والقباب وقد بنيتموها بأيديكم فأنتم صنَّاعها فكيف يعبد الصانع صنعته؟ يقولون كلهم: نحن نعلم أنها جماد لا تضر ولا تنفع بذاتها، ولكنَّ من نسبت إليهم وسميت بأسمائهم ينفعون ويضرون، هكذا يقول المتأخرون من المشركين، فيعترفون على أنفسهم بالشرك في الربوبية والعبادة معاً، أما المشركون الأولون فإنهم يقولون: نحن نعترف بأن الأصنام والأوثان لا تضر ولا تنفع، ومن نسبت إليهم لا يضرون ولا ينفعون، سواء أكانوا من الملائكة أم الأنبياء؛ أم من الصالحين، أم من الشياطين، ولكن إذا عبدناها تكون تكريماً وتشريفاً لمن نسبت إليهم، وسميت بأسمائهم، وهم يشفعون لنا عند الله، وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة وأخبر أنه هو وحده يملك الشفاعة ويهبها من شاء من عباده، ولكنه لا يهبها من عبد غير الله، أو رضي بعبادة غير الله.

فائدة ثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...﴾ إلى آخره، ينطبق كل الانطباق على المشركين في هذا الزمان، لأنك إذا قلت لأحدهم: لا تستمد من شيخك، فإن الممد هو الله وحده، بالأرزاق الحسية والمعنوية، ولا تستغث بشيخك ولا غيره، بل ادع الله

= أي: ما يدعو إليه. ويوسوس به من الإشراك بالله تعالى. والثاني: شَرَكه، بفتح الشين والراء، أي: حبائله ومصايده، واحدها: شركة، بفتح الشين والراء، وآخرها هاء، قاله النووي في «الأذكار» (٢٢١).

(١) أبو عبد الرحمٰن هذا ليس بصحابي، وإنما هو الحُبُلِّي تابعي الحديث.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٣٤ ـ ١٣٦).

مخلصاً له الدين، تشمئز نفسه، وأكثرهم يغضب غضباً شديداً، فيؤذي من قال له ذلك بالقول، وربما آذاه بالفعل.

فائدة ثالثة: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ إلى آخره، فسره النبي ﷺ أحسن تفسير، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى حفظ تلك الأدعية المحمدية، والابتهال إلى الله تعالى بها.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٢ ـ ٦٦]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله ﷻ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ قال بعضهم هي: المفاتيح، وقال بعضهم: خزائن السموات والأرض، و[المعنى][(١)] على كلا القولين: إن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى. ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: حججه وبراهينه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ذكروا في سبب نزولها: ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه أن المشركين من جهلهم[(٢)] دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه؛ فنزلت: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[(٣)]. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقوله ﷻ:

---

(١) غير موجود في الأصل! وأثبته من «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بجهلهم».

(٣) عزاه السيوطي بنحوه إلى ابن مردويه.

وأخرجه بنحوه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ١٤) من مرسل الحسن، **وإسناده ضعيف**، =

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ أي: أخلص العبادة لله وحده لا شريك له، أنت ومن اتبعك[1] وصدقك». اهـ[2].

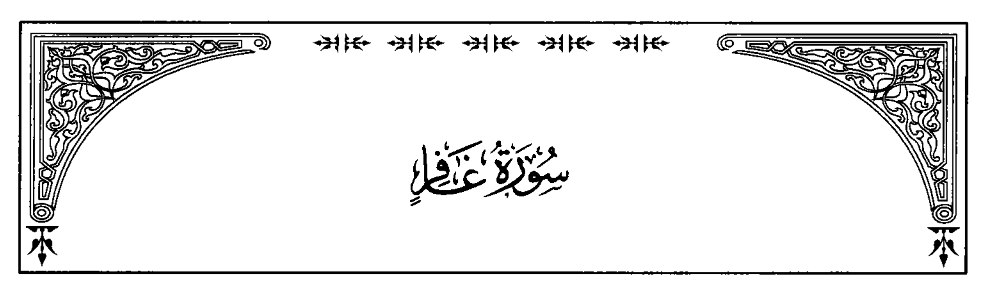
فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: هذه الآيات جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، دلت على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ ...﴾ إلى آخره، دلت على توحيد العبادة، وقد وجه الخطاب للنبي ﷺ مع أنه معصوم من كل ذنب تعظيماً للأمر وتحذيراً للأمة من الشرك بالله الذي هو الذنب الأكبر، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ فيه تقديم المعمول الذي يفيد الحصر، فهو كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠﴾ [الجن: ٢٠] إلى غير ذلك من الآيات. اهـ.

= فيه عنعنة المبارك بن فضالة، وأحمد بن عبد الجبار ضعيف.

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنت ومن معك».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٤٦ ـ ١٤٧) بتصرف.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٠ ـ ١٤]

قال محمد تقي الدين: لم أجد تفسيراً يطابق ما أريده من السهولة على القراء والمستمعين، فسأفسر هذه الآيات الخمس بنفسي.

يقول تعالى مخبراً عن أحوال الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة، ويقال لهم: إن بغض الله لكم حين دعيتم إلى الإيمان بالله وحده واتباع رسله أكبر من بغضكم لأنفسكم الآن وأنتم تذوقون العذاب، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: إماتتين ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إحياءتين، فالإماتة الأولى حين كانوا نطفاً قبل أن ينفخ فيهم الروح، والإماتة الثانية عند انقضاء آجالهم، والإحياءة الأولى عندما ينفخ الملك الروح في أجسادهم، وهم أجنة في بطون أمهاتهم، والإحياءة الثانية عند البعث من القبور، وقد كانوا ينكرون الإحياءة الثانية، فاعترفوا بها بعدما دخلوا جهنم، وقالوا: قد اعترفنا اليوم بما أنكرناه من قبل، فهل إلى الخروج من النار سبيل؟ فيكون الجواب: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب أنكم كنتم في الدنيا ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ منفرداً بالربوبية والعبادة ونفي عنه الشريك ﴿كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ غيره ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾، ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ وقد حكم عليكم بالخلود في النار.

قال (ك): «وقوله جل وعلا ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزرع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو: ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، أي: من هو يصير منيباً[1] إلى الله تبارك وتعالى، وقوله ﷻ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، وروى مسلم وغيره عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ، يقول في دبر كل صلاة: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»**[2]. وقال ابن أبي حاتم بسنده[3] عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ»»**[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ما أحسن ما قال الإمام (ك) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ فإن المطر الذي ينزل من السماء سبب والأرض الطيبة شرط، والزرع وتنظيف الأرض مما يضر المزروعات شرط أيضاً، وزوال الموانع التي تمنع بلوغ الثمرة إلى الينع والزرع إلى إدراك الحب شرط آخر، ومع ذلك لا يتم شيء من ذلك إلا بإذن الله تعالى الذي هو خالق كل شيء.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بصير منيب».

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٤)، وأحمد (٤/٤)، وأبو داود (١٥٠٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وابن حبان في «المجروحين» (١/٣٦٨)، والحاكم (١/٤٩٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/٣٥٦) (١٤/٢٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ق١٢٢)، وحسنه شيخنا الألباني.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٧٧ ـ ١٧٨) بتصرف.

وفـــي كُـــلِّ شـــيءٍ لَـــهُ آيـــةٌ تـــدلُّ عَـــلَـــى أنَّـــهُ الـــواحِـــدُ[1]

ولو كان النبات والخضر والفواكه كل ذلك ينمو بطبعه لما وجدت هذه الفروق الكثيرة بين الثمرات والخضر والمقاثي من اختلاف في الحجم والشكل واللون، فسبحان المنعم العظيم، وقد خاب وخسر من كفر به. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ١٨ ـ ٢٠]

﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ﴾ قال قتادة وغيره: وقَفَتِ القلوب في الحناجر من الخوف فلا[2] تخرج ولا تعود إلى أماكنها[3]، ومعنى ﴿كَٰظِمِينَ ۚ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨] وقوله ﷻ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ يخبر ﷻ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه ﷻ يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، قال ابن عباس رضي الله عنه

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في «ديوانه» (ص٧٠)، ونسب له في «الأغاني» (٤/ ٣٥، ط. دار إحياء التراث العربي).

(٢) في الأصل: «لا»، والمثبت من «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٨٠)، وابن جرير (٢٠/ ٣٠١) عن معمر عن قتادة، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٩) إلى عبد بن حميد، وانظر: «المجالسة» (١٥١٤ ـ بتحقيقي).

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾: «هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم[1] المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، وإذا[2] فطنوا غض، وقد اطلع الله على[3] قلبه أنه ودّ أن[4] لو اطلع على فرجها»[5].

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: «قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة»[6]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنه هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾، أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: سميع لأقوال خلقه؛ بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك». اهـ[7].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كل من وحد الله تعالى وطهر قلبه من الشرك وصار مسلماً حنيفاً يعتقد جازماً أن الحكم كله لله، والملك كله لله هو الذي يحكم بين عباده، وهو الذي يجزيهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة، من عمل خيراً جزاه الله خيراً ومن عمل شرّاً جزاه الله شرّاً، ولا يجوز أن يكون الحكم لغيره، فالحلال ما أحله الله سبحانه والحرام ما حرمه، والواجب

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإذا». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».

(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٦٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٢٥٥) رقم (١٧٣٩٦)، وهناد في «الزهد» (٢/ ١٤٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ١٢٨٣) وأعله الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٥) بما لا يقدح في صحته، إذ الضعيف متابع، **والأثر صحيح إن شاء الله تعالى**، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/ ٣١) لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٦) جزء من الأثر السابق، وهذا لفظ الطبراني.

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٨١ ـ ١٨٢) بتصرف.

ما أوجبه؛ والمستحب ما أحبه، والمباح ما أباحه؛ ومن جعل الحكم لغيره في الجزاء أو التشريع فقد اتخذه إلهاً من دون الله، هذا حاصل معنى هذه الآيات.اهـ.

الباب الثالث

وقوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٤١ ـ ٥٢]

قال (ك): «يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي: عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ، الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: على جهل بلا دليل، ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ يقول حقّاً، وقال

السدي: «لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة»[1]، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله ﷻ، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون، حيث لا ينفعكم الندم. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم. تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام ، وأما في الآخرة: فبالجنة، ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة، اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألماً وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وروى البخاري بسنده عن عائشة أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله[2] من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «**نعم عذاب القبر حق**»، قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[3].

وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة**

---

(١) انظر: «تفسير السدي الكبير» (ص٤٢٤) جمع د. محمد عطا يوسف.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أعاذك الله».

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٢، ٦٣٩٦)، ومسلم (٥٨٦، ١٢٥٥)، وأحمد (٦/٤٤، ١٧٤)، وغيرهم.

فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله ﷻ إليه يوم القيامة»»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، قال (ﷺ): «يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم فيقول: ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم القادة والسادة والكبراء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه، في الدنيا من الكفر والضلال، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قسطاً تتحملونه عنا، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي: يقسم(٢) بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ لما علموا أن الله ﷻ لا يستجيب لهم(٣) ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة وهم كالسجّانين(٤) لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أي: أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا(٥): ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾»(٦).

قال القاسمي: «﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ أي: لننصرهم في الدارين، أما في الدنيا: فبإهلاك عدوهم

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦)، وأحمد (٢/ ١١٣)، والترمذي (١٠٧٢)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٩٢ ـ ١٩٨).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقسم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كالبوّابين».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

واستئصاله عاجلاً، أو بإظفارهم بعدوهم وإظهارهم عليه، وجعل الدولة لهم والعاقبة[١] لأتباعهم، وأما في الآخرة: فبالنعيم الأبدي والحبور السرمدي، و﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ جمع شاهد وهم: من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظلماً، أو جمع شهيد، كأشراف وشريف.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾، قال ابن جرير: «ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارُهم، لأنهم لا يعتذرون، إن اعتذروا إلا بالباطل[٢]، وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا، وتابع عليهم الحجج فيها، فلا حجة لهم في الآخرة إلا في[٣] الاعتصام بالكذب، بأن[٤] يقولوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٥]» ولذا كانت لهم اللعنة، وهي: البُعد من رحمة الله وشر ما[٦] في الدار الآخرة من العذاب الأليم»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: من المعلوم أن دين التوحيد هو دين جميع الأنبياء ومن اتبعهم بإحسان، وقد تقدم أن بني إسرائيل مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقال جهّالهم لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] أي: دين الشرك الذي هم عليه يهلكه الله ويهلك من اتبعه، وتقدم أيضاً في سورة الأعراف: أن أبا واقد الليثي وأصحاباً له كانوا حدثاء عهد بشرك، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال: «**الله أكبر إنها السنن قلتم، والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»[٨]، وههنا مؤمن آل فرعون ينادي في قومه ﴿۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والعافية»! (٢) في «تفسير ابن جرير»: «بباطل».
(٣) غير موجودة في «تفسير ابن جرير». (٤) في «تفسير ابن جرير»: «أن».
(٥) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٠/٣٤٧).
(٦) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «وشرها».
(٧) انظر: «تفسير القاسمي» (١٤/٢٤٠ ـ ٢٤١).
(٨) سبق تخريجه.

ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ فهذه دعوة جميع الرسل ودعوة كل متبع لهم، فأهل الحق ينادون إخوانهم: يا قومنا! اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا الأوثان، لا تذبحوا لها ولا تنذروا لها ولا تقيموا حولها مواسم وأعياداً، أو تتخذوها آلهة من دون الله، إننا لكم من الناصحين، ونبرأ إلى الله مما أنتم عليه.

فائدة ثانية: معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً؛ يعني: إن الحق هو أن ما تدعونني إليه ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤]، فكل من دعا غير الله لجلب خير أو دفع شر فهو من الكافرين ـ بنص القرآن ـ ودعاؤه في ضلال.

فائدة ثالثة: قول الحافظ (ك) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: «أتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم» فمن وحد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته واتبع رسوله ﷺ لكنه لا يتبرأ من المشركين ولا يقاطعهم ولا يباعدهم[١] بل يتولاهم ويرغب في صحبتهم ولا ينكر عليهم شركهم يكون غير عامل بقوله تعالى حكاية عن إمام الموحّدين إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠]. فيجب على كل موحد مخلص دينه لله أن يعتزل المشركين، وحينئذٍ يهب الله له خيراً كثيراً ويرى ما يسرّه في أبنائه وأحفاده، فإن يعقوب، ابنُ إسحاق وإسحاق، ابن إبراهيم[٢]، ويهب الله له شيئاً كثيراً من رحمته ويجعل له لسان صدق عند المؤمنين من أهل زمانه ومن بعدهم[٣]، وسيأتي إن شاء الله زيادة على هذا في (سورة المجادلة) وفي (سورة الممتحنة).

---

(١) فكيف بمن يعيش في ديارهم، ويتطبع بطباعهم، ويدور في مجتمعهم كما يدور السن في الدولاب؟ فهذا الذي يخشى عليه من تهديد ووعيد الرسول ﷺ الثابت عنه: **«من أقام بين ظهراني المشركين، فقد برئت منه الذمة»**.

(٢) أي أكرم الله إبراهيم بإسحاق وأكرم إسحاق بيعقوب وأكرم يعقوب بيوسف. (منه).

(٣) تذكر أخي القارئ أن المصنف قد عاش مدة في ديار الكفر، وزار غير ما بلدة منها، مثل: ألمانيا، بريطانيا، إسبانيا، بلجيكا، هولاندا، النرويج، سويسرا، فهو يقرر المزبور آنفاً عن بصيرة ومشاهدة وخبرة وتجربة.

فائدة رابعة: كل من دعا إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له لا بدّ أن يكونَ يتعرض لمكر أعداء التوحيد، ولكن الله وعده بالوقاية من مكرهم وبالنصر عليهم، ووعد أعداء التوحيد بسوء العذاب.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٤ ـ ٦٦]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها لكم مستقرّاً بساطاً مهاداً، تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب في الدنيا، فيذكر[١] أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرازق، وقال تعالى [هاهنا][٢] بعد خلق هذه الأشياء ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، قال ابن جرير بسنده[٣] عن ابن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فذكر».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٣) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٠/٣٥٧ ـ ٣٥٨)، والحاكم (٢/٤٣٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩٤)، وإسناده صحيح، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» =

عباس قال: «من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾»، [وقال أبو أسامة وغيره عن إسماعيل بن أبي خالد عن سعيد بن جبير قال: إذا قرأت ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾][1] فقل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، ثم قرأ هذه الآية ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[2].

وقوله: ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٦﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ﷻ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيَّن تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو كقوله تعالى في سورة البقرة لإمام الحنفاء إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: ١٣١] فمعناها: أمرني ربي أن أوحِّده، وأن أسلم نفسي إليه، فلا أوجه وجهي إلا له، ولا أدعوا بلساني ولا بقلبي غيره. اهـ.

فائدة

قال محمد تقي الدين: هذه الآيات التي ذكرتها هنا اشتملت على توحيد الربوبية من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ ثم جاءت الدلالة على توحيد العبادة في قوله تعالى: ﴿لَآ

= (١٣/ ٧٣) لابن المنذر وابن مردويه.

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٠/ ٣٥٨)، وعزاه السيوطي في «الدر» (١٣/ ٧٣) لعبد بن حميد.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) بتصرف.

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...﴾ إلى آخره، وبعد ذلك تجيء آيات توحيد الربوبية مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآيات.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

[غافر: ٧٣ ـ ٧٦]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله، هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، أي: ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾، أي: جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣] ولهذا قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾، أي: فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه [والله أعلم]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «أين الأصنام...؟» يحتاج إلى بيان، فإن المشركين ما كانوا يعبدون الأصنام وحدها، بل كانوا يعبدون ثلاثة أنواع من الشركاء:

النوع الأول: جماد منسوب إلى الملائكة أو الأنبياء والصالحين، ولهذا عبدوه.

النوع الثاني: عاقل لا يعقل وهو كل معبود رضي بعبادته أو بعبادة غيره من المخلوقين.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢١٠).

الصنف الثالث: وهو الملائكة والأنبياء والصالحون يعقلون ولا يرضون أن يعبد مع الله أحد ويتبرؤون من المشركين ويكفرون يوم القيامة بشركهم.

فالصنف الأول والثاني مع عابديهم إلى جهنم، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

أما **الصنف الثالث**: فإنهم متبرئون من كل من عبدهم ويكونون عليهم ضدّاً ويكفرون بعبادتهم، فحينئذٍ تصيب المشركين الحسرة والندامة حين لا ينفع الندم، وهؤلاء الأصناف الثلاثة لا ينفعون عابديهم مثقال ذرة، لا في الدنيا ولا في الآخرة. اهـ.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما [أثاروا][١] في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا ردّ عنهم ذرة من بأس الله، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدامغات[٢]، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أثروه».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الدامغة».

زعمهم عما جاءتهم به الرسل، قال مجاهد: «قالوا: نحن أعلم منه[1] لن نبعث ولن نعذَّب»[2]، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا الله ﷻ وكفروا بالطاغوت. ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعذرة، وهي[3] كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١] أي: فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه حين قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. [وهكذا قال تعالى ههنا][4]: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه [لا تقبل توبته][5]، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[6] أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[7].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: يولد الإنسان جاهلاً عاجزاً فقيراً، ثم يعطيه الله سبحانه العلم والمال والأولاد والجاه.

والعلم قسمان: وكذلك المال والأولاد والجاه؛ فالعلم الذي يوصل صاحبه إلى الإيمان بالله ورسله وطاعة الله وطاعة رسله والعمل الصالح والأخلاق

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «منهم»!

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٣٧٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨)، وهو في «تفسير مجاهد» (٥٨٤).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهاهنا قال». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يقبل».

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» (٣٥٢٩)، وابن حبان (٦٢٨)، وابن عدي (٤/ ١٥٩٢)، والحاكم (٤/ ٢٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٤)، والبغوي (٣٠٦)، وأبو نعيم (٥/ ١٩٠) من حديث ابن عمر، **وإسناده حسن**.

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

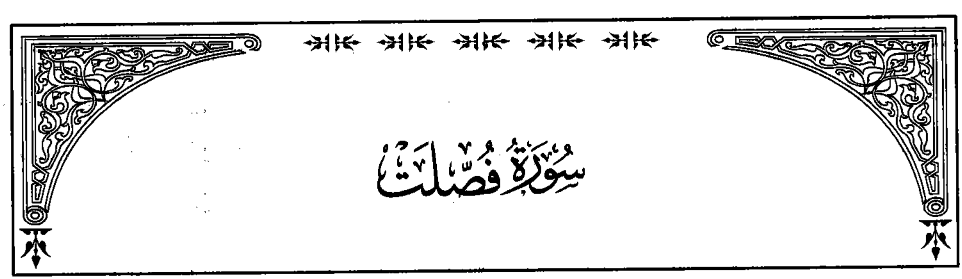
الحسنة، هو علم نافع يوصل إلى السعادة في العاجل والآجل، والعلم الذي يدعو صاحبه إلى الكفر بالله وبما جاءت به الرسل ويدعوه إلى الأعمال السيئة ومساوئ الأخلاق كالكبر والاستعلاء على الناس وسوء المعاملة والإعجاب بالنفس؛ والطغيان والظلم وكفر النعم؛ فهذا العلم شر على صاحبه مِن سُقم على بدن والجهل خير منه، فكثير من الناس يفتح له في علوم الدنيا المادية فيغتر بها، ويتطاول ويعرض عن ميراث الأنبياء، وهو العلم النافع فيكون علمه وبالاً عليه، ويكون زاده إلى النار، فقبَّح الله العلم الذي يحول بين صاحبه وبين الإيمان بالله تعالى وما جاءت به الرسل.

كنت في مدينة بن «بجرمانية» ـ ويسمّيها العرب في هذا الزمان جهلاً منهم ألمانية ـ وكنت مدعوّاً للعشاء ومعي شخص آخر عند ممرضة في مستشفى العيون اسمها إلزبث، وزوجها هو الأستاذ أندري، كان أستاذاً بعلم النبات والحيوان في جامعة بن، حتى أحيل على التقاعد وكان عمره في ذلك الوقت يزيد على التسعين، فوقفنا نصلي المغرب والعشاء، فوقف إجلالاً واحتراماً لصلاتنا، بل إجلالاً لله الذي نصلي له مدة الآذان والإقامة وصلاة المغرب والعشاء والوتر ثماني ركعات، وهو ضعيف جدّاً، فلما فرغنا من صلاتنا قال لي باللغة الجرمانية ما معناه: أصابتني هيبة وإجلال لصلاتكما. ثم جلسنا وأخبرني أنه يؤمن بالله وبجميع رسل الله ولم يحضر قط درساً في الدين، وإنما عرف الله تعالى بما رأى من عجيب صنعه في الحيوان، وأيقن أن ذلك الصنع المحكم يدل على صانع عليم قدير كامل لا حد لعلمه، ولا لقدرته، وله الحكمة البالغة في كل ما خلقه وسيره وقدره، ونرى المقلّدين الجهال من أبناء الشعوب المتخلفة يزعمون أن العلم يمنع صاحبه من الإيمان بالله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. انظر كتابي: «الطريق إلى الله»[(١)] المطبوع في بيروت منذ بضع سنين، أرجو من الله تعالى أن ييسر طبع أصله وهو الكتاب الكبير المسمى «دواء الشاكين وقامع المشككين»[(٢)]. اهـ.

---

(١) وهذا الكتاب جزء من كتابي «دواء الشاكين»، وقد طبع كله في الدار البيضاء وهو موجود يباع. طبعه الشهم النبيل الحاج مصطفى بن هاشم الودغيري. (منه).
قال أبو عبيدة: طبع في بيروت عن دار الفتح، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، في (١٩١) صفحة.

(٢) طبع في المغرب، وأصله حلقات عديدة نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، وأودعناها برمتها كتابنا «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره بخير وعافية.



سُورَةُ فُصِّلَتْ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: ٦ ـ ٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾»(١).

قال القاسمي: «أي: لا يزكون أنفسهم بطاعة الله، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها، وهذا ما رجحه (ج) ذهاباً إلى أن ذلك هو الأشهر، لا سيما مع ضميمة الإيتاء، وفيه إشارة إلى أن من أخص صفات الكفار هو(٢) منع الزكاة، ليحذر المؤمنين من ارتكابه، وعن قتادة: «إن الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا، ومن تخلف عنها هلك»(٣). قال (ج)(٤): «وقد كان أهل الردة، بعد نبي الله،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

(٢) من مطبوع «تفسير القاسمي» وسقط في الأصل.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٨٤)، وابن جرير (٢٠/ ٣٨٠) **بسندٍ صحيح** عنه بلفظ: «لا يقرُّون بها، ولا يؤمنون بها، وكان يقال...» وذكره، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٦٠) إلى عبد بن حميد.

(٤) في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٠) وهذا القول عنده من تتمة قول قتادة السابق.

قالوا: أما الصلاة فنصلي وأما الزكاة فوالله لا تُغْصَبُ أموالنا. قال: فقال أبو بكر: والله؛ لا أفرق بين شيئين[١] جمع الله بينهما، والله لو منعوني عقالاً مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه»[٢]. ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ أي[٣]: غير منقطع»[٤]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي يظهر لي أن المراد بالزكاة هنا الصدقة المطلقة، وهي مشروعة من أول الإسلام، قال تعالى في سورة المعارج وهي مكية: ﴿[وَٱلَّذِينَ فِىٓ][٥] أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ[٦] وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩] فقد أثبت الله ﷻ حقاً للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء في هاتين السورتين المكيتين قبل أن يفرض الزكاة، وقال تعالى في سورة الليل وهي مكية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠] وقال تعالى في سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ٩، ١٠] وقال تعالى في سورة الماعون: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧] أي: يمنعون إعارة ما يستعان به من الأواني والأدوات، وقال تعالى في سورة القيامة: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] الآيات.

---

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «شيء».
(٢) قولة أبي بكر: بنحوها عند البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥)، وانظر: «الموافقات» (١/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠ و٥/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨) وتعليقي عليهما.
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «عليهم أو غير منقوص».
(٤) انظر: «تفسير القاسمي» (١٤/ ٢٥٦).
(٥) هكذا في (سورة المعارج)، وفي الأصل: «وفي أموالهم..»!
(٦) كذا في (سورة الذاريات)، وفي الأصل: «... حق معلوم للسائل».

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) ﴾ [فصلت: ٩]

قال (ك): «هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء المقتدر على[1] كل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: الخالق للأشياء، هو رب العالمين كلهم»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من صرف من عبادته لمخلوق شيئاً، فقد اتخذه نداً، وارتكب الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بالتوبة والتوحيد.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾ [فصلت: ١٣ ـ ١٨]

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المقدّر لكل».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٢٠).

نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضية من المكذبين بالمرسلين، ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي[(١)]: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف: ٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرونهم[(٢)] بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو شاء[(٣)] أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: اغتروا[(٤)] بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفلا[(٥)] يتفكرون، فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧] فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته، وعصوا رسله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: متتابعات ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] كقوله: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أي: ابتداؤها[(٦)] بهذا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام [حسوماً][(٧)]، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة. ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ﴾ أي:

---

(١) غير موجود في الأصل، وأثبته من «تفسير ابن كثير».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يأمرون».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مَنّوا». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أفما».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ابتُدِئوا». (٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

أشد خزياً لهم ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: في الأخرى كما لم ينصروا في الدنيا، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال، وقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، قال ابن عباس وغيره: بيَّنَّا لهم[1]. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي[2]: بصرناهم وبيّنا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلًّا وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: من التكذيب والجحود ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: من بين أظهرهم لم يمسسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله ﷻ»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مَن وحَّد الله واتبع الرسول الذي أرسل إليه من الأولين والآخرين لا بدّ أن تكون عاقبته حميدة، ومن أشرك بالله ولم يتبع الرسول الذي أرسل إليه فلا بدّ أن تكون عاقبته سيئة، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣]. اهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٣]

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٤٠٢)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٧٠)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٦٢).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبدلها في الأصل: «و»!

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم، وقال ابن أبي حاتم بسنده، عن سعيد بن نمران[١] قال: قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فقال]: «وهم الذين لم يشركوا بالله شيئاً»[٢]، وروى مسلم بسنده عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «**هذا**»[٣]. وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قال زيد بن أسلم: «يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث»[٤]. قال (ك): «وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدّاً، وهو الواقع.

قوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم[٥] ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس

---

(١) هكذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«الدر المنثور» ومصادر التخريج، وتحرف في الأصل إلى «عمران»!

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (١٣/ ١٠٣) ـ، وابن جرير (٢٠/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)، وعبد الرزاق (٢/ ١٨٧)، وابن وهب (١/ ١٢٠ رقم (٢٧٦) جميعهم في «التفاسير» ومسدد كما ـ في «المطالب» (٤٠٨٦) ـ، وابن سعد في «الطبقات» (٦/ ٨٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢١/ ٣١٣)، وفي «تفسير سفيان» (ص٢٦٦)، وابن المبارك (٣٢٦)، وعزاه السيوطي في «الدر» (١٣/ ١٠٣) للفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر.

وإسناده ضعيف، سعيد بن نمران مجهول، وتابعه الأسود بن هلال عند ابن جرير والحاكم (٢/ ٤٤٠)، وأبي نعيم (١/ ٣٠)، **فصح الأثر**. وعزاه في «الدر» إلى إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد وابن مردويه.

(٣) أخرجه مسلم (٣٢)، وأحمد (٣/ ٤١٣)، والترمذي (٢٤١٠) وغيرهم، وأطلت النَّفَسَ في تخريجه في تعليقي على «المجالسة» (رقم ١٢٨٨، ١٧٢١).

(٤) عزاه في «الدر المنثور» (١٣/ ١٠٧) إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم، وهو ليس في «تفسيره» المطبوع!

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونوفقكم».

منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوزكم[(١)] الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ضيافة وعطاءً وإنعاماً من ﴿غَفُورٍ﴾ لذنوبكم ﴿رَّحِيمٍ﴾ بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف، وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**» قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت! قال ﷺ: «**ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه**»، قال: «**وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر، جاءه بما هو صائر إليه من الشر، أو ما يلقى من الشر فكره لقاءه**»[(٢)]، وهذا حديث صحيح، وقد ورد في «الصحيح» من غير هذا الوجه».

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الآية.

قال (ك): «يقول ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتدٍ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك كما قال السدي وغيره»[(٣)].

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المنقادين إلى توحيد الله وطاعته.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونجاوز بكم».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٧)، والبزار (٧٨٠ ـ «زوائده»)، والمروزي في «زوائده على زهد ابن المبارك» (٩٧١)، **وإسناده صحيح**.
وأصله عند البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) كما قال المصنف.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٣٤ ـ ٢٤٠) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هم الذين حققوا معنى لا إله إلا الله، وعبدوا الله وحده ولم يتخذوا رباً سواه، معنى ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ أي: حققوا معنى محمد رسول الله، فاتبعوا الرسول ﷺ ولم يحيدوا عن سنته مثقال ذرة ولم يبتدعوا في دين الله، ولا حكموا بغير شرع الله، وأحبوا في الله وأبغضوا في دين الله، ووالوا في الله وعادوا في الله، تتنزل الملائكة عند موتهم، ملائكة الرحمة كأنّ عَلَى وجوههم الشمس فتبشرهم وتتولى قبض أرواحهم من ملك الموت فتصعد بها إلى الله تعالى حتى تسمع أن الله قد رضي عنها، كما جاء في الحديث[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: دعا إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وعمل صالحاً، أي: عمل بما يدعو إليه ولم يكن من الذين يقولون ما لا يفعلون، فأنت ترى أن تحقيق الشهادتين ذكر في هذه الآيات مرتين، لأنه هو الأساس العظيم والصراط المستقيم، مَنْ ظفر به سعد في الدنيا والآخرة، ومن حرمه شقي في الدنيا والآخرة. اهـ.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]

قال (ك): «يقول تعالى منبِّهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قدير[2]: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، أي: أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران[3] والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه، وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير[4] الليل والنهار والجمع

(١) سيأتي بتمامه مع تخريجه.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قادر».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقرّان».
(٤) في الأصل: «ومقادير» والصواب حذف الواو.

والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كانت الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لقد أجاد الحافظ (ك) في تفسيره هذه الآية، وحاصل معناها: إن لله آيات تدل على عظمته وعلى أنه إله العالمين، لا يعبد غيره ولا يحكم بشرع غيره، فالموفَّق العاقل يستدل بتلك الآيات التي من أظهرها الليل والنهار والشمس والقمر، ولا يشغله الإعجاب بها عن تعظيم خالقها وتنزيهه وحمده وشكره، والجاهل المغفل هو الذي يشغله الإعجاب بالصنعة وينسى الصانع، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. ولو فكر الذين يعبدون الشمس والقمر والأنبياء والصالحين وتماثيلهم وقبورهم ـ وهي الأصنام والأوثان ـ لو فكروا في خالقهم وصانعهم وقدروه حق قدره، لما عبدوا معه غيره. اهـ.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾ [فصلت: ٤٧، ٤٨]

قال (ك): «وقوله جل وعلا: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال محمد ﷺ ـ وهو سيد البشر ـ لجبريل عليه الصلاة والسلام ـ وهو من سادة[2] الملائكة ـ حين سأله عن الساعة فقال: **«ما المسؤول عنها**

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٤٤).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سادات».

بأعلم من السائل»[1]، وكما قال ﷻ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٤] وقال جلّ جلاله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: الجميع يعلمه، لا يعزب عن علمه من[2] مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الذين عبدتموهم معي ﴿قَالُوٓا ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وَظَنَّ المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم من عذاب الله»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: أجمع أهل السنة والجماعة على أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ومن اعتقد أن أحداً من المخلوقين يعلم الغيب فقد كفر بالقرآن العظيم، وكذب القرآن والرسول ﷺ وقد تقدم ذلك في مواضع كثيرة، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ . . .﴾ إلى آخر الآية تقدم مثله كذلك. ولو كان المشركون في هذا الزمان يؤمنون بالله ورسوله ويعقلون عن الله ورسوله ما اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله، بل أكثر، ويعظمونهم كتعظيم الله بل أكثر، ويهتفون بأسمائهم عند القيام والقعود، وعندما يصيبهم أدنى فزع، فهؤلاء هم الذين يوبّخهم الله تعالى بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فينظرون يميناً وشمالاً فلا يجدون شيئاً، بل يكون أولياؤهم عليهم ضدّاً، ويكفرون بعبادتهم ويتبرؤون منهم، فحينئذٍ يقولون: سبحانك ما منا من شهيد، ولكن ذلك لا ينفعهم ولا مناص لهم من عذاب الله، فالحمد لله الذي هدانا لتوحيده واتباع رسوله محمد ﷺ.

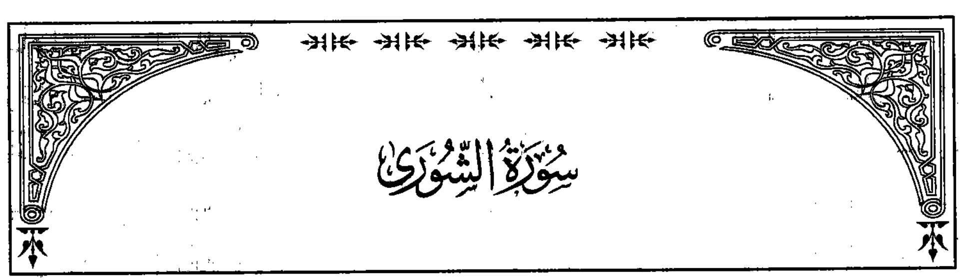
---

(١) أخرجه مسلم في أول «صحيحه» ـ وهو الحديث الأول ـ ضمن حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٤٨).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَالظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ [الشورى: ٦ ـ ٩]

قال (ك): «وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾؛ يعني: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عداً، وسيجزيهم[1] بها أوفر الجزاء، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل». وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ الآية قال (ك): «يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحاً جليّاً بيّناً ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله: ما قال الإمام أحمد وغيره بسنده عن عبد الله بن عَدِي الزُّهري سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف في سوق مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجتُ منك ما خرجت**»[2]. وقوله ﷻ: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة

(١) في الأصل: «وسيجزهم».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥)، وعبد بن حميد (٤٩١)، والدارمي (٢٥١٠)، والترمذي (٣٩٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (٤٢٥٢ ـ ٤٢٥٣)، وابن ماجه (٣٠١٨)، وابن أبي =

يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة، وقوله جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩] أي: يغبن أهل الجنة أهل النار، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلال[١]، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من شاء[٢] إلى الحق؛ وأضل من شاء[٢] عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾».

وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

قال (ك): «يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه هو[٣] الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو[٣] القادر على إحياء الموتى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: تكرر هذا المعنى في الآيات المكية كقوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢] وكقوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ الآية. لأن النبي ﷺ لم يؤمر بقتال المشركين في مكة، وإنما أمر بالتبليغ والصبر على الأذى.

= عاصم في «الآحاد والمثاني» (٦٢١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٢٤٤)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والحاكم (٣/ ٧، ٢٨٠، ٤٣١)، وابن خزيمة ـ كما في «إتحاف المهرة» (٨/ ٢٥٥) ـ، والطبراني في «الأوسط» (٤٥٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٢٨٨، ٢٨٩ و٦/ ٣٢ ـ ٣٣)، و«الاستذكار» (٢٦/ ١٥ ـ ١٦)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٥١٤)، **وإسناده صحيح**، وصححه شيخنا الألباني. وانظر: «العلل» (١/ ٢٨٠، ٢٨٢) لابن أبي حاتم، و«دلائل النبوة» (٢/ ٥١٨) للبيهقي.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الضلالة».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يشاء».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٥٦ ـ ٢٦٠) بتصرف.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: قوله: «فاوت بينهم، فأضل من شاء بعدله وهدى من شاء بفضله» تقدم أن الله لا يضل إلا من سلك سبيل الضلال، ونبذ طريق الهدى، واتبع هواه، أما من طلب الهدى فإن الله يهديه؛ في الحديث القدسي ـ وهو حديث أبي ذر الطويل ـ: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم...**»(١) الحديث، وقد تقدم هذا المعنى بأبسط من هذا.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثالثة: ذكر الله تعالى الأولياء في القرآن في مواضع كثيرة، وذم من اتخذهم ونهى عنهم، والمشركون في هذا الزمان يذكرونهم في كل حين ويعطون لأجلهم ويمنعون لأجلهم، ويحبون لأجلهم ويبغضون لأجلهم، ويسألونهم حاجاتهم استقلالاً، قال شاعرهم:

أولياءَ الإلهِ إنِّي مريضٌ ... والدَّواءُ لديكم والشِّفاءُ
انْظُروا لي بفضْلِكم في عِلاجِي ... وامْنَحُوني بجُودكم ما أشاءُ

وهذه غاية الضلال، فلو قال: يا الله ويا أولياء الله امنحوني ما أشاء، لكان مشركاً كافراً، فكيف وقد أفردهم بالدعاء، وهذه الآية الكريمة تغبر في وجوه المشركين وتنكر عليهم أشد الإنكار، لو كانوا يعقلون.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ نرجو أن يوفقنا الله تعالى ونذكرها في (توحيد الاتباع) من كتاب «سبيل الرشاد»، وكذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾(٢).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٦ ـ ٣٩]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) ولشيخ الإسلام ابن تيمية «جزء مفرد» في (شرحه) وهو مطبوع أكثر من مرة.

(٢) لم يذكر ـ للأسف ـ المصنف ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ . . .﴾؛ بينما ذكر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ . . .﴾، انظر: ما سيأتي (٤/٧٨).

قال (ك): «يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وثواب الله خير من الدنيا وهو باقٍ سرمديٌّ، فلا تقدموا الفاني على الباقي. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذِّ في الحياة[1] الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات، وترك المحرمات»[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قال صاحب «اللسان»[3]: «الفواحش: القبائح، من القول والفعل»، والمراد هنا كبائر الذنوب والإثم. «﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: سجيَّتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس، وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله[4]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أعظم العبادات. قال ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية. ولهذا كان النبي ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم[5] فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم[6]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين[7]، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٨٥).

(٣) نقله المصنف رحمه الله من «لسان العرب» (٦/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ـ فحش) بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٣٥٦٠) من حديث عائشة.

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أجمعين».

(٦) انظر: «المجالسة» رقم (٢٤٠) وتعليقي عليه.

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أذلة».

عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله[١] ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم منّ عليهم[٢]، مع قدرته على الانتقام[٣]، وكذلك عفوه عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ عليه السلام وهو في يده صلتاً، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره، وأمر هذا الرجل، وعفا عنه[٤]، وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه السلام[٥]، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه، وكذلك عفوه عن المرأة اليهودية، وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري؛ التي سمت الذراع يوم خيبر فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت، فقال: «**ما حملك على ذلك؟**» قالت: أردت: إن كنت نبيّاً لم يضرك، وإن لم تكن نبيّاً استرحنا منك، فأطلقها[٦]، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به[٧]»[٨].اهـ.

---

(١) سقطت في الأصل!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عفا عنهم».

(٣) ورد ذلك في قصة طويلة، تراها في «صحيح مسلم» (١٨٠٧)، و«مسند أحمد» (٤/ ٤٨، ٨٦، ٨٧)، و«المستدرك» (٢/ ٤٦٠)، وانظر: «مرويات غزوة الحديبية» (ص١٠٢ ـ ١٠٤ و١١٥ ـ ١١٩).

(٤) أخرج قصته: البخاري (٢٩١٣، ٤١٢٥، ٤١٢٧، ٤١٣٠، ٤١٣٥، ٤١٣٩) مختصرة، ومسلم (٨٤٣) من حديث جابر بن عبد الله. وسُمِّي بـ (غورث) في «صحيح البخاري» (٧/ ٤٢٦)، و«مسند أحمد» (٣/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥)، و«سنن سعيد بن منصور» (٢/ ٢٣٨، ط. الأعظمي) وقيل غير ذلك. انظر: «إيضاح الإشكال» رقم (١٣٨)، و«الأسماء المبهمة» رقم (١٢٣) للخطيب، و«الغوامض» لابن بشكوال رقم (١٢١)، و«تنبيه المعلم» (٣٣٧ ـ بتحقيقي).

(٥) أخرج قصته البخاري (٣١٦٩، ٤٢٤٩، ٥٧٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرجه البخاري (٥٧٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٧) أخرجه أبو داود (٤٥١١، ٤٥١٢)، ـ ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢٦٢) ـ، والدارمي (٦٧)، وابن سعد (١/ ١١٣ ـ ١١٤)، **وهو حسن**.

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٨٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: محل الشاهد هنا في هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يعتمدون بقلوبهم في جلب الخير ودفع الشر إلا على الله تعالى، مع اتصافهم بالصفات المذكورة، ولو توكلوا على غير الله تعالى لبطل ما كانوا يعملون.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الشورى: ٤٦]

قال (ك): «﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاص»[(١)]. اهـ.

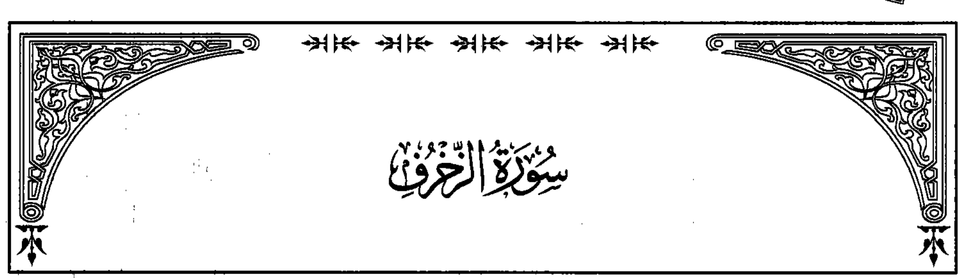
فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧] والظالمون ما لهم من أولياء ينقذونهم من عذاب الله، وإن كانوا يزعمون في أساطيرهم وحكاياتهم الباطلة أن هناك أهل النوبة من أوليائهم، وهم: الحرس المكلّفون بإنقاذ من استغاث بهم، وهم في ذلك كاذبون، فإنه لا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله كما تقدم[(٢)] في (سورة النمل). اهـ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٩٢).

(٢) انظر (١٣٣).



سورة الزخرف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ١٩ ـ ٢٨]

قال (ك): وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ﴾ أي: بذلك ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم﴾ أي: لو أراد الله لحال بينهم وبين عبادة هذه الأصنام ـ التي هي على صورة الملائكة ـ التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا[1] عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقرنا»!

أحدها: جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن ذلك علوّاً كبيراً.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦] وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون ويتقولون»[1].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ الآيات، قال (ك): «يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل شركهم ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين ههنا، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢] وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ أي: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل، ثم بيَّن جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة[2] المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧).
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣] وهكذا قال ههنا: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ثم قال ﷻ: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو علموا وتيقَّنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك بسوء[1] قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله، قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذِّبة بأنواع من العذاب، كما فصَّله تبارَكَ [وتعالى] في قصصهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين»[2].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ «يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله» أي: جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها»[3].

قال محمد تقي الدين: فائدة: شرح الحافظ (ﷺ) بأن عبادة أولئك المشركين للملائكة كانت بواسطة تماثيل جعلوها لهم وسموها بأسمائهم، كما يفعل عباد القبور حين يشيدون القباب، ويصنعون التوابيت على القبور، ويجعلون للتابوت كسوة كالكعبة، ويعلّقون المصابيح والثريات، ويزخرفون الوثن بأنواع الزخرفة، ويحكون للناس حكايات يختلقونها، مضمنها أن ذلك الوثن جاءه ناس قد عميت أبصارهم فرجعوا يبصرون، وجاءه ناس قد استولى شلل على أجسادهم فرجعوا يمشون، وجاءه ناس مجانين فرجعت إليهم عقولهم، وبهذه الحكايات ينشرون الشرك في الناس، قاتلهم الله.

فائدة ثانية: احتج المشركون بالقدر في قديم الزمان وحديثه، وقد ذكر الله

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «السوء»!
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٠٩).

تعالى احتجاجهم وأنكر ذلك عليهم، وسماه تكذيباً في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: ١٤٨] قال (ك): «هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره، بأن يلهمنا الإيمان أو يحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ الآية وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه[1] سواء قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من كان[2] قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم ونصر[3] عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ أي: فتظهروه هنا لنا[4]، وتبيِّنوه وتبرزوه؟ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن ههنا الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي[4]: تكذبون على الله فيما ادّعيتموه، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾ فإنهم قالوا عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله[5]: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾ يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين»[6]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أي: له الحكمة

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هذا».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ضل». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأدال».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقوله».
(٦) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٩/ ٦٥٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ٨٠٥١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢٥٥)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٤٣٦).

التامة والحجة البالغة في هداية من هدي وإضلال من ضل[1] ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أجاد الحافظ (ك) رَحِمَهُ اللهُ في الرد على المحتجِّين بالقدر. ومما يزيد كلامه وضوحاً أن يقال: قال الله تعالى في سورة الدهر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]. وقال تعالى في سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٨ ـ ١٠] وقال تعالى في سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠] أي: طريق الخير وطريق الشر وسبب الاحتجاج بالقدر الجهل بإرادة الله تعالى، وعدم التمييز بين الإرادة القدرية والإرادة الشرعية[3]، فإن الله تعالى قدر كل شيء بمعنى أنه عالم بما سيختاره عباده، وأن بعضهم سيختار طريق الخير، وهو الإيمان بالله وطاعته واتباع رسله، وبعضهم سيختار طريق الشر، وهو: الكفر بالله ومعصيته ورد ما جاءت به رسله، فمن اختار منهم طريق الخير والهدى هداه الله ووفَّقه، قال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧] وقال تعالى في سورة التغابن: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] وقال النبي ﷺ في حديث أبي ذر الطويل فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**»[4]. فكل من استهدى الله هداه بيقين، وهو الذي لا يخلف الميعاد، وقال تعالى فيمن اختار طريق الشر في سورة البقرة: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٦] أي: بالمثل أو بالقرآن ﴿كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أضل».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).

(٣) انظر: ما سيأتي في (٦/ ١٨) من التفريق بينهما، ففيه تفصيل جيد.

(٤) مضى تخريجه.

﴿وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] فإذا عرض الحق على الإنسان لأول مرة وكان سليم القلب من اتباع الهوى، فإنه يستعمل فكره فيرى الحق حقّاً فيؤمن به ويهتدي فيزيده الله هدى، وإذا عرض عليه الحق فمنعه الهوى من النظر فيه والتفكير بقلب سليم، فكذب به اتباعاً لهواه أضله الله وختم على قلبه فلا يستطيع أحد أن يهديه، وقال تعالى في سورة الصف: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فلو لم يزيغوا لهداهم الله، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧ ـ ١٨].

والإرادة الثانية: إرادة شرعية، وهي: في معنى الرضى، فلا يريد الله تعالى بهذه الإرادة الشرعية إلا ما شرعه لعباده، قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى في سورة الأعراف إخباراً عن الكفار: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٨ ـ ٢٩] وقال تعالى فيها أيضاً: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: فلو لم يتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لما حقت عليهم الضلالة، والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، فمن احتج بالقدر على استمراره في الكفر أو في المعاصي، فهو: جاهل بحقيقة إرادة الله تعالى، أو مغالط مكذب، كما تقدم في آيات الأنعام، ولنضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى: جماعة من الناس قصدوا رجلاً غنيّاً وقالوا له: نحن نحسن التجارة ونربح فيها، ونخرج من هذا الفقر المؤلم، ولنا عليك حق، فلو أقرضت كل واحد منا شيئاً يتخذه رأس مال لكنت سبباً في إنقاذنا من ألم الفقر دون أن تخسر شيئاً، فإننا نأخذ الربح ونرد لك رأس المال، وهذا الرجل الغني يعلم أن بعضهم صادق فيما ادعاه، وبعضهم كاذب يدعي ما لا يقدر عليه، فأعطى كل واحد منهم مقداراً معلوماً من المال، وضرب لهم أجل خمس سنين مثلاً، وبعد مضي الأجل استرد منهم رأس المال. فأما الذين كانوا صادقين، فإنهم ردوا

للمقرض قرضه، وبقي لهم خير كثير، يكفيهم أن يعيشوا عيشاً رغداً، وأما الكاذبون فلم يجد عندهم شيئاً لا رأس مال ولا ربحاً، وهذا المثل نفسه يصلح رداً على الاشتراكية الشيوعية، وللرد على الشيوعيين مقام آخر، والله أعلم.

وبعد ذلك أقول: لو أن الله تعالى أجبر الناس على الهدى ومنعهم من الكفر والمعاصي بحيث أن من كفر أو هَمَّ بالكفر أو المعاصي يصيب لسانه وجوارحه شلل، فلا يتكلم ولا يتحرك حتى يتوب ويعزم على ترك الكفر، والمعصية لبطل الثواب والعقاب، ولما كانت دار عذاب ولا كرامة، وصار الناس أمة واحدة سواسية، لا فضل لأحد على أحد وأصبحوا كالآلات، أو كالشمس والقمر، بدون إرادة ولا اختيار، يحركهم غيرهم فيتحركون، فلا يستحقون ثواباً ولا عقاباً، ولا يوصفون بإحسان ولا إساءة، وهذا ما لم يرده الله تعالى فله الحكمة البالغة. اهـ.

فائدة ثالثة: قول الحافظ (ﷺ): «أي: من قبل شركهم» تفسير لما يعود عليه الضمير، في قوله تعالى من قبله، وعندي فيه نظر، والذي يظهر أن يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ [القدر: ١] وقد تقدم ذكر القرآن، إلا أنه بعيد، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤] ثم نظرت في «البيضاوي»[1] فوجدت كلامه مطابقاً لما رأيته، والكمال لله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٥]

قال (ﷺ): «يقول ﷻ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو[2] الحق، وما يهدي إليه هو

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٧١).

(٢) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس وغيره[١] وأورد البغوي[٢] والبخاري بسندهما عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا كبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين**»[٣]، معناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين ومَنْ شابههم وتابعهم، وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له، وقوله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود[٤]: **(وسل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا)** وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم»[٥].

---

(١) حكاه ابن كثير عن مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد، وقال: «واختاره ابن جرير ولم يحك سواه».
وأخرجه ابن جرير (٢٠/ ٦٠٣)، وابن أبي حاتم ـ كما في «الإتقان» (٢/ ٤٢) ـ والطبراني (١٣٠٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٩٤) من طريقين عن ابن عباس، وعزاه في «الدر المنثور» إلى ابن مردويه، وانظر: «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (١١٤٥).

(٢) كذا في «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «الترمذي»!

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٠٠)، وأحمد (٤/ ٩٤)، والبغوي في «التفسير» (٥/ ١٠٢)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٤) هكذا عند ابن جرير (٢٠/ ٦٠٤) وهي شاذة، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٩٥) على أنها قراءة مفسرة، كما قال ابن كثير، وورد عن ابن مسعود قراءات مختلفة، انظر: «المحرر» (١٣/ ٢٣١)، «روح المعاني» (٢٥/ ٨٦).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الآيتان الأوليان من أدلة توحيد الاتباع، فإن الله أمر محمداً ﷺ أن يتمسك بالقرآن، وأن يتخذه سراجاً ومناراً يهتدي به هو وأمته، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥] وقال تعالى في سورة التغابن: ﴿فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَالنُّورِ الَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التغابن: ٨] **ونرى اليوم العرب وسائر المسلمين يتخبطون في الظلمات لإعراضهم عن هذا النور واتخاذهم القرآن مهجوراً، ولن يخرجوا من ظلماتهم إلا بالرجوع إليه، والاستضاءة به، واتخاذه إماماً وحكماً، والتمسك بسنة الرسول، التي تبينه وتشرحه،** والتفسير الثاني هو الراجح، وهو أن القرآن تذكير للنبي ولقومه ولجميع العالمين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] من سورة الذاريات وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠] وسيأتي تحقيق (توحيد الاتباع) في (القسم الذي بعد هذا) إن شاء الله.

فائدة أخرى: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية، معناه: إن كل رسول أرسله الله جاء بتوحيد الله تعالى وإنكار عبادة غيره، كائناً من كان، وهذا مبيَّن في التوراة والأناجيل أتم تبيين، انظر «البراهين الإنجيلية»[1] لمؤلف هذا الكتاب. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤]

---

(١) انظر ما تقدم: (ص٢٧).

قال (ك): ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: «يعني: من الأمور الدينية لا الدنيوية»(١). وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن ﴿بَعْضَ﴾ هٰهنا بمعنى «كل» واستشهد بقول لبيد(٢) الشاعر حيث قال:

تَـرَّاكُ أمـكِـنَـةٍ إذا لَـمْ أرضَـهَـا ... أو يعتَلق بعضَ النفوسِ حِمَامُها

وأوّلوه على أنه أراد جميع النفوس، قال (ج): «إنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها»، وهذا الذي قاله محتمل، وقوله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُونِ﴾(٣) فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب [جل وعلا] وحده»(٤).اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة، قوله تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ليس ﴿بَعْضَ﴾ هٰهنا بمعنى كل لأن عيسى ابن مريم عليه السلام لم يجئ بنسخ شريعة موسى كلها كما جاء محمد ﷺ بنسخ جميع الشرائع التي قبله، وإنما جاء بنسخ بعضها كالعمل يوم السبت، إذا كان فيه خير وفي تركه شر، كإنقاذ الغريق، وعلاج المريض، وإعانة المحتاج، ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

فائدة ثانية: قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية، انظر أيضاً «البراهين الإنجيلية» فقد جاء فيها أن سائلاً سأل عيسى عليه السلام عن الوصية الأولى من الوصايا العشر، التي في التوراة فأجاب قائلاً: «اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا واحد وتحب الرب إلٰهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك». اهـ من (الصفحة١٤).

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٠/ ٦٣٧).
(٢) انظر: «ديوانه» (٢٢٨، ط. دار القاموس)، والمذكور من (معلقة) له.
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب، وفي الأصل: «وأطعوني»!!
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير (١٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف: ٨١ ـ ٨٧]

في «تفسير الجلالين» ما نصه: «﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ فرضاً[١]. ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ للولد لكن ثبت أن لا ولد له تعالى فانتفت عبادته»[٢].

فصل

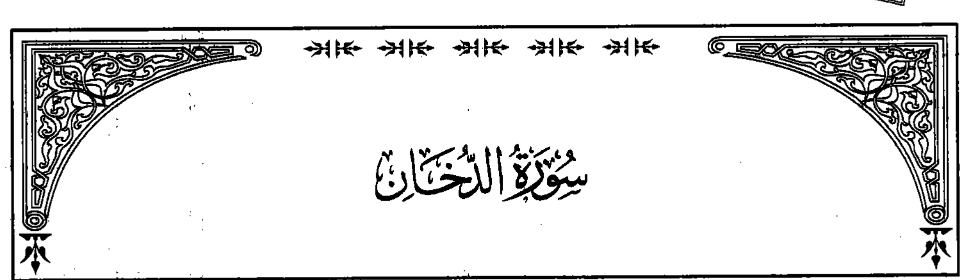
قال محمد تقي الدين: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)﴾ أي: تنزه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما عما يصفه به الجاهلون المشركون، من كونه له ولد، وتنزه وتقدس عن كل نقص، فذرهم، أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في غيهم حتى يجيئهم اليوم الذي كانوا يوعدونه، وهو يوم القيامة الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت، ويعاقب من نسب لله ولداً أو اتخذ معه شريكاً، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو معبود أهل السماء وأهل الأرض بحق وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وفي شرعه وقدره، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿وَتَبَارَكَ﴾ أي: تعالى وتقدس ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وكل من سواه مملوك، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: ساعة القيامة لا يعلمها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس: ٤٠، ٤١]، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير الجلالين»: «كما يزعمون».
(٢) انظر: «تفسير الجلالين» (ص٦٥٥).

يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ ولو كانوا ملائكة أو أنبياء أو صالحين، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: وحَّد الله تعالى ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعتقدون تنزيه الله تعالى عن الشرك وسائر النقائص، فإن الله يهب من شاء منهم الشفاعة في من شاء من المستحقين للعذاب والمعذبين، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد، أي: المشركين من أهل مكة وغيرهم ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ أنفسهم، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ خلقنا اللهُ ولم يشاركه في خلقنا أحد ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن توحيده في عبادته؟!. اهـ.





سُورَةُ الدُّخَانِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

[الدخان: ٧، ٨]

قال (ك): «أي: الذي أنزل هذا[1] القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم متحققين، ثم قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] الآية»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ذكر الله التوحيد في مواضع من كتابه العزيز، وأنكر على المشركين عبادتهم لغيره، واحتج عليهم بأنه هو وحده الذي يحيي ويميت، وكل ما سواه فإنه سبقه العدم، فأوجده الله تعالى ووهبه الحياة، وهو الذي يميت كل نفس ويذيقها الموت، فكيف يعبد من يحتاج إلى موجد يوجده، وحياته بيد ذلك الموجد يأخذها متى شاء، لا جرم أنه لا يعبد ذلك الفاني الذي يحيى ويمات، إلا من مات قلبه فنسألك اللهم أن تحيي قلوبنا، وأن تزيدنا إيماناً بك وبنبيك محمد ﷺ وبما جاء به، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٣٥).

الباب الثاني

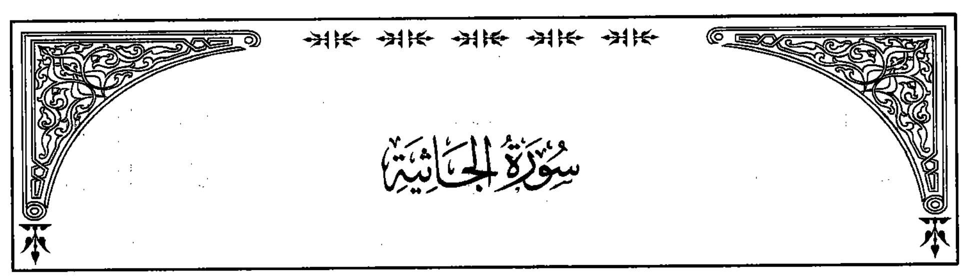
قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: ٤٠ ـ ٤٢]

قال (ك): «﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين، وقوله ﷻ: ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يجمعهم كلهم أوَّلهم وآخرهم [﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾][١] أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ وكقوله جلت عظمته: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من الخارج[٢] ثم قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ أي: لا ينفع يومئذٍ إلا من [رحمه الله][٣] ﷻ لخلقه[٤]: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة»[٥].اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ناطقان مصرحان بأن القرابة وحدها ـ ولو كانت للأنبياء والمرسلين ـ لا تنفع ولا تشفع بل أقارب الأنبياء إذا عصوهم وخالفوا طريقهم هم أشد الناس عذاباً وخزياً، انظر: (الفائدة الخامسة) من (الباب الأول) من (سورة الشعراء).

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خارج».
(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بخلقه»!
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٥٠).



سُورَةُ الجَاثِيَة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٢ ـ ٢٣]

قال (ك): «﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: إنما يأتمر بهواه فمهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير[1] «لا يهوى شيئاً إلا عَبَدَه»[2]، وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: **أحدهما**: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك.

والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه[3] وقيام الحجة عليه، والثاني يسلتزم الأول، ولا ينعكس، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]»[4].

---

(١) أورد جله ابن العربي في «القبس»، وجمعه حميد لحمر في كتاب مفرد بعنوان «الإمام مالك مفسراً» فيه جمع جيد على فوت فيه.

(٢) ذكره ابن العربي في «القبس» (٣/ ١٠٨١) وعلق عليه بقوله: «يريد: لا يرى شيئاً إلا شغله عن الله ﷻ». وانظر: «الإمام مالك مفسراً» (٣٥٢/ ٧٨٩).

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٦٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: التحسين والتقبيح فيما ينسب إلى الله من الصفات، وما ينفى عنه لا يكون إلا من طريق الشرع، أي: الكتاب والسنة، فما استحسنه الله تعالى ورسوله ﷺ، فهو الحسن، وإن لم تستحسنه عقول بعض الناس، وما استقبحه الله تعالى ورسوله، فهو القبيح وإن استحسنته عقول بعض الناس(١)،

(١) هذه المسألة لها جوانب اتفاق وافتراق بين العلماء.
أما **محل الاتفاق**؛ فالعقل يدرك الحسن والقبح فيما هو ملائم للطبع أو مضاد له، فإذا لاءم الغرض الطبع؛ فحسن؛ كاللذة والحلاوة، وإذا نافره؛ فهو قبيح؛ كالألم والمرارة، وهذا القدر معلوم بالحس والعقل والشرع، مجمع عليه بين الأولين والآخرين، بل هو معلوم عند البهائم.
أما **محل الافتراق والتنازع**؛ فهو في الحسن والقبح المتعلق بالشرع، بمعنى كون الفعل سبباً للذم والعقاب أو المدح والثواب، وهل يعلم ذلك بالعقل أو لا يعلم إلا بالشرع، أم يعلم بهما معاً؟ وحاصل أقوال الناس في هذه المسألة على سبيل الإجمال ثلاثة أقوال أساسية، هي:
القول الأول: وهو قول جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة وأصحاب مالك والشافعي وأحمد؛ كالقاضي أبي يعلى، وأبي الوليد الباجي، وأبي المعالي الجويني وغيرهم، وهو قول عموم الأشاعرة، وحاصل هذا القول: «إن الأفعال لا تتصف بصفات تكون بها حسنة ولا سيئة ألبتة، وكون الفعل حسناً أو سيئاً إنما معناه أنه منهي عنه أو غير منهي عنه، وهذه الصفة إضافية لا تثبت إلا بالشرع»، أي: إنهم ينفون الحسن والقبح العقليين ويقولون: إن ذلك لا يعرف إلا بالشرع فقط، مع أنه «من المحال أن يكون الدم والبول والرجيع مساوياً للخبز والماء والفاكهة ونحوها، وإنما الشارع فرَّق بينهما؛ فأباح هذا وحرم هذا مع استواء الكل في الأمر، وكذلك أخذ المال بالبيع والهبة والوصية والميراث، لا يكون مساوياً لأخذه بالقهر والغلبة والغصب والسرقة والجناية؛ حتى يكون إباحة هذا أو تحريم هذا راجعاً إلى محض الأمر والنهي المفرق بين المتماثلين...».
إلا أن هذا هو مذهب الأشاعرة الذي يصرحون به في كتبهم الاعتقادية والأصولية؛ ففي «المواقف» يقول الأيجي: «القبيح ما نهي عنه شرعاً والحسن بخلافه، ولا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، وليس ذلك عائد إلى أمر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع، بل الشرع هو المثبت له والمبيِّن، ولو عكس القضية، فحسَّن ما قبَّحه وقبَّح ما حسَّنه؛ لم يكن ممتنعاً وانقلب الأمر».
وفي «الإرشاد» (٢٢٨) للجويني: «العقل لا يدل على حسن شيء ولا قبحه في حكم التكليف، وإنما يتلقى التحسين والتقبيح من موارد الشرع وموجب السمع».
وهذا ما ردده المصنف وبه قال الشاطبي في «الموافقات» (٣/٢٨ ـ بتحقيقي) ونص =

. . . .

= كلامه: «الأفعال والتروك ـ من حيث هي أفعال وتروك ـ متماثلة عقلاً بالنسبة إلى ما يقصد بها؛ إذ لا تحسين للعقل ولا تقبيح»، وعلى الرغم من مرور الشاطبي على المسألة مروراً سريعاً على خلاف ما يفعله المتكلمون والأصوليون؛ فإن التأثير الأشعري بادٍ على كلامه، قارن كلامه السابق بقول الجويني في «الإرشاد» (ص٢٥٩): «فليس الحسن صفة زائدة على الشرع مدركة به، وإنما هو عبارة عن نفس ورود الشرع بالثناء على فاعله، وكذلك القول في القبح، فإذا وصفنا فعلاً من الأفعال بالوجوب أو الحظر؛ فلسنا نعني بما نثبته تقدير صفة للفعل الواجب يتميز بها عما ليس بواجب، وإنما المراد بالواجب الفعل الذي ورد الشرع بالأمر به إيجاباً، والمراد بالمحظور: الفعل الذي ورد الشرع بالنهي عنه حظراً وتحريماً».

واقرأ له قوله في «الموافقات» أيضاً (٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ـ بتحقيقي): «. . . كون المصلحة مصلحة تقصد بالحكم والمفسدة مفسدة كذلك مما يختص بالشارع، لا مجال للعقل فيه، بناءً على قاعدة نفي التحسين والتقبيح، فإذا كان الشارع قد شرع الحكم لمصلحةٍ ما؛ فهو الواضع لها مصلحة، وإلا؛ فكان يمكن عقلاً أن لا تكون كذلك؛ إذ الأشياء كلها بالنسبة إلى وضعها الأول متساوية لا قضاء للعقل فيها بحسن ولا قبح، فإذاً؛ كون المصلحة مصلحة هو من قبل الشارع بحيث يصدقه العقل وتطمئن إليه النفس».

وهذا بالضبط هو كلام الجويني وغيره من أئمة الأشاعرة، ولهذا القول لوازم فاسدة قد التزموها وقالوا بها ـ خلافاً لمصنفنا السلفي الهلالي رحمه الله ـ منها كما يقول ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٤٢ ـ ٥٢): إنه يجوز ظهور المعجزة على يد الكاذب، وأنه ليس بقبيح، وأنه يجوز نسبة الكذب إلى أصدق الصادقين، وأنه لا يقبح منه، وأنه يستوي التثليث والتوحيد قبل ورود الشرع، وأنه لا يقبح الشرك ولا عبادة الأصنام، ولا مسبة المعبود سبحانه، وأنه لا يقبح الزواج بالأم والبنت، وغير ذلك من اللوازم التي انبنت على أن هذه الأشياء لم تقبح بالعقل، وإنما جهة قبحها السمع فقط.

وهذه كلها لوازم فاسدة تدل على فساد الملزوم، بل ويلزم على قولهم هذا أنه يصح أن يأمر الله بالشرك؛ فلا يكون قبيحاً، وبالزنا والسرقة والظلم وسائر المنكرات؛ فلا يكون ذلك قبيحاً، ويجوز عندهم أن ينهى سبحانه عن التوحيد والعفة والصدق والعدل؛ فتكون هذه كلها قبيحة، كما قال الإيجي في «المواقف» (٣٣٣): «ولو عكس القضية، فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه؛ لم يكن ممتنعاً وانقلب الأمر».

والقول الثاني: وهو مذهب المعتزلة على اختلاف بينهم في التفصيلات، وكثير من أصحاب أبي حنيفة، وهذا القول يقع في مقابل القول الأول؛ إذ الحسن والقبح عند هؤلاء عقليان، لا يتوقف في معرفتهما وأخذهما عن الدليل السمعي، ويجعلون الحسن والقبح صفات ذاتية للفعل لازمة له، ويجعلون الشرع كاشفاً عن تلك الصفات لا سبباً لشيء من الصفات، ترى تفصيل ذلك في: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٣١ و١١/ ٦٧٧)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٩٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٣٨)، و«مفتاح دار =

. . . .

= السعادة» (٢/ ٨، ٣٩، ١٠٥)، و«شرح الأصول الخمسة» (٤١، ٤٦)، و«سلم الوصول شرح نهاية السؤل» (١/ ٨٣)، و«إرشاد الفحول» (٧).
ورتب المعتزلة على هذا الأصل أموراً عديدة، منها: إن القبح في العقل يترتب عليه الذم والعقاب في الشرع، والحسن في العقل يترتب عليه المدح والثواب في الشرع، وأن الله ﷻ يجب عليه أن يفعل ما استحسنه العقل ويحرم عليه أن يفعل ما استقبحه العقل، وأن المصلحة تنشأ من الفعل المأمور به فقط؛ كالصدق، والعفة، والإحسان، والعدل؛ فإن مصالحها ناشئة منها، وغير ذلك من الأمور المترتبة على هذا الأصل الفاسد واللوازم الملازمة له، كما بينه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٩ ـ ٦٠ و١٠٥).
والقول الثالث: هو القول الوسط بين هاتين الطائفتين، والطريق القاصد بين الطريقين الجائرين إذ قال أصحابه ـ كما في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٧) ـ: «ما منكم أيها الفريقان إلا من معه حق وباطل، ونحن نساعد كل فريق على حقه ونصير إليه، ونبطل ما معه من الباطل ونرده عليه؛ فنجعل حق الطائفتين مذهباً ثالثاً يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين».
وحاصل هذا القول أن الحسن والقبح، يدركان بالعقل، ولكن ذلك لا يستلزم حكماً في فعل العبد، بل يكون الفعل صالحاً لاستحقاق الأمر والنهي، والثواب والعقاب من الحكيم الذي لا يأمر بنقيض ما أدرك العقل حسنه، أو ينهى عن نقيض ما أدرك العقل قبحه؛ لأن ما أدرك العقل حسنه أو قبحه راجح ونقيضه مرجوح، بمعنى أن صفة الحسن في الفعل ترجح جانب الأمر به على جانب الأمر بنقيضه القبيح، وصفة القبح في الفعل ترجح جانب النهي عنه على جانب النهي عن نقيضه الحسن، عملاً في ذلك بمقتضى الحكمة التي هي صفة من صفات الله سبحانه؛ فلا حكم إلا من الخطاب الشرعي، ولا أمر ولا نهي إلا من قبل الشارع الحكيم.
وهذا هو قول عامة السلف وأكثر المسلمين؛ كما في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/ ٦٧٧)، وأهل هذا القول يوافقون الأشاعرة في أنه لا حكم بالثواب والعقاب والأمر والنهي في الفعل إلا جهة الوحي، وأن الحجة إنما تقوم على العباد بالرسالة، وأن الله لا يعذبهم قبل بعثة الرسل، ولا يطالبهم إلا بما بلغهم من أمر، ولا يعاقبهم إلا على ارتكاب ما نهاهم عنه.
ويوافقون المعتزلة في أن العقل يحكم بحسن الشيء أو قبحه، وأن الحسن والقبح صفات ثبوتية للأفعال معلومة بالعقل والشرع، وأن الشرع جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين الحسن والأمر به وتقبيح القبيح والنهي عنه، وأنه لم يجئ بما يخالف العقل والفطرة، ويوافقونهم في إثبات الحكمة لله تعالى، وأنه سبحانه لا يفعل فعلاً خالياً عن الحكمة، بل كل أفعاله مقصودة لعواقبها الحميدة وغاياتها المحبوبة.
ومن الجدير بالذكر أن القول بإدراك العقل للمصالح والمفاسد لا يعني أن إدراكه تام =

مثال ذلك: شفاعة النبي ﷺ في خروج الموحِّدين من النار[1]، أخبر بها الرسول ﷺ، واستحسنها، وهي في نفسها حسنة، واستقبحتها عقول المعتزلة فهم مخطئون في ذلك، وملومون عليه، ومثل ذلك إيجابهم على الله أن يعذب

= مطلق، بل إنه يدرك ويعجز، ويصيب ويخطئ. . . وقد بيّن ابن القيم هذه النقطة؛ فقال في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١١٧): «. . . بل غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى الشرع بتفضيله أو قبحه؛ فيدركه العقل جملة، ويأتي الشرع بتفصيله، وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً أو ظلماً؛ فهذا ما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد، وكذلك يعجز عن إدراك حسن كل فعل وقبحه.

فتأتي الشرائع بتفصيل ذلك وتبيينه، وما أدركه العقل الصريح من ذلك تأتي الشرائع بتقريره، وما كان حسناً في وقت قبيحاً في وقت، ولم يهتد العقل لوقت حسنه من وقت قبحه أتت الشرائع بالأمر به في وقت حسنه، وبالنهي عنه في وقت قبحه، وكذلك الفعل يكون مشتملاً على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته؟ فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع ببيان ذلك، وتأمر براجح المصلحة، وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك؛ فتأتي الشرائع ببيانه؛ فتأمر به من هو مصلحة له، وتنهى عنه من هو مفسدة في حقه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة، لا يهتدي إليها العقل؛ فلا تعلم إلا بالشرع؛ كالجهاد والقتل في الله، ويكون في الظاهر مصلحة، وفي ضمنه مفسدة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة والمفسدة الراجحة، هذا مع أن ما يعجز العقل عن إدراكه من حسن الأفعال وقبحها ليس بدون ما تدركه من ذلك؛ فالحاجة إلى الرسل ضرورية، بل هي فوق كل حاجة؛ فليس العالم إلى شيء أحوج منهم إلى المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين. . .».

وقد تعرض الشاطبي مراراً لبيان هذا القصور في إدراك العقل للمصالح والمفاسد، ترى ذلك في «الاعتصام» في مواطن منها: (١/ ٢٤٥، ٢٨٧، ٣٠٧، و٢/ ٢٩٥، ٣٥٧، ٣٧٩، ٤٦٢، و٣/ ٣٢٤، ٣٤٢)، وفي «الموافقات» (١/ ٥٣٧ و٢/ ٧٧ و٣/ ٢١٠) كلاهما بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وانظر: بسط المسألة في: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢ ـ ١١٨)، و«مدارج السالكين» (١/ ٩١، ٢٣٠ ـ ٢٥٧، و٣/ ٤٠٧، ٤٨٨، ٤٩٢)، و«شفاء العليل» (٤٣٥)، و«مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨/ ٩٠ ـ ٩١ و٤٢٨ ـ ٤٣٢ و٣/ ١١٤ ـ ١١٥ و١١/ ٦٧٥ ـ ٦٨٧ و١٥/ ٨ و١٦/ ٢٣٥ ـ ٣٦٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣)، و«شرح الكوكب المنير» (١/ ٣٠٠ ـ ٣٢٢)، و«لوامع الأنوار» (١/ ٢٨٤ ـ ٢٩١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٩٤ و١٥/ ٣٧ ـ ٤٢)، و«تيسير التحرير» (١/ ٢٨٣ ـ ٣٨٧)، و«إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة» للصنعاني (ص٢٠٣ ـ ٢٤٨)، و«حقيقة البدعة وأحكامها» (٢/ ١٢٧ ـ ١٣٣).

(١) الأحاديث الواردة في ذلك متواترة، انظر (١/ ٣٣٣) وتعليقنا عليه.

المذنبين، واستقباحهم عفو الله عنهم، وهم في ذلك مخطئون، والكريم إذا وعد أنجز وإذا أوعد عفا، فتلك صفة كما قال الشاعر[(١)]:

وإنِّـي إذا أوعَـدْتُـه أو وَعَـدتُـه ... لـمخلفُ إيعادي ومُنْجِزٌ موعدي

وقاله الشاعر يفتخر بأنه كريم حليم؛ إذا وعد لا يخلف وعده، وأما إذا أوعد بالعقاب فإنه يعفو ويصفح.

قال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، وإذا عفا عنهم وأخَّر عقابهم فهو سبحانه جدير أن يعفو عنهم يوم القيامة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ١٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وكذلك الاستحسان في الشريعة قال به بعض الفقهاء، وهو أن يحكم بوجوب شيء أو تحريمه أو كراهيته أو استحبابه أو إباحته بالاستحسان العقلي، قالوا في تعريفه: هو حجة تنقدح في ذهن المجتهد ولا يستطيع التعبير عنها، وجمهور علماء الأصول ينكرون هذا الاستحسان[(٢)]، ويحصرون الحجة في الكتاب والسنة والإجماع والقياس على خلاف بينهم فيه. اهـ.

فائدة ثانية: قال محمد تقي الدين: من اتبع هواه في عبادة غير الله أو تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، أو رد شيئاً مما جاء به رسول الله، كالذين يقولون في هذا الزمان بتطور أصول الدين، والاجتهاد مع وجود النص والإجماع، كرفض الصيام في رمضان، بدعوى أنه لا يوافق العصر الحاضر،

---

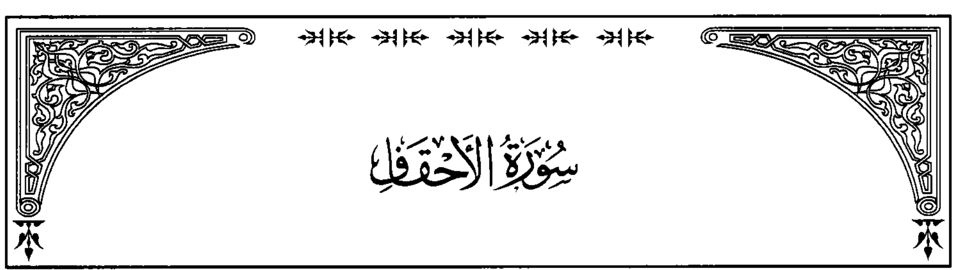
(١) أنشده أبو عمرو بن العلاء رادّاً على عمرو بن عبيد المعتزلي في مناظرة جرت بينهما، كما تراه في: «مجالس الزجاجي» (ص٦٢ ـ ٦٣)، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦/ ١٠٨١)، و«الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٧٢ ـ ٧٣)، «الإبانة» (رقم ١٩٦٦)، «أخبار عمرو بن عبيد» رقم (١٦) للدارقطني، «تاريخ بغداد»، (٥/ ٩٩)، «المنتظم» (٨/ ٦١)، «عيون الأخبار» (٢/ ١٤٢، ط. المصرية)، «البصائر والذخائر» (١/ ١٧٧)، «المنية والأمل» (ص١٧٢ ـ ١٧٣)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٦)، «تهذيب الكمال» (٢٢/ ١٣٠)، «تهذيب التهذيب» (٨/ ٧١)، «الميزان» (٣/ ٣٧٨).

(٢) لشيخ الإسلام «قاعدة في الاستحسان» مطبوعة، فصل في مدى حجيته، وانظر: «الموافقات» (٥/ ١٩٣ ـ ١٩٩، ٢٢٨، ٢٣٣) وتعليقي عليه، وشرحي على «الورقات» المسمى «التحقيقات والتنقيحات السلفيات» (ص٥٩٦ ـ ٦٠٧).

وتحليل الربا بدعوى أنه ضروري في هذا العصر إذا تركته دولة قَلَّتْ أموالها، وضعُف اقتصادها، وضاع حقها في المعاملات الدولية، فإنها لا بد أن تعطي وتأخذ، فإذا أخذت فلا مناص من دفع الربا، وإذا أعطت بلا ربا تكون هي الخاسرة، فنقول: إن هناك طريقاً آخر وهي أن تكون مستقلة غنية قوية لا تأخذ الربا ولا تعطيه، وحينئذٍ لا بد أن تخضع لها الدول الأجنبية وتقبل شرطها، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، ولنضرب مثلاً بالدولة السعودية فإنها لا تتعامل بالربا وهي أغنى الدول، والحاصل: من اتبع هواه في الشرك بالله أو تغيير حكم شرعي أو رد ما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر فرداً كان أو جماعة، أما من اتبع هواه في ارتكاب المحرمات، وهو يعترف أنه مذنب ويؤمل التوبة فهذا فاسق لا يخرج من الإسلام، ولا يخلد في النار بسبب التوحيد والإيمان والمحافظة على الصلاة في أوقاتها الذي معه[1].اهـ.

---

(١) يشير في هذه العبارة إلى أن تارك الصلاة تكاسلاً كافر، وله رسالة مفردة مطبوعة في تقرير هذا!.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤ ـ ٦]

قال (ك): «قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلُّوا بخلقه من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾؛ إن المُلْكَ والتصرف كله لله ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به من أرشدكم إلى هذا من دعاكم إليه أهو أمركم به أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام»(١)، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: علم مأثور عن الأنبياء السابقين يشهد لكم بصحة ما أنتم عليه من الشرك في عبادة الله.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: لا أضل ممن يدعو [أنداداً و](٢) أصناماً

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥ ـ ٦).
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

ويطلب منهم[١] ما لا يستطيعونه[٢] ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾»[٣].

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ فلا يسمعون ولا يبصرون ولا يبطشون، لأنهم فقراء عاجزون مربوبون، تحت تصرف الله تعالى وقهره، وتماثيلهم وآثارهم أشد عجزاً.

«وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ كقوله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: وتقدم تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

فائدة: قال محمد تقي الدين: الكفار في هذا الزمان أنواع:

النوع الأول: يقرون بأن الله رب كل شيء وخالق كل شيء؛ وبالكتب المنزلة على رسل الله أو بعضها كاليهود والنصارى، إلا أنهم يعبدون غير الله، بدعوى أن الله وهب بعض عباده شيئاً من صفاته، كالتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والنصر والهزيمة والخصب والجذب، وإطالة الأعمار وتقصيرها، والإفقار والإغناء، وهذه عقيدة المشركين المتأخرين.

النوع الثاني: المشركون على عهد النبي ﷺ من العرب، وهؤلاء كانوا لا يشركون بالله في الربوبية والملك والتصرف، وأما العبادة فكانوا في وقت الشدائد يوحدون الله تعالى، ولا يدعون معه أحداً، وفي وقت الرخاء يتخذون معه آلهة زاعمين أنهم يشفعون لهم عند الله في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ومشركو هذا الزمان يوافقونهم على ذلك، غير أنهم لا يوحدون الله أصلاً، لا في الشدة ولا في الرخاء، فشركهم أغلظ، وجهلهم أكثر. اهـ.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منها».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تستطيعه».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٣).
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٣).

النوع الثالث: يعتقدون أن الله خالق كل شيء ولكنهم لا يؤمنون بالرسالة، ويزعمون أن العقل يغني عن إرسال الأنبياء في معرفة الخالق ومن هؤلاء توماس بين مؤلف كتاب «عصر العقل» (The age of reason).

النوع الرابع: الواقفون (Iguostic) وهؤلاء يقولون: إنهم لا يثبتون لهذا العالم ربّاً وهو الله تعالى، ولا ينفونه، لأنهم يزعمون أنه لم يقم عندهم دليل على الإثبات ولا على النفي، ومن هؤلاء Ougesol الأمريكي، وله مقالات بالإنكليزية مشهورة.

ويلزم أهل النوع الثالث أن الله سبحانه مع اعترافهم بكمال قدرته وكمال علمه خلق الخلق وأهملهم ووكلهم إلى عقولهم، التي لا تكاد تتفق على شيء، وهذا يتنافى مع كمال القدرة والحكمة والرحمة، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، من سورة القيامة، وقال تعالى في آخر سورة المؤمنين: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. ومتى رأيتم ملكاً قويّاً حكيماً رحيماً من المخلوقين يهمل رعيته ولا يعلمهم ما يأتون وما يذرون، فما فائدة ملكه لهم؟ فكيف بملك الملوك خالق السموات والأرض يترك عباده بلا رسل ولا كتب، ولا شرع، ولا يثيب محسناً على إحسانه، ولا يعاقب مسيئاً على إساءته؟ هذا يتنافى مع صفات الكمال. اهـ.

أما أهل القسم الرابع: فهم أضل وأجهل، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ[1] يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١] والقرآن مشحون بمثل هذه الإرشادات وما يعقلها إلا العالمون، اهـ.

والنوع الخامس: يصرحون بأنه لا رب لهذا العالم ولا خالق له ولا متصرف فيه ولا مدبر لشؤونه، فيلزمهم أن السفينة تصنع نفسها وتسير في البحر بلا ربان ولا ملاحين، ويلزمهم أن القطار يصنع نفسه ويصنع السكة التي يسير عليها أو تصنع نفسها، ويحمل الناس والبضائع، وإذا رأى أناساً أو حيواناً صفر

---

(١) في الأصل: «أفلم»، وهو خطأ.

له وبطأ سيره، وإذا رأى ما يستوجب الوقوف وقف، وإذا وصل إلى محطة وصل بعد أن يختار موقفه، ويتوجه إليه بنفسه، حتى لا يتصادم مع القطر الأخرى، وينتظر النازلين حتى ينزلوا والراكبين حتى يركبوا، وإذا جاء وقت التحرك عرفه، واستأنف سيره، ويلزمهم أن الأطعمة في المعدة تتحول إلى دمٍ من تلقاء نفسها، ثم إلى تعويض ما فقد من اللحم والعظام والأعصاب والغضاريف والأمعاء وما يحتوي عليه البطن والدماغ، كل ذلك بلا خالق ولا مدبر، ويلزمهم أن الشمس خلقت نفسها وهي تسير بإرادتها، وأن الأرض خلقت نفسها والتزمت أن لا تبعد عن الشمس بعداً يهلك ما عليها من حيوان ونبات بالبرد، ولا تقرب من الشمس قرباً يهلك ما عليها بالاحتراق، بل تبقى بينها وبين الشمس مسافة معلومة تمكن ما عليها من حيوان ونبات من الحياة، لا جرم أن هذه الفروض لا يستطيع العقل البشري أن يعتقدها، لأنها في غاية الاستحالة، انظر: كتابي «دواء الشاكين»[1]. وقد طبع باسم «الطريق إلى الله»[2] وقد طبع برمته وهو يباع، طبعه المحسن الكبير الحاج مصطفى الودغيري.

الباب الثاني

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢١ ـ ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام، بعثه الله ﷻ إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حقف وهو الجبل من الرمل، وعن علي بن أبي

---

(١) أصله عدة مقالات نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع على حدة.
(٢) هو قسم من الكتاب السابق، وقد طبع عن دار الفتح، بيروت.

طالب: الأحقاف وادٍ بحضرموت[١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾، يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين»[٢]. وقال البيضاوي: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾: «قبل هود وبعده»[٣].

قال محمد تقي الدين: ويظهر أن قول البيضاوي هو الصواب، ثم قال (ك): «﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: الله أعلم بكم: إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب [فسيفعل][٤] ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر[٥] ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو العذاب الذي قلتم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ من بلادهم مما من[٦] شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، أي: بإذن الله لها في ذلك كقوله ﷻ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذرايات: ٤٢] أي: كالشيء البالي، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم يبق[٧] لهم باقية ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا»[٨]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عاد الأولى ليس لها اسم سوى عاد، وعاد الثانية لها اسم آخر وهو ثمود.

والأحقاف اسمها في هذا الزمان حَضْرَمَوْت، واسمها أيضاً جنوب اليمن،

---

(١) أخرجه مع تتمة له: أبو بكر النجاد في «جزئه المشهور»، قاله السيوطي في «شرح الصدور» (ص٢٣٢). وهذا يروى عن علي من وجوه، انظر لزاماً: تعليقي على «تعبير الرؤيا» (ص٨٦) لابن قتيبة، فقد ذكرت مصادره.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٢ ـ ٢٣).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٩٦).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيفعل».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مطر»!

(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل!

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تبق».

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٤).

ومقر الحكم فيها عدن، نسأل الله أن يطهرها من الشيوعية[١].

وقول الحافظ (ك): ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾: «معناه: من حوله من البلاد» ظهر لي لأول وهلة أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ ما قبله من الزمان، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ ما بعده من الزمان، ثم راجعت كل «التفاسير» التي عندي ـ وهي خمسة ـ فوجدتها موافقة لما ذكرته، ومخالفة لتفسير (ك) والكمال لله.

وقول (ك): «﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب كل شيء من بلادهم مما شأنه الخراب»، يريد أن كل شيء عام أريد به الخصوص[٢]، أي: كل شيء من بلاد عاد لا من بلاد غيرهم. قوله: «مما شأنه الخراب» كبني آدم والأشجار، أما الجبال فلم تخربها لأنها لم ترسل إليها؛ هذا كقوله تعالى في ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٢٣] أي: يكون عند الملوك.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧ ـ ٢٨].

قال (ك): «﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ، وهم أهل اليمن، ومدين، وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله ﷻ: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: بيَّنّاها وأوضحناها ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ﴾ فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم؟ ﴿بَلۡ ضَلُّواْ

---

(١) الحمد لله قد فعل، وسقطت الشيوعية، وهذه سنة الله تعالى في الباطل مهما تنوّع وتغيَّر، فإن الباطل زهوق، ولا أصل له ولا جذور، بخلاف الحق، فإن جذوره ممتدة في التاريخ، ومهما حورب وأوذي أصحابه فهو بمثابة الشجرة؛ إن قطعت، فسرعان ما تنبت أقوى مما كانت، لقوة جذورها وأصولها، فتأمل ولا تكن من الجاهلين!

(٢) انظر: تهويل الأصوليين في ذلك: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٦/ ٤٤١ ـ ٤٤٢) و«شرحي على الورقات» المسمى «التحقيقات والتنقيحات السلفيات» (ص١٩٦ ـ ٢٠٠).

عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم واعتمادهم عليها، والله أعلم»(١).اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عبّاد الأوثان في هذا الزمان كلما رأوا قبة عظموها وتعلقت قلوبهم بصاحبها المنسوبة إليه، فيشدون إليه الرحال ويتقربون لها، فإذا قيل لهم: لماذا ذهبتم إلى صاحب القبة، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؟ يقولون: نحن نعلم أن الذي يعطي هو الله، وصاحب القبة لا يملك شيئاً ولكننا قصدناه لنقرأ عليه شيئاً من القرآن، وندعو له بالرحمة، فقلنا لهم: أما الدعاء فإن الله يسمعه وأنتم في بيوتكم، ولماذا خصصتموه بالدعاء من دون سائر الأموات، ومنهم والدوكم؟ فذهابكم إلى قبره وتخصيصكم له بالدعاء يدل على أنكم قصدتموه، وخضعتم له لتتملقوا وتقدموا له رشوة ليتوسط لكم في قضاء حاجاتكم عند الله، أو ليقضيها بنفسه، وهذا هو الشرك بالله الذي لا يغفره الله، وأما قراءة القرآن، فلو كانت تنفع غير قارئه لكان والدوكم أولى بها، على أنها لا تنفع إلا قارئها إذا قرأها لوجه الله، وعمل بها وتقبلها الله منه، وبرهان ذلك أن قراءة النبي ﷺ متقبَّلة قطعاً، وكل حرف منها يساوي قراءة العالم بأسره، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وكان يعتني كثيراً بزيارة القبور والدعاء لأصحاب القبور، ويعلم أصحابه الدعاء الذي يدعون به إذا زاروا القبور(٢) كما يعلمهم السورة من القرآن ولم يقرأ شيئاً من القرآن على ميت ولا أمر أصحابه بذلك، أأنتم أعلم أم رسول الله ﷺ؟ وفي «الصحيحين» عن ابن عباس أن النبي ﷺ، مر بقبرين يعذبان؛ أي: يعذب صاحباهما، فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**»، ثم أمر بجريدة خضراء فأتي بها فشقها نصفين، فغرز أحدهما على أحد القبرين، وغرز الثاني على القبر الثاني(٣)، فقال: «**لعله أن يخفف عنهما ما لم**

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٨). (٢) انظره: في «صحيح مسلم» رقم (٩٧٤).
(٣) هذا الغرز من التبرك بأثر النبي ﷺ ودعائه بالتخفيف عنهما، وكأنه جعله مدة بقاء النداوة فيهما حدّاً لما وقعت به المسألة من تخفيف العذاب عنهما، وليس ذلك من أجل أن في =

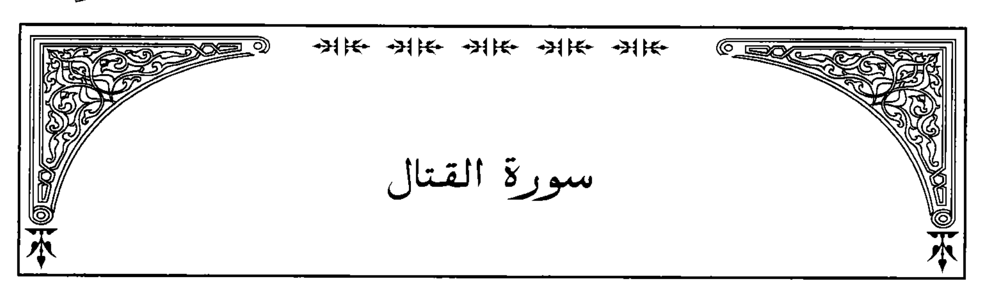
ييبسا»[(١)] ولم يقرأ عليهما حرفاً من القرآن، ولا أمر أصحابه بالقراءة عليهما، وهذا دليل قاطع على أن قراءة القرآن وإهداء ثوابها للأموات لم يشرعها الله ولا رسوله، بل هي بدعة وضلالة[(٢)]، ولا يجني صاحبها منها إلا الوبال، وقول النبي ﷺ: «**وما يعذبان في كبير**»، ليس معناه أن ذينك الذنبين ليسا من الكبائر[(٣)]، بل معنى (كبير) هنا ثقيل، كما قال تعالى في الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] أي: ثقيلة وشاقة، فكذلك الاستتار من البول والنميمة، لا يشق على المسلم أن يتركهما، فإذا كان معه أدنى شيء من الإيمان فإن إيمانه يمنعه من ارتكابهما، والله أعلم.

= الجريد الرَّطب معنى ليس في اليابس. قاله الخطابي في «المعالم» (١/٢٧)، وزاد: «والعامة في كثير من البلدان تغرس الخُوص في قبور موتاهم، وأراهم ذهبوا إلى هذا، وليس لما تعاطوه من ذلك وجه». وأيّد كلامه العلامة المحدث أحمد شاكر وفرع عليه بدعة وضع الزهور على القبور، وقال عنها وعن غرس الأشجار على القبور في تعليقه على «جامع الترمذي» (١/١٠٣): «وكل هذه بدع ومنكرات لا أصل لها في الدين، ولا سَنَد لها من الكتاب والسنة، ويجب على أهل العلم أن ينكروها، وأن يبطلوا هذه العادات ما استطاعوا».

(١) أخرجه البخاري (٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ١٣٧٨، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس.

(٢) انظر: «قاموس البدع» (بتجميعي) لشيخنا الألباني، فقد تكلم على هذه المسألة بتفصيل، والله المستعان، لا رب سواه.

(٣) انظر: «الكبائر» (ص٢٧٢، ٣٥٦، ٤٧٠ بتحقيقي) للذهبي.



سورة القتال

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك ولهذا عطف عليه بقوله ﷻ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ كان يقول: **«اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي»**(١). وفي «الصحيح» أنه كان يقول في آخر الصلاة: **«اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت»**(٢). وفي «الصحيح» أنه قال: **«يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»**(٣).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]»(٤).اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: يجب على كلِّ مسلمٍ أن يعلم معنى

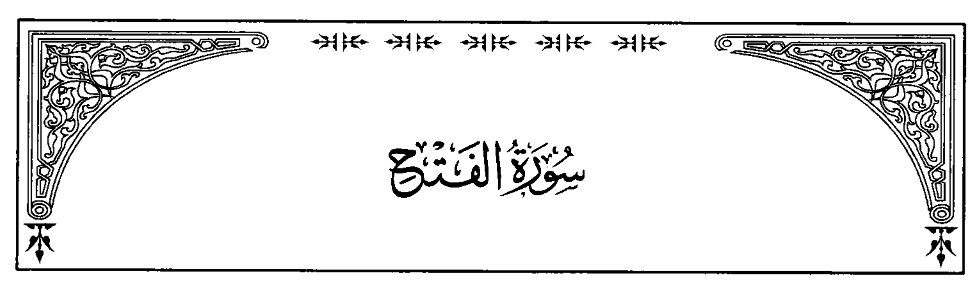
---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري.
(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب.
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٧٢ ـ ٧٣) بتصرف.

لا إله إلا الله، ويعتقده بقلبه، ويقولها بلسانه، ويعمل بمقتضاها، وإلا فليس من أهلها ولو قالها في كل يوم ألف مرة، فإن أهل الردة الذين قاتلهم أبو بكر الصديق ومعه جميع الصحابة، وسبى ذريتهم، وغنم أموالهم(١)، كانوا يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويصلون ويقرؤون القرآن ويحجون ويصومون، فلم تنفعهم، لأنهم لم يعملوا بمقتضاها، لما امتنعوا من دفع الزكاة إلى أبي بكر الصديق. ومعناها أن يشهد قائلها على نفسه قولاً واعتقاداً وعملاً أنه لا يعبد إلا الله ويتبرأ من عبادة غيره، ويحب في ذلك ويبغض فيه، ويوالي ويعادي عليه، فمن فعل ذلك فهو من أهل لا إله إلا الله. اهـ.

---

(١) ورد ذلك عند مسلم (٣٠)، وقال شرَّاحه ـ منهم: القاضي عياض في «إكمال المعلم» (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) والعبارة له ـ وأقره النووي في «المنهاج» (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١) ـ: «واختلف العلماء في قتل تارك غير الشهادتين، فأكثرهم على أن ذلك حدٌّ لا كفرٌ، وهو الصحيح، وقيل: كفر، والقول بهذا في تارك الصلاة أكثر، وعليه تأولوا سبي أبي بكر لنساء مانعي الزكاة وأموالهم لاعتقاده كفرهم، ولقوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ الآية، وحَكَم فيهم حكم الناقض للعهد، فلما توفي وولي عمر ردَّ عليهم ذريَّتهم وحكم فيهم حكم المرتدين.
وكان أهل الردة ثلاثة أصناف: صنف كفر بعد إسلامه ولم يلتزم شيئاً وعاد لجاهليته أو اتبع مسيلمة أو العنسيَّ وصدَّق بهما وصنف أقرَّ بالإسلام إلا الزكاة فجحدها وأقرّ بالإيمان والصلاة، وتأول بعضهم أن ذلك كان خاصّاً بالنبي ﷺ لقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً...﴾ الآية، وصنف اعترف بوجوبها ولكن امتنع من دفعها إلى أبي بكر وقال: إنما كان قبضُها للنبي ﷺ خاصةً لا لغيره ممن يقوم مقامه بعده، وفرقوا صدقاتهم بأيديهم، فرأى أبو بكر والصحابة ﷺ قتال جميعهم، الصنفين الأوَّلين لكفرهم والثالث لامتناعه بزكاته، شمل جميعهم اسم الردة؛ إذ كانوا الأكثر، حتى لم يكن صُلِّي لله إلا في المدينة ومكة وجُوَاثا.
وفيمن كفر منهم اختلف في سبي ذراريه لا في مانعي الزكاة، قاله الخطابي. ثم لم ينقرض العصرُ حتى أجمعوا على أنه لا يسبى المرتد، وإنما اختلف العلماء في سبي أولاد المرتدين. وإلى مذهب أبي بكر فيهم وتأويله ذهب أصبغُ بنُ الفرج من أصحابنا.
وبرأي عمر قال جمهور العلماء، ولا يصح أن يكون خلاف بين الصحابة في قتال الصنف الأول إذ هم كفار بغير خلاف، وإنما وقع النزاع ـ أولاً ـ في هذين الصنفين الآخرين إذ هم متأولون، ولعذرهم بجهلهم بحقيقة أركان الشريعة لقرب عهد كثير منهم بالإسلام، وقِصَر مُدتهم فيه، وأما الآن فقد وقع الإجماع أنه من جحد فريضةً من الفرائض فهو كافر». انتهى.



سُورَةُ الفَتْحِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦]

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأبوا أن يكتبوا: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [وهي قول][(١)]: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر»[(٢)]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمٰن الرحيم» وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، بيان ذلك أن النبي ﷺ، توجه إلى مكة ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه قاصدين العمرة بعدما رأى الرسول في المنام أنه دخل مكة ومعه أصحابه آمنين، لم يلقوا حرباً، فلما وصل إلى الحديبية، هي موضع قريب من مكة غضب أهل مكة وخرجوا إليه بالسلاح، فأخبرهم النبي ﷺ، أنه لم يجئ لقتالهم، وإنما جاء معتمراً، فمنعوه من دخول مكة، وبعد مفاوضات طويلة، اتفق معهم على الصلح،

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال»!

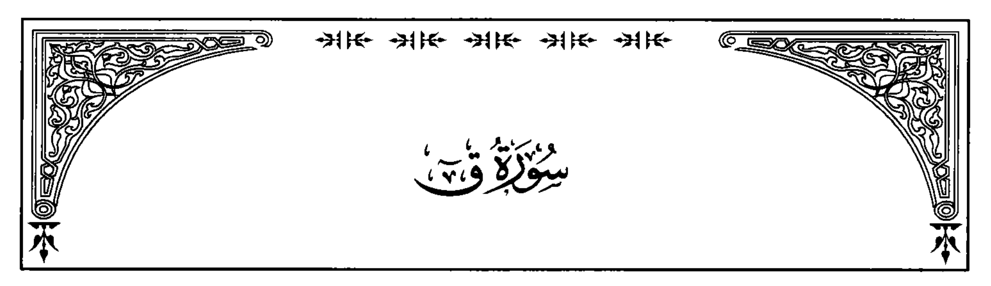
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١١٢ ـ ١١٤) بتصرف.

وهذا الصلح هو الفتح المبين[1] الذي ذكره الله تعالى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح: ١] فلما أرادوا أن يكتبوا معاهدة الصلح، قال النبي ﷺ لكاتبه: **«اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»**، فقال سهيل: لا نعرف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ولا نعترف أنك رسول الله، ولو اعترفنا لك بذلك ما صددناك عن بيته، اكتب باسمك اللهم، واكتب اسمك واسم أبيك، هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، فحلم عليه النبي ﷺ، وكتب كما يريد سهيل بن عمرو[2]، لأن الإسلام يربح بالسلم ما لا يربح بالحرب، لأنه دين العقل والفطرة، إذا لم يبدَّل ولم يغيَّر، فكل مَنْ فكَّر فيه بعقله قبله، ودخل فيه إلا من منعه اتباع الهوى واستكبر وكان من الكافرين.

---

(١) انظر وجه ذلك بتحليل جيد في تعليقي على (٣/٧٨ ـ ٨٠)، وانظر (١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٤)، وأحمد (٤/٨٦، ٣٢٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٣٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٣٤٢) رقم (٣٧٨٥٢)، والبيهقي (٩/ ٢٢٦) وغيرهم من حديث أنس.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦]

هذا خطاب من الله تعالى للملَكين، السائق وهو الذي يسوق المشرك إلى العرض، والشاهد وهو الذي يشهد عليه بما كان يقترفه في الدنيا.

قال (ك): ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، [عنيد، معاند للحق][1] معارض له بالباطل مع علمه بذلك ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد، وقال قتادة: مُعتدٍ في منطقه وسيره وأمره[2]، ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكٌّ في أمره، مريب لمن نظر في أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: **«يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وُكِّلت اليوم بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتنطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم»**[3].

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

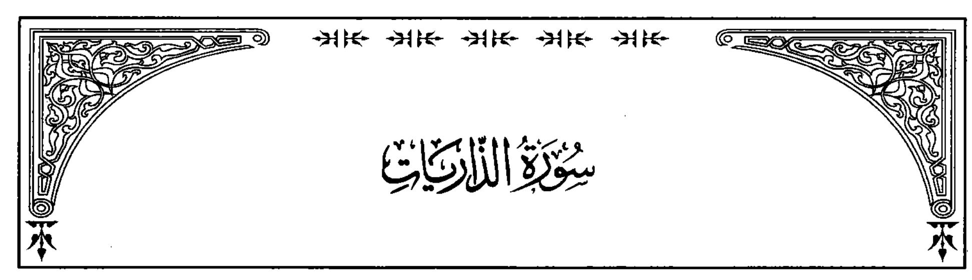
(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٦٣٧ ـ ط. هجر).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠)، وعبد بن حميد (٨٩٦)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٦٠)، وأبو يعلى (١١٣٨، ١١٤٦)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٠، ٣٩٩٣)، والبزار (٣٥٠٠، ٣٥٠١ ـ «زوائده»)، وأبو الشيخ في «جزء من حديثه»، (رقم ٨٣ ـ انتخاب ابن مردويه)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٧٧)، والخطيب في «تالي التلخيص» (رقم ٢٨٠ ـ بتحقيقي)، وجوّده الذهبي في «الكبائر» (رقم ٢٨٨ ـ بتحقيقي)، وقال عنه شيخنا الألباني في التعليق =

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ توكيد لما تقدم، وكل من عبد غير الله من أهل العالم العلوي والعالم السفلي وإن زعم أنه يتبرك به، فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر، انظر (الباب الثامن) من (سورة الأعراف).

= على «الترغيب والترهيب» (٢/ ٩٣٠ ـ بعنايتي): «**حسن لغيره**».
وأخرجه الترمذي (٢٥٧٤)، وأحمد (٢/ ٣٣٦)، والبيهقي في «البعث» (رقم ٥٢٤)، وفي «الشعب» (٦٣١٧) من حديث أبي هريرة بنحوه **وهو صحيح**، وفي الباب عن جمع، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٢)، و«التخويف من النار» (رقم ٨١٧ ـ ٨٢٣) لابن رجب، و«الكبائر» للذهبي (ص٣٥٠ ـ ٣٥٢) وتعليقي عليهما.



سورة الذاريات

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٥١]

قال (ﷺ): «يقول تعالى منبِّهاً على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً[١] رفيعاً ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقوة، قاله ابن عباس[٢] وغيره، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: قد[٣] وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهاداً لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج، سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار[٤]، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه،

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه ابن جرير (٢١/٥٤٥) وابن أبي حاتم (١٠/٣٣١٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٥٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (١٣/٦٨٦) إلى ابن المنذر أيضاً، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ١٢٠٠)، وبمثله قال مجاهد في «تفسيره» (ص٦٢١)، وأسنده عن البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٥٣)، وآدم بن أبي إياس، كما في «الدر المنثور».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقد».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وليل ونهار وشمس وقمر».

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: ولا تشركوا به شيئاً ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾»(١). اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: من لم يفر إلى الله فقد فر من الله، ومن فر من الله يدركه لا محالة، فإنه لا يفوته هاربه، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٢] اللهم اجعلنا ممن فر إليك يا رب العالمين، فآويته ونصرته وأسعدته في دنياه وأخراه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

[الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]

قال (ك): «يقول جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم، روى (**ع، د، ت، ن**) عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ **(إني أنا الرزاق ذو القوة المتين)**(٢) ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم»(٣).

---

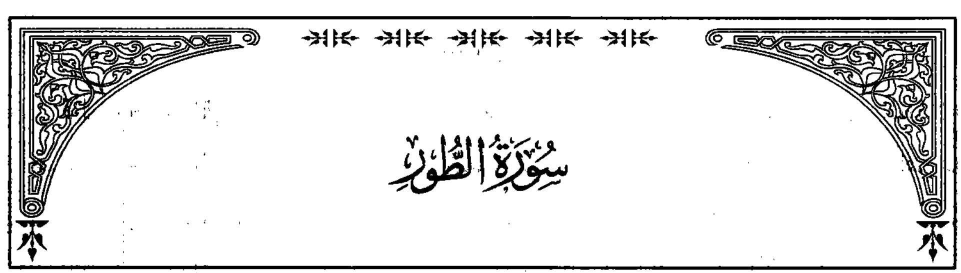
(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٤)، وأبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤١)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٠٧، ١١٥٢٧) ـ وهو في «التفسير» (٥٢٧) ـ والطيالسي (٣١٧)، والدوري في «قراءات النبي ﷺ» (١٠٨)، والشاشي في «مسنده» (٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٨)، وابن حبان (٦٣٢٩)، والحاكم (٢/ ٢٣٤، ٢٤٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٣، ٦٦، ١٢٩)، **وإسناده صحيح**، وصححه شيخنا الألباني وهذه قراءة شاذة، والقراءة المتواترة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: جعل الله سعادة البشر وسائر المخلوقين من العقلاء في عبادته وحده لا شريك له، وجعل شقاء من شقي منهم في الشرك به والكفر به وبرسله، وارتكاب معصيته، وجعلهم فريقين فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، نسأل الله أن يجعلنا ممن وحده واتبع رسوله، والعبادة لا تقبل إلا بالتوحيد، وقد تقدم بيان ذلك، وسيأتي إن شاء الله.اهـ.



سورة الطور

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦]

قال (ك)، «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الإلهية[1]، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ أي: أوجدوا من غير موجد، أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، قال البخاري بسنده[2] عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾ كاد قلبي أن يطير».

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ أي: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك»[3]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: إن الذين يقولون: إن العالم مخلوق من غير خالق، وموجود بغير موجد، وصنعة متقنة بلا صانع، فئة قليلة من البشر، وهم أضل من

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الألوهية».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٣٨ ـ ٢٣٩).

البقر، ولا يحاولون إقناع الناس بالحجة والبرهان العقلي، بل يشهرون السيف في وجوه العوام، ويقهرونهم بالنار والحديد، ويحرمون عليهم التفكير بعقولهم، حتى يجعلوهم بباغاوات، يمدحون ما لا يعلمون، ويذمون ما لا يعلمون، وكل عاقل لا يريد أن يخادع نفسه، ولا أن يخادع الناس لا يستطيع أن يتصور فضلاً عن أن يصدق أن هذا العالم موجود بلا صانع، وأن صانعه الطبيعة الصماء البكماء العمياء؛ التي ليس لها علم ولا إرادة ولا اختيار. ولما رجعت إلى المغرب بقصد الاستقرار فيه بعد الثورة الأولى في العراق، وما ارتكبه الشيوعيون هناك من الغشم وإراقة الدماء بدون تمييز، دعتني إدارة مجلة «دعوة الحق» إلى نشر مقالات فيها لإنقاذ الشباب، وبعض الكهول مما وقعوا فيه من الخبط في العقائد فعمدت إلى كتاب «الإنسان لا يقوم بنفسه» MAN does not - stand alone تأليف رئيس المجمع العلمي في الولاية المتحدة سابقاً، الأستاذ الدكتور كريسي موريسن، وترجمته بالعربية، وشرحته وعلقت عليه، ونشرته في أربع وعشرين مقالة في «دعوة الحق»[١] وسأذكر هنا منه دليلاً واحداً بدأ به المصنف مقدمة كتابه، وأحيل القارئ على مطالعة هذا الكتاب، أصله الإنكليزي، أو ترجمتي له، وقد طبع في بيروت باسم «الطريق إلى الله»[٢] ودونك المثال:

قال المؤلف: المذكور في أول الكتاب، افترض أنك أخذت عشرة أفلس، وكتبت على كل واحد رقماً مبتدأً من واحد إلى عشرة، ثم وضعت الأفلس العشرة في كيس، ثم هززت الكيس هزّاً عنيفاً حتى اختلطت الأفلس بعضها ببعض، ثم أردت أن تخرج تلك الأفلس على أن تصادف يدك عند إدخالها الكيس في المرة الأولى؛ الفلس المرقوم بواحد، وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين، وفي الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة.. وهكذا إلى آخرها على الترتيب، فكم يكون حظك من النجاح في المرة الأولى أن تصادف الفلس المرقم برقم واحد؟ يكون

---

(١) السنة الثالثة، الأعداد (٣ ـ ١٠) سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م، والسنة الرابعة، الأعداد (١ ـ ٤ و٦ ـ ٩) سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠ ـ ١٩٦١م، والسنة الخامسة، الأعداد (٢، ٤ ـ ٨، ١٠) سنة ١٣٨١ ـ ١٣٨٢هـ/ ١٩٦١م ـ ١٩٦٢م، والسنة السادسة، الأعداد (٢، ٣) ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م، وهي جميعاً في كتابي «مقالات الهلالي»، وطبعت هذه المقالات في كتاب مستقل بعنوان «دواء الشاكين» في المغرب، الدار البيضاء.

(٢) «الطريق إلى الله» هو جزء منه، وقد طبع برمته في الدار البيضاء ونسخه موجودة تباع. (منه).

عشرة في المائة، وفي المرة الثانية الفلس المرقم برقم اثنين. على التوالي يكون واحداً في المائة، فإن أردت أن تدخل يدك في الكيس ثلاث مرات متوالية، وتصادف المرة الأولى الفلس المرقوم برقم واحد، وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين وفي المرة الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة، فإن حظك من النجاح يكون واحداً في ألف، وإن أردت أن تصادف الأول والثاني والثالث والرابع على التوالي، فإن حظك من النجاح يكون واحداً من عشرة آلاف، وقس على ذلك إلى العاشر، فإن حظك من النجاح أن تصادف يدك الفلس المرقوم برقم واحد، إلى الفلس المرقوم برقم عشرة، على التوالي يبلغ رقماً لا يتصوره العقل، وهو واحد من عشر ملايين.

والغرض من ضرب هذا المثل السهل الإدراك أن نبين مقدار استحالة قول من يزعم أن هذا العالم تم خلقه وتدبيره بالمصادفة، فإن هناك شروطاً لازمة لوجود الحياة على أرضنا هذه، وهذه الشروط لا يمكن أبداً من الوجهة الحسابية أن توجد كلها بالنسب المطلوبة بالمصادفة المجردة على أي أرض، في أي أرض، في أي زمان، لذلك يتحتم أن يكون وراء الطبيعة كائن عالم مدبر، إذا علمت ذلك، وهو حق، تعلم يقيناً أن خلق هذا العالم مقصود ومقرر قبل وجوده تقديراً دقيقاً.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣]

قال (ك): «﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأوثان والأصنام[١] مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»[٢].

فصل

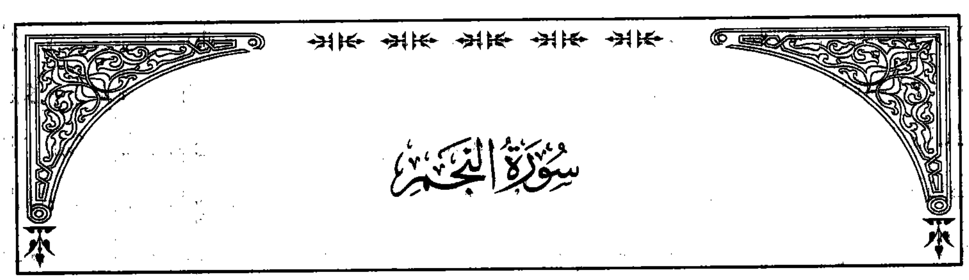
قال محمد تقي الدين: تقدم في مواضع أخرى أن معنى إله معبود، ولذلك كان مفتاح الإسلام «لا إله إلا الله» فقائلها بالصدق يشهد على نفسه ويعاهد ربه

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٣٩).

أنه لا يعبد إلا الله، ولكن أكثر من يقولها في هذا الزمان لا يعرفون معناها ولا يفكرون فيه، ولا يبحثون عنه، فتكون أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم مضادة لِ (لا إله إلا الله) ويكونون أعداءها وهم لا يشعرون، فالمغربي حين يقول: «يا فكاك الوحائل، يا مناع الرحايل، يا غياث أصحابه في الضيقات، يا مولاي عبد القادر الجيلاني» معناه: يا من ينقذ من استغاث به في الشدائد، ويغيث من التجأ إليه عند الضيق، يا مولاي يا عبد القادر الجيلاني، فهذا يهدم لا إله إلا الله ويقضي عليها قضاءً تامّاً، لأن تلك الصفات التي جعلها أولئك الجهال لعبد من عباد الله هي خاصة بالله تعالى، فمن جعلها لغيره فقد كفر به. انظر (الباب الثالث) من (سورة النمل).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى مقرِّعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمٰن ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ وكانت (اللات) صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظَّم عند أهل الطائف، وهم: ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب؛ بعد قريش، وقال البخاري بسنده عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ (كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج)[1] قال (ج): وكذا العُزَّى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة[2] والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أُحد: «لنا العزى ولا عزى لكم» فقال رسول الله ﷺ: **«قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»**[3]. وروى (خ) بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه:**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) بعدها في الأصل: «والمدينة» ولا معنى لها، وهي غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٤٣) من حديث البراء.

تعال أقامرك فليتصدق»[١] فهذا[٢] محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من[٣] زمن الجاهلية، وروى (ن) بسنده عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى فقال أصحابي: بئس ما قلت، قلت هجراً! فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: **«قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وانفث عن شمالك ثلاثاً، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»**[٤]. وأما (مناة) فكانت بالمُشلَّل عند قُدَيد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظِّمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة، روى البخاري عن عائشة نحوه[٥]، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها، قال ابن إسحاق في «السيرة»: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت[٦] تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويهدى[٧] لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام، ومسجده؛ فكانت لقريش ولبني كنانة العزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم، حلفاء بني هاشم. (قلت): «بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يا عُزَّى كُفرانَكِ لا سُبْحانَكِ ... إنِّي رأيتُ اللَّهَ قد أهانَكِ»[٨]

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٦٠).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».

(٤) أخرجه النسائي في (كتاب، الأيمان والنذور، باب الحلف باللات والعزى) (٧/ ٨)، وفي «الكبرى» في (كتاب: عمل اليوم والليلة، باب ما يقول من حلف باللات والعزى) رقم (١٠٨٢٦)، وابن أبي شيبة في «المسند» (ق٦٢/أ) ـ وهو ساقط من مطبوعه ـ، والدورقي في «مسند سعد بن أبي وقاص» (٥٨)، **والحديث صحيح**.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٦١).

(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتهدي».

(٨) ذكر هذه القصة ابن عبد البر في «الاستيعاب» (ص١٩٨)، وابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢٥٣) وعزاها لابن أبي الدنيا، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٩٩)، وأخرج الطبراني في «الكبير» (٤/ ١٠٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤) عن =

ثم قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور؟ فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت قسمة ضيزى، أي: جوراً باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، ثم قال تعالى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: من تلقاء أنفسكم، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجة، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتدٍ يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنما الأمر كله لله، ملك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[١]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الحلف بغير الله من الشرك، قال النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[٢]، رواه (أ) (ت) عن ابن عمر وإسناده حسن. وقال النبي ﷺ: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[٣]. ومتى فشا ظلام الشرك في قوم وغاب عنهم نور التوحيد كثر فيهم الحلف بغير الله، فإذا تاب الواحد منهم من الشرك تبقى فيه عادة الحلف بغير الله، ويجري على لسانه دون أن يقصده[٤]، فمن وقع له مثل ذلك فكفارته أن يقول:

= خالد بن الوليد أنه مرّ على اللات فقال: فذكره... دون ذكر بعث النبي ﷺ له.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٦٦ ـ ٢٧٠) بتصرف.

(٢) سبق تخريجه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/٦١٢): «قال الخطابي: اليمين إنما تكون بالمعبود المعظم، فإذا حلف باللات ونحوها فقد ضاهى الكفار، فأمر أن يتدارك بكلمة التوحيد. =

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ويجتهد أن لا يعود إلى ذلك، فإن كان صادقاً لا تمر عليه إلا مدة قليلة حتى تزول عنه تلك العادة، ويتعود الحلف بالله وحده، كما وقع لأصحاب رسول الله ﷺ[١]، وكذلك الذي اعتاد أن يهتف باسم شيخ عند قيامه وقعوده، وعند ما يصيبه فزع إذا تاب من الشرك، يعوّد نفسه ترك ذلك، وإذا جرى لسانه بذلك بدون قصد يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وكذلك الذي اعتاد أن يقول: لولا الله وفلان لوقع كذا وكذا، إذا تاب من الشرك يعوّد نفسه أن يقول: لولا الله ثم فلان.اهـ.

وقول النبي ﷺ: «**من قال لصاحبه: تعال أقامرك**»[٢] دون أن يقصد القمار يتصدق بما يسر الله له فتكون تلك الصدقة كفارة لذلك القول وزجراً عن العود لمثله». وقولهم: قلت هجراً، الهجر: الكلام القبيح.

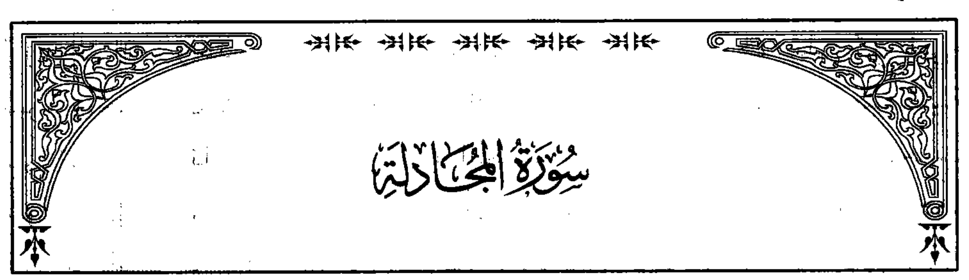
قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: من سوء حظنا في هذا الزمان أننا نرى أوثاناً لها بيوت وأفنية يذبح لها ويطاف بها، وتُقبَّل ويتمسح بها بقصد التبرك أكثر مما كان عند العرب، ونحن عاجزون عن هدمها، لأن عبادها لا يزال عددهم كثيراً، ولكننا نستطيع القضاء عليها إذا وفقنا الله تعالى بدعوة الناس إلى هجرها والكفر بها، فيطول عليها الزمان فتتهدم من تلقاء نفسها، ويستريح الناس من شرها[٣].

= وقال ابن العربي: من حلف بها جادّاً فهو كافر، ومن قالها جاهلاً أو ذاهلاً، يقول: لا إله إلّا الله، يكفر الله عنه وبرد قلبه عن السهو إلى الذكر، ولسانه إلى الحق، وينفي عنه ما جرى من اللغو».اهـ.

(١) سبق بيان ذلك عن بعضهم قريباً.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٧)، ومسلم (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) نشطت هذه الأيام ـ ولله الحمد والمنة ـ الدعوة إلى التوحيد، وظهرت أنوار السنة، وذلك بفضل الله تعالى أولاً، ثم بنشاط علمائنا الأعلام، وتلاميذهم الكرام، وانتشار كتبهم المفيدة النافعة المانعة، وترجمتها إلى أكثر من لغة، وقيام كثير من السراة الأماجد، والأثرياء الأفاضل بطبعها وتوزيعها على عوام المسلمين، فجزى الله الجميع خير الجزاء، وبارك في طاعاتهم وأموالهم.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ الآية، وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ...﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر(١)، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة: «لو كان

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٠١) و«معرفة الصحابة» (٢/ ٢١، ٢٢) (رقم ٥٧٦) ـ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ق٢٦٦) ـ، والحاكم (٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥)، وعنه البيهقي (٩/ ٢٧) وقال البيهقي عقبه: «هذا منقطع». وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢٤٤): «أخرجه الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن شوذب»، وقال في «الفتح» (٧/ ٩٣): «مرسل»، وقال في «التلخيص» (٤/ ١١٣): «هذا معضل».

وزاد السيوطي في «لباب النقول» (ص٢٠٨) وفي «الدر المنثور» (٨/ ٨٦) نسبته لابن أبي حاتم.

أبو عبيدة حياً، لاستخلفته[١]». وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾: نزلت في أبي عبيدة حين قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ في الصديق همّ يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمٰن[٢] ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير[٣]، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذٍ أيضاً، وفي حمزة وعلي، وعبيد بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذٍ[٤]، والله أعلم، قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وقال عمر: لا أرى ما رأى، يا رسول، هل تمكنني من فلان قريب لعمر فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله[٥] أنه ليس في قلوبنا هوادة[٦] بكمالها[٧]. للمشركين . . .»[٨] القصة بكمالها. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته قال السدي: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، أي[٩]: جعل في قلوبهم الإيمان[١٠]، وقال ابن عباس: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، أي: قواهم. وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[١١]، وفي قوله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨) وفي «فضائل الصحابة» (١٢٨٥ ـ ١٢٨٧)، وابن سعد (٣/ ٤١٣) وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/ ٤١٨)، وابن جرير في «تاريخه» (٥/ ٣٣)، والحاكم (٣/ ٢٦٨)، وهو **حسن**.

(٢) انظر ما قدمناه من خبر إرادة قتل أبي بكر ولده في (ص١٥٢) وهناك تخريجه.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يومئذ».

(٤) وقيل غير ذلك، انظر: «لباب النقول» (ص٢٠٨)، «الدر المنثور» (٦/ ٨٦)، «الكشف والبيان» (٩/ ٢٦٥).

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «موادة»!.

(٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) سبق تخريجها.

(٩) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(١٠) انظر: «تفسير السدي الكبير» (٤٥١).

(١١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كل هذا تقدم تفسيره غير مرة».

تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ سر بديع، وهو: أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: هؤلاء حزب الله أي: عباد الله وأهل كرامته، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم[1] في الدنيا والآخرة؛ في مقابلة ما ذكر[2] عن أولئك بأنهم حزب الشيطان، ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة فإني وجدت فيما أوحيته**: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾»[3]؛ قال سفيان: إنها أنزلت في من يخالط السلطان»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: إن تحقيق التوحيد الذي دلت عليه لا إله إلا الله عزيز الوجود كالكبريت الأحمر، وله شروط:

أولها: أن يوحد العبد ربه في ربوبيته وألوهيته، وهي: العبادة، فلا يجعل من عبادته لغير الله مثقال ذرة أو أقل من ذلك.

ثانيهما: أن يكفر بعبادة غير الله ولو كانت للأنبياء والملائكة.

الثالث: أن يتبرأ من المشركين بصريح العبارة، فإن لم يقدر فبقلبه مع اجتهاده في الهجرة إلى بلد يمكنه فيه التصريح بذلك.

الرابع: أن يعادي المشركين في الدين.

الخامس: أن يحب الموحدين ويواليهم، ويتعاون معهم في إعلاء كلمة

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونصرهم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أخبر»، وبعدها فيه: «إليّ».

(٣) أخرجه ابن مردويه والديلمي (٢٠١١) **بإسناد ضعيف**. قاله الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٢١١) رقم (١٨).
وفي إسناده انقطاع ظاهر وهو مرسل، قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٤٥٦) رقم (١٧٤١): «**وأسانيده كلها ضعيفة**»، وعزاه ابن كثير لأبي أحمد العسكري، وانظر: «الأسرار المرفوعة» (٩١)، و«إتحاف السادة المتقين» (٦/ ١٤٨).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٦٨ ـ ٤٧٠) بتصرف.



الحق، وهذه الشروط الخمسة لا تقبل منه إلا إذا ضم إليها شهادة أن محمداً رسول الله ولها شروط:

أولها: أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثانيها: أن يعرف معنى الشهادتين.

ثالثها: أن يعرف الضروري مما جاء به الرسول ﷺ، وهو كل ما فرض الله عليه في الإسلام.

خامسها[1]: أن لا يرد شيئاً مما جاء به النبي ﷺ.

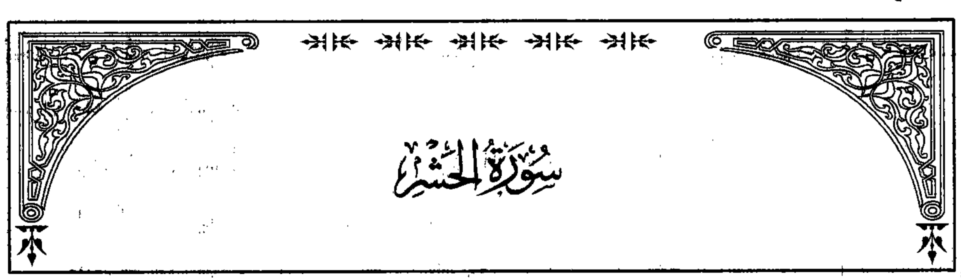
سادسها: أن يرد كل نزاع مع غيره إلى كتاب الله وسنة رسوله.

سابعها: أن يرضى بحكم الكتاب والسنة، ولو كان فيه قتله وقتل أعز الناس عنده.

ثامنها: أن لا يجد في ذلك حرجاً أو كراهية في نفسه، والله الموفق.

---

(١) كذا في الأصل: دون «رابعها»!



سورة الحشر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]

قال (ك): «يقول[(١)] تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من جليل وحقير، وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمان الدنيا والآخرة ورحِيمُها، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾، معناه: الطاهر»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: الذي آمن مَنْ شاء مِنْ عباده من الخوف، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٤] وقوله

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: أي من جميع العيوب والنقائص؛ بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله»، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٠٢).

تعالى: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ :أي: الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء، فلا ينال جنابه لعزته؛ وعظمته، وجبروته، وكبريائه، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي لا يليق الجبروت[١] إلا له، ولا التكبّر[٢] إلا لعظمته، كما تقدم، وفي «الصحيح»: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبته**»[٣]. ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الخلق: التقدير، والبراء[٤] هو: الفري وهو التنفيذ، وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ.

قال الشاعر يمدح آخر[٥]:

ولأنت تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ... ـضُ القوم يَخلُقُ ثم لا يَفرِي[٦]

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: قدرت بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع [أن ينفذ][٧] ما يريد. وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، على الصفة التي يريد والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ ولهذا قال: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها، وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»[٨]، وذكر الترمذي[٩] الأسماء التسعة والتسعين.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجَبْرِيّة».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «التكبير»!

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٨٣، ٣٥٨٥) من حديثي ابن عمر وجابر.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والبرء»!

(٥) القائل زهير، وهو بيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان في «ديوانه» (٦٠ ـ ٦٤).

(٦) المراد بالخلق في الشعر التقدير لا الاختراع والابتداع كما في الآية.

(٧) غير موجود في مطبوع ابن كثير.

(٨) سبق تخريجه، ولأبي نعيم جزء مفرد في طرقه، مطبوع بتحقيقي أكثر من مرة، ولله الحمد والمنة، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤) بتصرف.

(٩) سبق تخريجه مطولاً.

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد نظمها العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي[١] في قصيدة يقول في أولها:

إذا نابني خَطْبٌ وَضَاقَ به صَدْري ... تلافاه لطفُ الله من حيثُ لا أدري
ولا سيَّما إنْ جئتَه مُتوسِّلاً ... بأسمائه الحُسنى المعظّمة القدرِ
فيا اللهُ يا رحمانُ إنّي لذو فقرٍ ... وأنتَ رحيمٌ مالكُ الخلقِ والأمرِ
بقدسك قدوس سلام ومؤمن ... مهيمن قدسني لدى السِّرِّ والجَهْرِ
عزيزٌ وجبَّارٌ ويا متكبِّرٌ ... ويا خالقَ الخلقِ اكْفِني أزمةَ الدَّهرِ
ويا بارئ ما لي سِواكَ مصوِّرٌ ... وغفَّارُ يا قهارُ جبراً لذي كَسرِ

وهي مشهورة موجودة في المغرب، وقد ذكرتها بتمامها في آخر (القسم الثالث) من هذا الكتاب[٢]، وكذلك (القصيدة الضمياطية)[٣] تشتمل على أسماء الله الحسنى والتوسل بها إلى الله تعالى، ولكل صفة خاصة بها، فالقصيدة الهلالية أقل دعاء وأفصح لفظاً وكل بيت منها يشتمل على أربعة أسماء أو أكثر[٤]، وأما (الضمياطية) فألفاظها ركيكة ونظمها غير جيد، إلا أن كل بيت منها لا يزيد على اسمين[٥] والباقي كله دعاء، أولها بعد المقدمة:

مِنَ اللهِ أرجُو أمْنَ قلبٍ تَوَجَّلا ... فبالأمن يا رحمان لا تبق موجلا
وكُنْ يا رحيمُ راحماً ضَعْفَ قوَّتِي ... ويا مالكُ كُنْ لي مَلاذاً ومَوئِلا

ومن العجيب عند المغاربة ـ وما أكثر عجائبهم ـ أنهم يعتقدون أن من قرأها وأكثر قراءتها يصاب بالجنون؛ لأن لكل بيت منها خاصية، وخداماً من الجن يقضون حاجة من دعا به، ولكنْ قَلَّ مَنْ يتغلَّب عليهم فيستجيبون له ويخدمونه، وأكثر من يحاول التغلب عليهم يهزم ويصاب بالجنون، حتى إن سكان الجزائر إذا رأوا شخصاً من حفاظ القرآن لم تعجبهم حاله يقولون: (هذا مُضَمْيط)، يعنون أنه فقد عقله بكثرة قراءة الضمياطية، والمغاربة ليسوا كاذبين فيما زعموا، فإن من قرأها للسحر

---

(١) ستأتي ترجمته في (٦/ ٢٨٠).
(٢) انظرها في (٦/ ٢٨١) مع تعليقنا هناك.
(٣) انظر (٦/ ٢٨٠) وتعليقنا هناك.
(٤) قال المصنف في (ديباجة)، «قصيدة أسماء الله الحسنى» (ص٣) عن قصيدة الهلالي: «لم يلتزم فيها عدداً خاصّاً في كل بيت، فيشتمل البيت الواحد على ثلاثة أسماء أو أربعة».
(٥) قال المصنف: «التزم فيها أن يجعل كل بيت مشتملاً على اسمين» المرجع السابق.

واستخدام الجن يصاب بالجنون والوسوسة وتجيئه خيالات تفتنه وتفسد عقله.

أما من قرأها لله وتوسل إليه سبحانه بالأسماء الحسنى التي تضمنتها فإنه يرى خيراً كثيراً، والتوسل الصحيح المطابق لأدعية الكتاب والسنة الصحيحة إنما يكون بأسماء الله وصفاته، كما تقدم وكقول النبي ﷺ، «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك**» إلى آخره، وهو دعاء مشهور دعا به النبي ﷺ، عند رجوعه من الطائف، وأوله: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي**»(١).

وبالأعمال الصالحة كما في حديث أصحاب الغار الذين توسل كل واحد منهم إلى الله تعالى بأفضل أعماله، وهو في «البخاري»(٢).

وأما التوسل بالأشخاص والإقسام بهم على الله تعالى فهو بدعة، انظر كتاب «التوسل والوسيلة»(٣) لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، وأما حديث الأعمى(٤) الذي يتشبث به المخالف فلا حجة فيه؛ لأن النبي ﷺ دعا له وشفع له عند الله، يضاف إلى ذلك أن الحديث ضعيف، انظر كتاب «صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان»(٥) للشيخ بشير السهسواني الهندي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يرام جنابه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

---

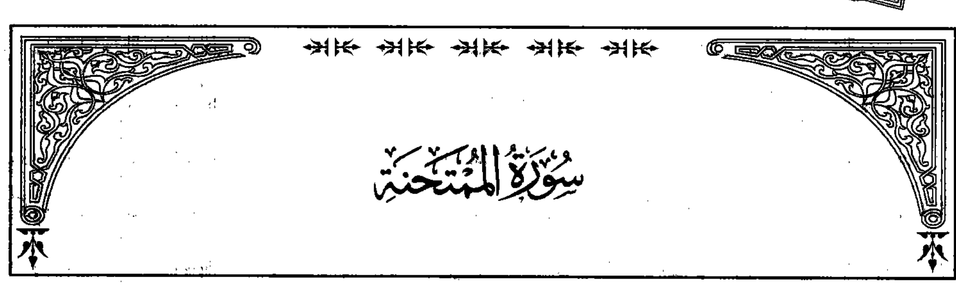
(١) انظر: تخريجه في (١/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر، وذكرتُ طرقه ومخارجه بما لا مزيد عليه ـ إن شاء الله ـ في تعليقي على «فنون العجائب» (رقم ٣٥ ـ ٤٨) للنقاش.

(٣) انظر منه: (ص٢٢٩ وما بعد ـ ط. الشيخ ربيع).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٨)، والترمذي (٣٥٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٩٥) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٩) ـ، وابن ماجه (١٣٨٥)، وعبد بن حميد (٣٧٩)، وابن خزيمة (١٢١٩)، والحاكم (١/ ٣١٣، ٥١٩)، وصححه شيخنا الألباني وتكلمت على طرقه بإسهاب وتطويل في تعليقي على «الحنائيات» (٩٣) وفرغت منه، وهو قيد النشر، يسر الله ذلك بمنّه وكرمه.

(٥) انظر منه (ص١٧٧) وما بعد ـ ط. الشيخ إسماعيل الأنصاري.



سورة الممتحنة

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٦]

قال (ك): «سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة، قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة مال وأولاد[1]، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أولاد ومال».

النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم[(١)]، وقال: «**اللهم عَمِّ عليهم خبرنا**»[(٢)].

فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ [من غزوهم][(٣)] ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله[(٤)] ﷺ استجابة لدعائه، فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها.

وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته، رواه الجماعة إلا ابن ماجه بسندهم عن علي قال: «بعثني رسول الله ﷺ، أنا والزبير والمقداد فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها**»، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب! ما هذا؟**» قال: لا تعجل عليّ إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه صدقكم**»، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ له: «**قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطَّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[(٥)]. فقوله[(٦)] تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ يعني:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لعدوهم».

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢/ ٧٣ ـ ٧٥)، و«الكبير» (٢٣/ رقم ١٠٥٢) من حديث ميمونة، وفيه يحيى بن سليمان بن نضلة، وهو **ضعيف**، قاله الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٦٤).

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسوله على ذلك».

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٠٧، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٨٥)، وأحمد (١/ ٨٠)، والحميدي (٤٩)، وأبو يعلى (٣٩٤، ٣٩٨)، وابن حبان (٦٤٩٩)، والبيهقي (٩/ ١٤٦) وفي «الدلائل» (٥/ ١٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقال»!

المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين[١] الذين شرع الله عداوتهم، ومصارمتهم، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب لما[٢] ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقال الإمام أحمد بسنده[٣] عن حذيفة قال: ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً قال: «**إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهلُ تجبُّرٍ وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا**[٤] **إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه**».

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده [لا شريك له][٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم [من] ذنب، إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والمؤمنين».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مما»!

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥/ ٣٩) وفي «مسنده» ـ كما في «إتحاف الخيرة» (٥٧٨) للبوصيري ـ **وإسناده ضعيف**، فيه قيس بن أبي مسلم مجهول، والأجلح هو ابن عبد الله الكندي ضعيف.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٣٥): «رواه أحمد وفيه الأجلح الكندي وهو ثقة وقد ضعف، وبقية رجاله ثقات».

(٤) بعدها في الأصل: «لهم»!

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨] وكقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله[١] تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِىۚ﴾ أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم، وسخطاً لدينكم.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ﴾ أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم[٢] بالمقال والفعال، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ويحرصون[٣] أن لا تنالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة ظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا[٤] تهييج على عداوتهم أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾[٥] عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر عمله وضل[٦]، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً من نبي من الأنبياء، قال الإمام أحمد بسنده عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «**في النار**» فلما قفى دعاه فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[٧]».

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ . . .﴾ إلى آخره، قال (ﷺ): «يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكفار[٨]

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وكقوله»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ينالوكم»!

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».

(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل!.

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: ﴿أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: قراباتكم لا تنفعكم.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وضل عمله».

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٨)، ومسلم (٢٠٣)، وأبو داود (٤٧١٨)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٥١١ ـ ٥١٣) بتصرف.

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الكافرين».

وعداوتهم ومجانبتهم والتبرؤ منهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾: تبرأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينكم وطريقتكم[1]، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾؛ يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم، فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي: إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد[2].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله[3] ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ليس لكم في ذلك أسوة، أي: في[4] الاستغفار للمشركين.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طريقتكم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنداد والأوثان».

(٣) أخرجه الطيالسي (١٣١)، وأحمد (١/ ٩٩، ١٣٠، ١٣١)، وأبو يعلى (٣٣٥، ٦١٩)، والبزار (٨٩٣، ٨٩٤)، وإسحاق بن راهويه وابن أبي شيبة ـ كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٠٦) ـ في «مسانيدهم»، والترمذي (٣١٠١)، والنسائي (٤/ ٩١)، وفي «الكبرى» (٢١٦٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٣)، وابن جرير (١١/ ٣٢) كلاهما في «التفسير»، والطحاوي في «المشكل» (٢٤٨٠، ٢٤٨١، ٢٤٨٢)، والحاكم (٢/ ٣٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٧، ٩٣٧٨) من حديث علي بإسناد حسن، وحسنه شيخنا الألباني في «أحكام الجنائز» (ص٩٦).

(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، فلجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه، فقالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلمنا أمورنا إليك، وفوضناها إليك، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المعاد في الدار الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[(١)] معناه: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يضام من لاذ بجانبك، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك، ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم، ومستثنى منه ما تقدم أيضاً، لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عما أمر الله به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[(٢)] والغني هو الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان[(٣)] الله الواحد القهار، والحميد المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره ولا رب سواه»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قصة حاطب بن أبي بلتعة تدل على بُعد نظر النبي ﷺ وسعة حلمه وكرمه، فإنه غفر لهذا الرجل هذه الخطيئة مع شدة خطرها، لأنها سيئة واحدة تقابلها حسنات كثيرة، وأعظمها كونه من أهل بدر، قال الشاعر وأجاد:

وإذا الحَبيبُ أتى بذَنْبٍ واحدٍ ... جاءت محاسنُه بألفِ شَفيعِ[(٥)]

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس».

(٣) كذا في مطبوع ابن كثير. وفي الأصل: «سبحانه».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥١٣ _ ٥١٥).

(٥) البيت في «نفح الطيب» (٧/ ١٥٢ _ ط. دار الفكر) من غير نسبة.

على أن الله سبحانه كفى نبيه والمؤمنين شر هذه الخطيئة، فإنه أطلع نبيه عليها فأرسل الفرسان الثلاثة، وجاؤوا بالكتاب، فبقي أهل مكة في غفلة حتى أخذوا على غرة، والنبي ﷺ أحلم الناس وأحزمهم، والجمع بين الحلم والحزم هو الكمال.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: من والى العدو فهو عدو، قال الشاعر(١):

تُحِبُّ عَدوي ثُمَّ تَزعم أنَّني صديقُك إنَّ الحبَّ عنكَ لعَازِبُ

ولا يتم توحيد أحد ولا يكون مخلصاً دينه لله حتى يحب في الله ويبغض في الله، ويوالي لله ويعادي لله، ولا يداهن أحداً من المشركين، بل يعلن لهم عداوته لدينهم وتبرؤه منه، وقد وضح الله ذلك بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ أي: اقتداء في إبراهيم والذين معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فمن أقرَّ أهل الشرك على شركهم فهو مشرك، وإن كان يعتقد بطلان الشرك وصحة التوحيد.

ألا ترى أن الله سبحانه سمى علماء اليهود مؤمنين بالطاغوت، لما استحسنوا ما عليه المشركون حين ذهبوا إلى مكة ليحرضوا أهلها على قتال النبي ﷺ، فسألهم أهل مكة: أينا أهدى سبيلاً نحن أم محمد؟ فقال علماء اليهود: أنتم أهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى فيهم من سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢](٢) ولم يكن اليهود يؤمنون بطاغوت أهل مكة، ولكن لما أقروهم على ذلك سماهم الله مؤمنين به، هذا في الموالاة في الدين.

وأما المعاملة في أمور الدنيا كالبيع والشراء ونحوه فجائزة، ومعاملة المعاهدين بالعدل والبر جائزة، لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ

---

(١) البيت في «المختار من شعر بشار» (٢٣)، ونسب لصالح بن عبد القدوس في «حماسة البحتري» (١٧٦ ـ ١٧٧)، وللعتابي في «عيون الأخبار» (٣/٦)، و«العقد الفريد» (٢/٣٠٧)، ولعبد الله بن مخارق في «الحماسة البصرية» (٢/٤٣) وهو بغير عزو في «الصداقة والصديق» (٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ وقال تعالى في المائدة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: ٥١].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٢، ١٣]

قال (ك): «قال البخاري[١] بسنده عن عائشة: إن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: **«قد بايعتك»** كلاماً ولا [مصافحة][٢] والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقوله: **«قد بايعتك على ذلك»**.

وروى (ت) و(ج) و(ن)[٣] عن أميمة بنت رُقيقة[٤] قالت: أتيت النبي ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً... الآية، وقال: **«فيما استطعتن وأطقتن»**، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: **«إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩١).
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) أخرجه أحمد (٦/٣٥٧)، والحميدي (٣٤١)، والطيالسي (١٦٢١)، والترمذي (١٥٩٧)، وفي «العلل الكبير» (٢/٦٨٢)، والنسائي (٧/١٤٩) كتاب البيعة، باب بيعة النساء، وابن ماجه (٢٨٧٤)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب السير، باب: بيعة النساء (٧٨١٣، ٨٧٢٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٣٤٠، ٣٣٤١)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ رقم ٤٧٢ ـ ٤٧٦)، والدارقطني (٤/١٤٧)، الحاكم (٤/٧١)، **وهو صحيح**.
(٤) في الأصل: «رقية»! وهو خطأ، صوابه «رقيقة».

كقولي لمائة امرأة»(١).

قال محمد تقي الدين: وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ أخذ العهد على النساء زيادة على ما في القرآن «**أن لا يخن ولا يغششن أزواجهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى**»(٢)، وفسر النبي ﷺ غش المرأة زوجها أن تأخذ من مال زوجها وتحابي به غيرها.

وعن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ، فهل عليَّ جُناحٌ إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك**»(٣) (م).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما يفعله بعض الجاهلات من النساء تمنع نفسها بدواء أو غيره، لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، ويشهد لهذا الحديثُ الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «**أيما امرأة أدخلت على قوم مَنْ ليس منهم فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين**»(٤).

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، وابن إسحاق في «المغازي» ـ كما في «الإصابة» ـ وابن سعد (٨/ ٩)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٤٠٤)، وأبو يعلى (٧٠٧٠)، والطبراني (٢٤/ رقم ٧٥١، ٧٥٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٧/ ١٤٩ ـ ١٥٠) من حديث سلمى بنت قيس، **وإسناده ضعيف**، فيه سليط بن أيوب، انفرد ابن حبان بتوثيقه، وللحديث شواهد عديدة. وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٤١): «رجاله ثقات»!

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٦٣)، ومسلم (١٧١٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٢٦٣) والنسائي (٢/ ١٠٧) والدارمي (٢/ ١٥٣) وابن حبان (١٣٣٥) والحاكم (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) والبيهقي (٧/ ٤٠٣)، وفيه عبد الله بن يونس، مجهول، ما روى عن سوى يزيد بن الهاد، انظر «الفتح» (١٢/ ٥٤)، و«الإرواء» (٢٣٦٤)، و«السلسلة =

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾. قال (ﷺ): «ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار؛ ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء؟ وقد يئسوا من الآخرة، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الكفار الأحياء من قرابتهم[(١)] الذين في القبور، أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه[(٢)]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: جعل الحافظ (ﷺ) قتل الولد بعد الولادة كقتله وهو جنين في بطن أمه، وبقي لنا أن نعرف ما حكم قتله وهو نطفة، والجواب ـ والله أعلم ـ إن إفساد النطفة إن كان للمحافظة على صحة الوالدة أو حفظ حياتها أو على صحة الأولاد كأن تكون مغايلة تلد في كل سنة ولداً وليس لها من يعينها على تربيتهم فيجوز لها أن تشرب دواء منع الحمل[(٣)] حتى ترضع ولدها سنتين، وبعد ذلك يحرم عليها أن تشربه.

أما من يفعل ذلك لضيق المعيشة فهو فاسق آثم، لا يؤمن بأن الله لا يخلق مخلوقاً إلا وقد أعدَّ له رزقه، وقد ألَّفت في ذلك جزءاً سميته: «الكواكب الدرية في حكم تحديد الذرية والسلامة من الأمراض المعدية»[(٤)] وأبطلت كل حجة

= الضعيفة» (١٤٢٧)، و«ضعيف سنن أبي داود» (١٠/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، رقم ٣٨٩) وفيه: «والشطر الثاني منه صحيح، له شاهد قوي من حديث ابن عمر في «الصحيحة» (٣٤٨٠)».

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قراباتهم».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧).

(٣) رجعت عن هذا وأنا أعتقد أنه لا يجوز لها شرب الدواء لهذا الغرض. (منه).

قال أبو عبيدة: إعمالاً لقاعدة (المتوقع كالواقع) لا يجوز قتل الجنين وهو نطفة، إلا إن هدد بقاؤه حياة الأم، فحينئذٍ الضرورة لها أحكام!

(٤) نشره بعنوان «رأي في تحديد النسل والعدوى» على ثلاث حلقات في مجلة «دعوة الحق» =

يحتج بها المخالفون، وحسبهم دليلاً على بطلان مذهبهم ما رواه مسلم والخمسة عن جذامة بنت أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: **«لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرتُ في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً»** ثم سألوه عن العزل؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ذلك الوأد الخفي، وهو المؤودة الصغرى»**[1]. اهـ.

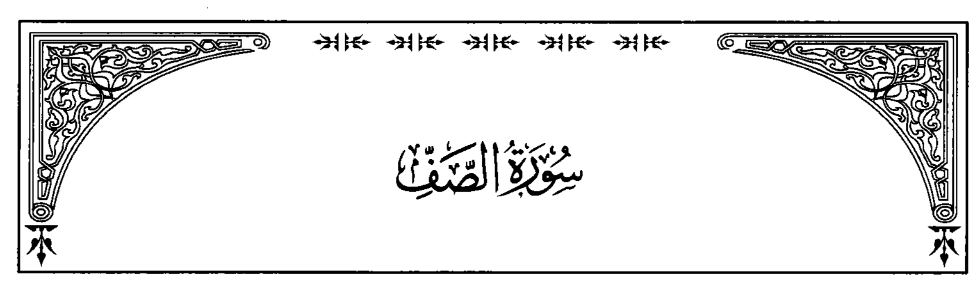
قال محمد تقي الدين: والوأد الجلي هو دفن البنت وهي حية، وكانت العرب تفعل ذلك خشية أن تكبر وتزني، فيلحقهم عارها.

وتأمل تقديم عدم الشرك بالله على السرقة والزنا وقتل النفس والبهتان تزدد يقيناً أن التوحيد هو كل شيء، وبدونه لا يقبل شيء، وإن الشرك هو الذنب الأكبر الذي لا يغفر.

فائدة ثانية: تأمل نهي الله تعالى عن موالاة الكفار في الآيات الأولى من هذه السورة، ثم ختمه السورة بذلك، تعلم أن من لم يتبرأ من الشرك وأهله لا يكون موحِّداً.

= المغربية، السنة السادسة، الأعداد (٦، ٧) والسنة السابعة (العدد الثاني) سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤م. ونشر أيضاً في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية على خمس حلقات، المجلد العاشر (الأعداد ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢) سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، وهو فيها بعنوان (حكم الإسلام في العزل والعدوى) وهذا أدق وأحسن.

(١) أخرجه مسلم (١٤٤٢)، والترمذي (٢٠٧٧)، وأبو داود (٣٨٨٢)، والنسائي (٣٣٢٦).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٧ ـ ٩]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: يحاولون أن يَرُدوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك[1] ذلك مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾. اهـ. وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم في هذا الزمان أصناف:

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كذاك»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٤٨ ـ ٥٤٩).

أولهم: المرتدون الذين كفروا بالله تقليداً لدعاية كاذبة خاطئة، وهذه الدعاية شائعة في البلدان التي كان أهلها متمسكين بالإسلام في الأزمنة الغابرة في آسية وإفريقية، وحاصلها: إن الإسلام إن كان صالحاً في الزمن الماضي لترقية الشعوب، وأخذ نصيبها من القوة المادية، وتحصيل المعيشة السعيدة والسيادة الكاملة، فإنه في هذا الزمان لا يتفق مع الأخذ بأسباب الحضارة والرُّقيّ، فكل أمة تمسكت به تبقى متأخرة تسير إلى الوراء، ولا تكاد تدرك شيئاً من الحضارة العصرية، فإذا قيل لهم: وما دليلكم على هذا؟ يزعمون أن الأوروبيين تركوا دينهم وتقدموا، فلا يمكن أن نتقدم إلا إذا سلكنا سبيلهم.

فنقول لهم: أولاً نحن لا نسلّم أبداً أن الأوروبيين تركوا دينهم، فإنهم لا يزالون متمسكين به، ولا نكلفكم أن تذهبوا إلى بلادهم لتعلموا أنكم كاذبون، بل نرشدكم إلى أدلة في بلادكم، فعدوا الإرساليات والكنائس التي في بلادكم للطوائف المختلفة من النصارى تجدوها كثيرة، فيها رجال ونساء قد تغربوا عن أوطانهم وتحمَّلوا الشدائد والأخطار في سبيل نشر دينهم، وقد سمعتم عدد من قتل منهم في كونكو، ولا حاجة بكم إلى أن تبحثوا عن جهودهم في البلاد الأخرى، فحسبكم ما يصنعون في بلادكم، وما أسَّسوه من الوسائل الطبية والتعليمية، ولكنكم تكذبون وتغالطون وتقلدون، ثم انظروا إلى الحرب القائمة في إيرلندا بين الكاثولكيين والبروتستانتيين منذ سنين ولا سبب لها إلا الاختلاف في الدين.

على أن دينهم وإن كان لا يصلح للحضارة، فإن ديننا ليس كدينهم، والعالم كله يشهد بعظمة الحضارة التي أسسها المسلمون في العصور التي كان الإسلام فيها قويّاً عزيزاً، وحسبكم أن الإسلام في أواخر زمانه تصارع مع الصليب في الحروب الصليبية مدة مائة وتسعين سنة، فانهزم الصليبيون أمامه مع كثرة عَدَدهم وعُدَدهم.

وسيقول المقلّدون لأعداء الإسلام: هذا بكاء على الأطلال، أرونا ما صنع الإسلام في هذا الزمان، أقول لهم كما قلت من قبل: **أوجدوا لي إسلاماً، أعطكم كل ما تريدون من قوة وعظمة وتقدم في جميع الميادين**، فهل تريدون من المسلمين أن يقوموا من قبورهم ليدافعوا عنكم ويبنوا لكم حضارة جديدة؟ وقد جربتم الكفر التقليدي مئات السنين، فجربوا الإسلام سنة واحدة إن كنتم صادقين.

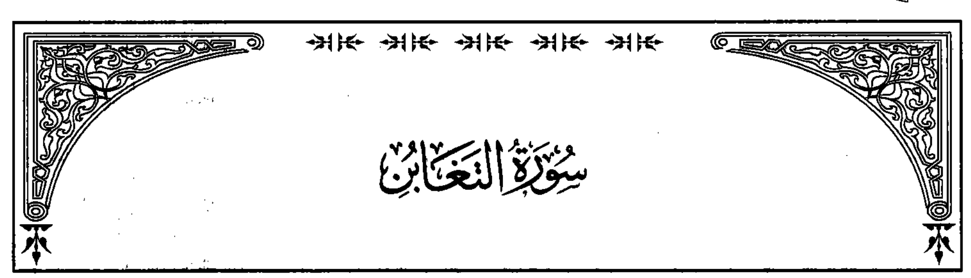
وثانيهم: المدَّعون للإسلام بألسنتهم مع عدم تطبيقه لا عقيدة ولا عبادة ولا حكماً، فهؤلاء يدعون الإسلام بأقوال مجردة.

والدَّعاوى ما لم يقيموا عليها بيِّناتٌ أبناؤها أدعياءُ

وثالثهم: الأعداء الخارجيون، وهم المتعصبون من النصارى في أوربة وأمريكة، والمتعصبون من الوثنيين في الهند وغيرها من الأمم الوثنية، ونحن نسمع المذابح التي تجري على المسلمين في أنحاء الهند وفي فلبيين وفي أريتريا.

رابعهم: علماء السوء، الذين باعوا دينهم بدين غيرهم، وكتموا الحقَّ وغشوا شعوبهم جرياً وراء الحطام، فضيَّعوا الدين ولم يدركوا الدنيا، وهذه الأصناف تبذل جهودها لإطفاء ما بقي من نور الإسلام، وليس الإسلام بملوم، لأنه قد أسعد من تمسك به وخلّف كنوزاً عظيمة من الآثار والعلم والمعرفة التي لا يجحدها إلا من يجحد الشمس المشرقة في يوم الصحو ومضى حميداً.

تلك آثارُنا تدلُّ عَلينا فانْظُروا بعَدْنا إلى الآثارِ



سُورَةُ التَّغَابُنِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾

[التغابن: ١٣]

قال (ك): «يخبر تعالى[١] أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره، وقال[٢] تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له وأخلصوها له[٣] وتوكلوا عليه كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمل: ٩]»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تدل على التوحيد بأنواعه، ومن أعظم ثمرة التوحيد: التوكل على الله في جلب الخير ودفع الشر، ومن توكل على مخلوق وكله الله إليه، فتأمل قول النبي ﷺ: «**من تعلَّق شيئاً وكِّل إليه**»[٥]، أتفهم هذا المعنى؟ فإن من تعلق تميمة أو حلقة من صفر يريد بذلك الشفاء من مرض واقع والتحصن به دفعاً لوقوعه، فقد أشرك.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب «التوحيد» ما نصه: («باب ما جاء في الرقى والتمائم»): في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري [رضي الله عنه] أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يَبْقَيَنَّ في رقبة بعير قلادة من وَتَر أو قلادة إلا قطِعَت[٦]. وعن ابن مسعود [رضي الله عنه] قال: سمعت

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال تعالى مخبراً».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الديه».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٢١). (٥) سبق تخريجه.
(٦) أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»(١)، رواه (أ) و(د) وعن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في تعليق التمائم (٤/ ٦) رقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه في كتاب الطب، باب تعليق التمائم (٢/ ١٦٦٦ ـ ١٦٦٧) رقم (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١)، وأبو يعلى (٥٢٠٨) في «مسنديهما»، وابن حبان رقم (١٤١٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» رقم (١٠٥٠٣)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧) رقم (٣٢٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
قال أبو عبيدة: ليس كذلك، ففيه أحمد بن أبي شعيب لم يخرج له مسلم، ويحيى بن الجزار لم يخرج له البخاري. وانظر لزاماً: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٧٢)، وقارنه بما فيها رقم (٣٣١) أيضاً.
وأخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٤/ ٥٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٨٦٢ و٨٨٦٣) موقوفاً على ابن مسعود وله حكم الرفع، كما هو مقرر في علم المصطلح.
والحديث بمجموع طرقه حسن ـ إن شاء الله تعالى ـ.
والمراد بـ(الرُّقى): ما كان بأسماء الأصنام والشياطين، لا ما كان بأسماء الله وصفاته، ويؤيده:
ما أخرجه أحمد (١/ ٣٨٠)، والطيالسي (٣٩٦)، وأبو يعلى (٥٠٧٤، ٥١٥١) في «مسانيدهم»، وأبو داود (٤٢٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩٣٦٣)، و«المجتبى» (٧/ ١٤١)، والبيهقي (٧/ ٢٣٢ و٩/ ٣٥٠) في «سننهم»، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٨٢) عن ابن مسعود، قال: كان رسول الله ﷺ يكره عشر خلال، وذكر من بينها: «والرُّقى إلا بالمعوِّذات».
قال القاسمي في «قاموس الصناعات الشامية» (ص٢٣١ وما بعدها) عند (الراقي):
«والمحترفون بهذه الحرفة في غاية من الكثرة، وبعضهم أكثر رواجاً من بعض، يأتي إليهم النساء ـ وهو أكثر زبائنهم ـ هم البسطاء من الرجال، ويشكون إليهم مرضاً عَسُرَ بُرؤُه، أو وسواساً، أو أحلاماً مخيفة، أو سرقة دراهم، أو حليّ، أو دابة، أو نكاية عدو، أو ضرة، ويطلبون منهم حجباً، فعند ذلك يقرأ الراقي على المرقي، وينفث عليه، ويعده بتميمة يعلقها أو ورقة كذلك، ولكن بعد أن يشترط عليه من الدراهم مقداراً، ومن البخورات، ومن أدوات الحجاب ما شاء هواه، وقلة دينه وتقواه، وأكله أموال الناس بالباطل الذي ما أنزل الله به من سلطان.
كثر في هذه الحرفة الدجالون والمتكهنون والجهلة كثرة عجيبة، نساءً ورجالاً، ولم يزل الاعتقاد فيهم قويّاً، رغماً عن أخذ الكون بالتنبه وترقي الأفكار، ولكن لا عجب، فهل يخلو الكون من الحمقى والأغرار والمغفلين؟ هيهات! فما دام هؤلاء في هذا الوجود كانت معيشة أولئك عليهم، ماذا يعدّ المرء من مخازي كثير من الأشقياء المحترفين بهذه الحرفة الأبالسة، وكم كانوا سبباً في هتك أعراض وفراق أزواج، وكم ارتكبوا الفواحش في مخدَّرات يأتين إليهم ويلقين إليهم القياد تخلصاً مما ألمّ بهن، ويعتقدون الشفاء أو =

= النجاح في الأمل عندهم!» قال:
«وقد حكى الثقات عن دجّال سكن ظاهر البلدة، أنه كان يكتب للمرأة على بطنها ويقول لها: لا يؤثر إلا هنا، وكان كلما كتب يلحس، كأنه غلط، ليستأنف الكتابة، قبحه الله!
وقال آخر - مرة - لامرأة: هذه التميمة لا تكتب إلا بماءين ماء رجل وماء امرأة، حتى اضطرها بخداعه إلى أن سلّمته نفسها، وأوهمها أنه يأخذ ماءها وماءه عليه لعنة الله، فنمي إلى وجيه في قرب من محله، فذهب إليه وجلده ما لا يعدّ، وطرده من محله.
دع عنك تكشّفهن أمامهم، والعشرة اللعينة، والتكسر، والتخنث مما هو منكر بإجماع الملل والنحل، نعم، يوجد منهم من ظاهره الكمال، ولكن من حام حول الحمى...
وحدثني أحد صالحيهم (!!) أنه بالرغم عنه يأتي ليرقي، وأنه ما كلمته امرأة إلا وأمذى؛ فتأمّل، وهذا صالحهم؛ فكيف بغيره؟!
ولهم عجائب في اقتراح الخيوط، والحرير، والأوعية، والحبر، والإتيان بعصفور أو صرصور، ووضعه حيّاً في «قُزَيِّزة» على حجمه، ولحمها وسدها عليه، وكذلك الكتابة على أسفل القدم أو بالدم وغير ذلك...!
وأقل أحوال هذه الحرفة الدنيئة أن يدخلها الكذب والخداع رغماً عن كل احتياط وتورّع، أليس يقول للمرقي: ائتني بوعاء لأكتب عليه، وهاته في الوقت الفلاني، وإياك أن تتأخر... تدليساً وتلبيساً؟ ولو أن هؤلاء الراقين درسوا علم النجوم ومطالعها؛ لكان يقال: هؤلاء يريدون أن ينهجوا منهج الفلاسفة المنجمين، فينتقل الكلام معهم إلى بحث التنجيم واعتماد المطالع، فحينئذٍ يقال: رجعوا إلى علم، ومشوا مع قواعد الفن، وأما هؤلاء فلا علم ولا عمل، ولا دين ولا تقوى.
يقول بعضهم مستدلًّا بجواز الرقية بأنه ﷺ أقرّ أبا سعيد الخدري على رقية من لُدغَ بعقرب وأقره وجماعته على أخذ الشياه في مقابلتها.
فأولاً: يقال له: ذهب كثير من العلماء إلى أن ذلك خصوصية لأبي سعيد وجماعته؛ لحالة اضطروا إليها، والعصر عصر النبوّة، وهي قضية عين لم يسمع بنظيرها في عهد ﷺ من غير أبي سعيد، وكان الشفاء بالرقية بها معجزةً له ﷺ، وكرامةً لأصحابه.
وثانياً: لو تنزلنا وقلنا: إنها ليست بخصوصية[1]، فإذا كان الراقي يقتصر على الفاتحة لا يتعدّاها ويأخذ أجرة في مقابلتها فلا بأس، وإن كان يزيد عليها من عندياته ليطيل ذيل القضية بالبهللة والخزعبلات فأنى يحل أكل أموال الناس بالباطل والخداع والتلبيس؟
أرأيت كيف أصبح بعضهم يشترط في الرقية ما يشترطه المحامون ووكلاء الدعاوى؟ فقد يذهب بعض المغفلين إلى بعض المشتهرين ويرجوه أن يذهب لرقية مريضه، فيقول: لا أذهب إلا بأربع ليرات أو أكثر سلفاً، ثم إذا شفي فلي مثلها، فيذهل، ويخلط في =

---

(١) هذا هو الأصل، وهو الصواب، وقضايا الأعيان - على الراجح - لها عموم.

عبد الله بن عكيم[١] مرفوعاً: «**من تعلق شيئاً وكل إليه**»[٢]، رواه (أ) و(ت)»[٣].

عن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة»[٤].

رواه وكيع، وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»[٥].

وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر

= الشروط والاقتراحات، ووضع الأوراق وتبخيره بها، وإذا لم يجد أهل المريض نجاحاً وسألوه، يقول لهم: أخطأتم شرطي، أما قلت لكم: ايتوني بالصحن في وقت كذا، واسقوه وقت كذا، ولا تفعلوا إلا كذا؟ أكاذيب، وأضاليل، وتمويهات، واختلاس أموال الغير بالباطل، فإنا لله، ولا قوة إلا بالله.

ولو أراد المتفرغ أن يكتب في شأنهم، وأحوالهم، وخداعهم، وتلاعبهم مع النساء، وحكايتهم معهن، وما نقل من المنكرات عنهم؛ لاحتاج إلى مجلدات، وفيما ذكرنا كفاية، نسأله ـ تعالى ـ أن يعافينا وذرّياتنا من بلائه، ويجنّبنا وإياهم ما لا يرضاه؛ فإنه لا يرضى عن القوم الفاسقين».

* **فوائد فقيهة:**

الأولى: جاء في «الصحيح» عن النبي ﷺ في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**إنهم لا يسترقون ولا يكتوون...**».

أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٤١٠، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، ومسلم في «صحيحه» رقم (٢٢٠)، وعنده: «**لا يرقون**»، وهي شاذّة.

فمدحهم على أنهم لا يطلبون الرقية.

الثانية: قال الخطابي: «جاء المنع فيما كان بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك».

الثالثة: وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به، فضلاً عن أن يدعو به ولو عرف معناه؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام.

وقال السيوطي: «قد أجمع العلماء على جواز الرُّقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وما يعرف معناه، وأن يعتقد أنّ الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله ـ تعالى ـ».

الرابعة: ما يعلق على الصبيان في أعناقهم ـ من خرزات وعظام ـ لدفع العين، نهي عنه أشد النهي، بل عُدَّ من الشرك، كما في حديث أبي بشير الأنصاري السابق.

(١) في الأصل: «حكيم»! وهو خطأ، صوابه المثبت.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٥٢٤).

(٥) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٢٢).

فقال: «**ما هذه؟**». قال: من الواهنة، فقال: «**انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**»[١]. رواه (أ). و(الواهنة)؛ قال أبو السعادات[٢]: «الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها فيُرْقى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العَضُد[٣]، وهي تأخذ الرجال دون النساء، وإنما[٤] نهى عنها، لأنه إنما اتخذها على أنها تعصِمُه من الألم». وفيه اعتبار للمقاصد»[٥].

---

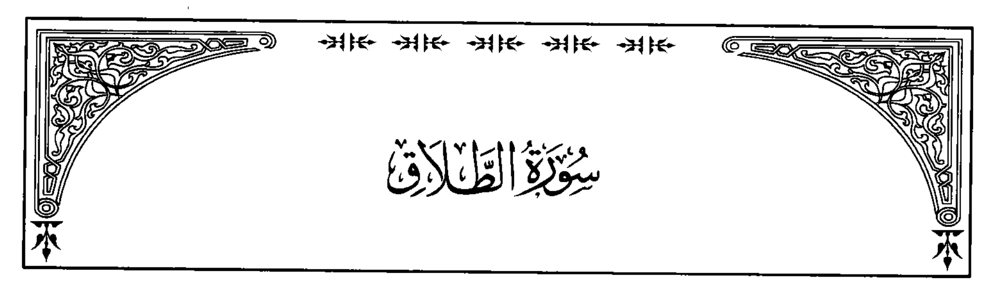
(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه (٣٥٣١)، وابن حبان (٦٠٨٥، ٦٠٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ رقم ٣٤٨، ٣٩١)، والحاكم (٤/ ٢١٦)، والبيهقي (٩/ ٣٥٠ ـ ٣٥١)، **وإسناده ضعيف**، الحسن البصري لم يسمع من عمران، والراوي عن الحسن في جل طرقه مبارك بن فضالة مدلس وقد عنعن، ولم يصرح بالتحديث. ورواه جمع عن الحسن عن عمران موقوفاً عليه، أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٤٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ١٤)، والطبراني (١٨/ رقم ٣٥٥، ٤١٤)، وانظر: «الضعيفة» (١٠٢٩)، وانظر: «كتاب التوحيد» (ص١٩).

(٢) انظر: «النهاية» (٥/ ٢٣٤).

(٣) بعدها في مطبوع «النهاية»: «وربما عُلِّق عليها جنس من الخَرز، يقال لها: (خرز الواهنة)، وهي. . .».

(٤) من مطبوع «النهاية» و«فتح المجيد» وسقطت من الأصل.

(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).



سُورَةُ الطَّلَاقِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]

قال (ك): «ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله، وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو عليَّ الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال: **«يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم»**، قال: فجعل يتلوها ويرددها عليَّ حتى نعست، ثم قال: **«يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من مكة؟»** قال: قلت: إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة، قال: **«وكيف تصنع إذا أخرجت من الشام؟»** قلت: إذاً والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، قال: **«أو خير من ذلك؟»** قلت: أو خير من ذلك، قال: **«تسمع وتطيع وإن كان عبداً حبشيّاً»**[(١)].

وفي المسند[(٢)] عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كلِّ همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»**.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩)، والدارمي (٢٧٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٠٣)، وابن ماجه (٤٢٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٩٥)، والحاكم (٢/ ٤٩٢) ـ وبعضهم اختصره ـ **وإسناده منقطع**. قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٢٦): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلّا أن أبا السَّليل: ضُرَيب بن نُفَير لم يدرك أبا ذر».

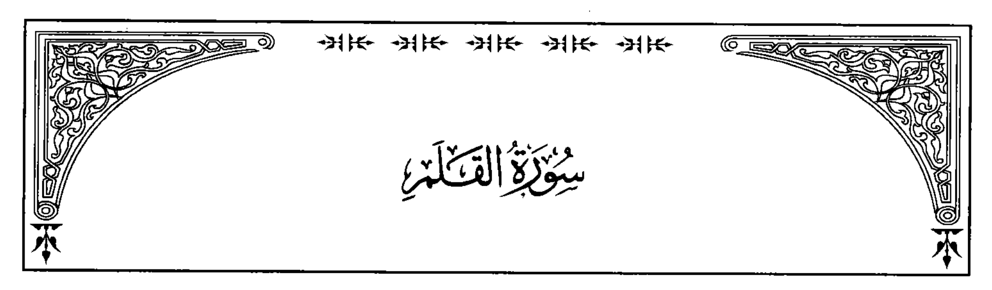
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨)، وأبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٦)، والطبراني في «الكبير» (١٧٧٤) وفي «الدعاء» (١٧٧٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة (٣٦٤)، والحاكم (٤/ ٢٦٢)، والبيهقي (٣/ ٣٥١)، **وإسناده ضعيف**، فيه الحكم بن مصعب مجهول. وضعفه شيخنا الألباني، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٣٢).



فصل

قال محمد تقي الدين: التقوى: امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وأعظم ما أمر الله به توحيده، وأعظم ما نهى الله عنه الشرك به، فلو امتثل الإنسان جميع الأوامر إلا التوحيد، واجتنب جميع النواهي إلا الشرك، لكان من الخاسرين، وقد تقدمت الأدلة على ذلك.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)﴾ [القلم: ٤١ ـ ٤٣]

قال (ك): «﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾. ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾.

«لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم(١) جنات النعيم، بيَّن متى ذلك كائن وواقع، فقال(٢) تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)﴾ يعني: يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء(٣) والامتحان والأمور العظام، وقد روى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً**»(٤).

وقوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه لما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب ﷻ فيسجد(٥) له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكفار(٦)

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنده».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وقال».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والبلابل».
(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٩)، ومسلم (١٨٣).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسجد».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الكافرين».

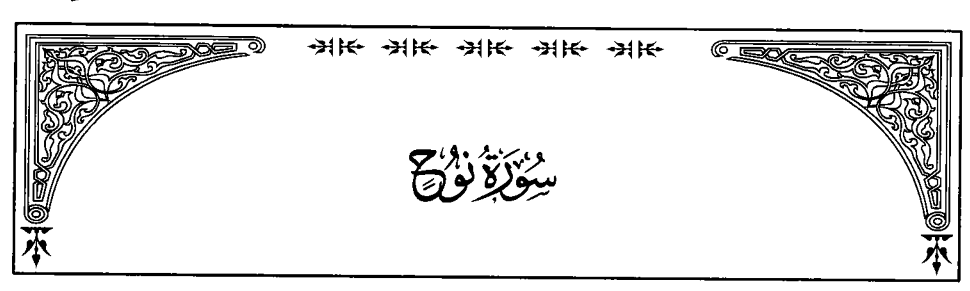
والمنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ على قفاه[١] عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: يلبِّس إبليس على المشركين في الدنيا ويلعب بهم، فيزعمون أن شركاءهم وأولياءهم يقضون حاجاتهم حين يستغيثون بهم، ولكن الله تعالى يفضحهم يوم القيامة؛ ويظهر كذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فلا يجدون شيئاً، ويجللهم الخزي والعار، ويتبرأ منهم إبليس، فيندمون، ولات ساعة مندم. وحديث: **«يكشف الله عن ساقه»**[٣]. تلقاه الصحابة والتابعون بالقبول والتسليم مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ورده الجهمية المعطلون، فيخشى عليهم أن يدعوا إلى السجود فلا يستطيعون.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لقفاه».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٩٨ ـ ١٠٠).
(٣) هو في «الصحيحين» كما تقدم.



سورة نوح

الباب الأول

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: ١ ـ ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن

ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ أي: بيّن النذارة ظاهر الأمر واضحه، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن[1] ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما آمركم[2] به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم».

قال (ك): «﴿مِّن﴾ هٰهنا بمعنى: عن، تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما[3] نهاكم عنه أوقعه بكم، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث: «**صلة الرحم تزيد في العمر**»[4].

---

(١) غير موجودة في الأصل!
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمرتكم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تنزجروا عما».
(٤) أخرجه بهذا اللفظ الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٣٨٦) والديلمي في «مسند الفردوس» وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ـ كما في «كنز العمال» (٣/ ٣٥٧) ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ١٥٩)، والبيهقي في «الشعب» ـ كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص١٣٩) ـ من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن حديث طويل، وأخرجه مختصراً دون الشاهد: عبد بن حميد (١٥٢٣)، وأبو يعلى (٤٥٣٠)، وابن عدي (٤/ ١٦٠٥)، والقضاعي (٤٤٤، ٤٤٦)، والبغوي (٣٤٩١)، وأبو نعيم (٩/ ١٥٩).
وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٢٤) وتبعه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥٣): «رواه أحمد ورواته ثقات إلّا أن عبد الرحمٰن بن القاسم لم يسمع من عائشة»!!
قلت: في مطبوع «المسند» بين عبد الرحمٰن وعائشة القاسم وسماعه من عائشة ثابت صحيح.
وأصل الحديث في «البخاري» (٥٩٨٦)، و«مسلم» (٢٥٥٧) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه**».
وللحديث طرق أخرى عند الأصبهاني في «الترغيب» عن أبي سعيد، كما قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٩).
وللشوكاني رسالة بيّن فيها صحة هذا الاستدلال وهي «تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل»، وكذا فعل الشيخ مرعي الكرمي أيضاً في «إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» وكلاهما مطبوع بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى يكون[(١)] ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى قوله تعالى ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾:

قال (ك): «يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح[(٣)] عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لاقى[(٤)] من قومه وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً وما بيّن لقومه ووضّح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل[(٥)] الأقوم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ونهار[(٦)] امتثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ أي: كلما دعوتهم ليتقربوا[(٧)] من الحق فروا منه، وحادوا عنه، ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: واستنكفوا[(٨)] عن اتباع الحق والانقياد له.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾ أي: جهرت بين الناس ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عالٍ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: فيما بيني وبينهم، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع[(٩)] فيهم ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ أي:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بكون».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١٣٨ ـ ١٣٩) بتصرف.
(٣) في الأصل: «عن نوح»!
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لقي».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إلى السبيل».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا نهار».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليقتربوا».
(٨) في الأصل: «استنكفوا». وبإثبات الواو في أوله في «تفسير ابن كثير».
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «أنجح»!

ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه ولو كانت ذنوبه مهما كانت[(١)] في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ أي: متواصلة الأمطار، وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي؛ فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ ثم قال: «لقد[(٢)] طلبت الغيث بمجاديح[(٣)] السماء الذي يستنزل بها المطر»[(٤)]. وقوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار خللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب.

ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ أي: لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ أي: واحدة فوق واحدة وهذا يتلقى من جهة السمع فقط[(٥)]، وإنما المقصود أن الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقد».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«مصادر التخريج»، وفي الأصل: «بمخارج»!
و(المجاديح): واحدها (مجدح)، وهو النجم من النجوم، كانت العرب تزعم أنها تمطر به، أراد عمر إبطال الأنواء والتكذيب بها، بأنه جعل الاستغفار هو الذي يستسقى به لا المجاديح والأنواء.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٩٧) رقم (٢٩٩٧٧)، وعبد الرزاق (٣/ ٨٧)، والطبراني في «الدعاء» (٢/ ١٢٥٢) وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد» رقم (٨٤)، والبيهقي (٢/ ١١٧ و٣/ ٣٥٩)، وابن حزم في «المحلى» (٥/ ٩٤) **بسندٍ رجاله ثقات، إلا أنه منقطع**، الشعبي لم يدرك عمر.
ولم يعزه ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ٢٢٢) إلا لابن أبي الدنيا. وقال شيخنا الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٤١): «**ضعيف**».

(٥) غير موجود في الأصل، والمثبت من «تفسير ابن كثير».

﴿فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلاً منهما نموذجاً[1] على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر للقمر[2] منازل وبروجاً[3].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به هٰهنا أحسن ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ أي: إذا متم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ أي: بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها.

وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السمٰوات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق[4]، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عديل له ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير»[5].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه[6]، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتّع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنموذجاً».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القمر».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال: «﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]... الآية».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جعل السماء بناء والأرض مهاداً وأوسع على خلقه من رزقه».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١٣٩ ـ ١٤١) بتصرف.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذبوه وخالفوه».

وإنظار لا إكرام، ولهذا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: عظيماً باتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق، والحق[1] كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣] ولهذا قال هٰهنا: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

قال البخاري بسنده عن ابن عباس: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد: أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمْيَر لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذ هلك أولئك وتنسّخ[2] العلم عبدت»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زمننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به»[4].

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والهدى».
(٢) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «نسخ».
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٤٢ ـ ١٤٤) بتصرف.

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ وقرئ[١] ﴿خَطَايَاهُم﴾ ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مغيث، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: (وقد يستدل بها على زيادة العمر، كما جاء في الحديث: «**صلة الرحم تزيد في العمر**)[٣]. الذي عليه المحققون وبه نطق كتاب الله أن العمر الذي قدره الله تعالى لكل إنسان لا يزيد ولا ينقص، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون: ١١] وفي الحديث الصحيح: «**إن الله تعالى يأمر الملك أن يكتب رزق الإنسان وأجله وعمله وشقي أو سعيد**»[٤]، وفق ما علمه الله تعالى في الأزل.

والبداء مستحيل على الله تعالى، وكل ما جاء بخلاف هذا وجب تأويله ورده إلى هذا الأصل، فمعنى الزيادة في العمر أن الله يبارك في عمر الإنسان الذي يعمل الصالحات حتى يعمل في المدة القصيرة ما لا يعمله غيره في المدة الطويلة[٥]،

(١) هذه قراءة أبي عمرو واليزيدي، ونسبت للحسن والأعرج وقتادة، وفي هذه الكلمة قراءات متعددة، انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٣)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/ ٥٩٩)، «النشر» (١/ ٤٣٣، ٤٨٠)، «مختصر ابن خالويه» (١٦٢)، «تفسير الرازي» (٣٠/ ١٤٥)، «روح المعاني» (٢٩/ ٩٨)، «الدر المصون» (٦/ ٣٨٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٤٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود.

(٥) يساعد عليه لفظ حديث أبي الدرداء: «**إنه ليس زيادة في عمره، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ..﴾، ولكن الرجل تكون له الذرية الطيبة يدعون له من بعده**». أخرجه الطبراني (١/ ٥١)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨)، والعقيلي (٢/ ١٣٤)، والشجري في «الأمالي» (٢/ ١٢٨)، ومداره على سليمان بن عطاء بن قيس القرشي، ضعيف.

وذهب عدد من المحققين إلى أن الزيادة حقيقية، وانتصر له الحليمي في «المنهاج في شعب الإيمان» (٣/ ٢٥٣)، وشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٩٠ ـ ٤٩١)، =

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ كل أمة عم فيها العدل والرحمة فنصرت المظلوم وأكرمت اليتيم وأطعمت المسكين وآمنت الضعيف، وسَّع الله رزقها ونصرها على أعدائها، كما قال النبي ﷺ: **«وإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»**(١)، وهذه قاعدة لا تختلف، وسنة لا تتبدل في كل زمان ومكان، فانظروا إلى أمم زمننا تروا كل أمة يعم فيها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات تروها مرزوقة منصورة عزيزة الجانب ـ سواء أكانت في الشرق أم في الغرب ـ مع اختلاف عقائدها، فإن الله تعالى إنما يعذب الأمم في الحياة الدنيا وفي الآخرة على قدر ما بلغها من العلم، وأقيم عليها من الحجج، أما السعادة الكبرى التي تكون في العاجل والآجل فهي خاصة بمن آمن بالله ورسله واتبع من أناب.

فائدة ثالثة: الغلو في قبور الصالحين ومجالسهم وآثارهم يصيّرها أوثاناً تعبد من دون الله، وهذا الغلو هو أصل عبادة الأوثان والأصنام؛ روى مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**(٢).

قال محمد تقي الدين: يجب علينا أن ننظر في العلاقة التي بين أول الحديث وآخره ما هي؟! فإن مقتضى ظاهر اللفظ أن يقال: اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم عبدوا قبور أنبيائهم واتخذوها أوثاناً، فلما قال النبي ﷺ بدلاً من ذلك: **«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم**

= وابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٤١٦).

ومن لطائف كلام ابن تيمية (١٤/ ٤٩٠) أنه زيّف الرأي الذي اختاره المصنف بقوله: «فيقال لهؤلاء: تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع، هي أيضاً مقدَّرة مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء». وبمثله قال الشيخ مرعي الكرمي في إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» (ص٥٨ ـ ٥٩ ـ بتحقيقي)، ورد الشوكاني ـ بقوة ـ حمل الزيادة على البركة، وذلك في رسالته «تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل»، وهي مطبوعة بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) سبق تخريجه.

مساجد»، علمنا أن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، أي: تحري الصلاة عندها والدعاء وبناء المساجد حولها أو إلى جانبها يفضي إلى اتخاذها أوثاناً، كما فعل قوم نوح، والآن ينبغي أن ننظر هل استجاب الله دعاء رسوله وحفظ قبره من عبادة المشركين له واتخاذه وثناً أو لا؟ والجواب: إن الله استجاب دعاءه وصانه بثلاثة جدران:

الأول: جدار بيت عائشة.

والثاني: الجوْجؤ المثلث الذي بناه التابعون حتى لا يستطيع الجهال أن يستقبلوا قبر النبي ﷺ في صلاتهم، بعدما أدخل الوليد بن عبد الملك الحجرة النبوية في المسجد ظلماً منه وعدواناً واتباعاً لهواه.

والجدار الثالث: هو البناء المربع الذي بناه بعض الملوك بعد ذلك، وإلى ذلك أشار ابن القيم في «نونيته»[1] بقوله:

«ولَقَد نهانا أن نُصيِّر قبرَه ... وثناً[2] حذارَ الشِّركِ بالدَّيَّانِ[3]
ودعا بأن لا يُجعَل القبرُ الذي ... قد ضمَّهُ وثَناً مِنَ الأوثانِ
فأجاب ربُّ العالمينَ دُعاءَه ... وأحاطَهُ بثلاثةِ الجُدرانِ
حَتَّى غَدَتْ[4] أرجاؤُه بدعائِهِ ... في عِزَّةٍ وحِمايةٍ وصِيَانِ»

قال النبي ﷺ - من حديث أبي هريرة -: **«لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»**[5] (د).

وقال سعيد بن منصور في «سننه» عن الحسن بن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليَّ فإن**

---

(١) انظر: «الكافية الشافية» (ص٢٩٢).
(٢) في مطبوع النونية: «عيداً».
(٣) في مطبوع النونية: «بالرحمن».
(٤) في مطبوع النونية: «اغْتدت».
(٥) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢) - ومن طريقه البيهقي في «حياة الأنبياء» (١٥) -، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وابن فيل في «جزئه» - كما في «جلاء الأفهام» (ص١٠٧ - بتحقيقي) - وحسن إسناده ابن تيمية في «الاقتضاء» (٣٢١ - ط الإفتاء) بقوله: «وهذا إسناد حسن، فإن رواته كلهم ثقات مشاهير». وصححه النووي في «المجموع» (٨/ ٢٧٥) وفي «الأذكار» (٩٣). وحسنه ابن حجر - كما في «الفتوحات الربانية» (٣/ ١١٣) - وشيخنا الألباني في «تحذير الساجد» (ص١٤٢). قال أبو عبيدة: **الحديث صحيح - إن شاء الله تعالى - بشواهده،** وقد خرّجت قسماً منها في تعليقي على «جلاء الأفهام» (ص١٠٧، ١٦٤ - ١٦٥)، والحمد لله على آلائه ونعمائه.

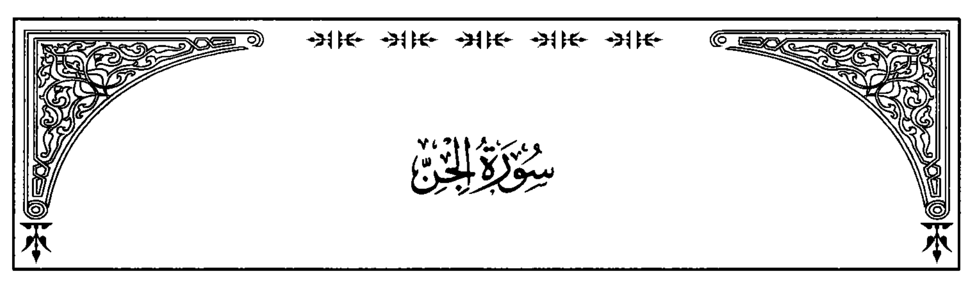
صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم»[1]. ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء[2]. انظر: «شرح النونية»[3] و«فتح المجيد»[4].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦) رقم (٧٦١٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٨٦)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (رقم ٢٠، ط. المكتب الإسلامي)، وأبو يعلى (٦٧٦١)، والطبراني في «الكبير» (٢٧٢٩)، وفي «الأوسط» (٣٦٧)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٢٦، ٢٧)، والدولابي في «الذرية الطاهرة» رقم (١١٩) من طريقين عن الحسن بن علي في أحدهما مجهول، وفي الآخر ضعيف، وهو مُعل بعلّة خفية ذكرها ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص١٦٣ ـ ١٦٤ ـ بتحقيقي)، **إلا أن الحديث صحيح بشواهده**، وحسنه السخاوي في «القول البديع» (ص٣١٤، ط. الريان).

(٢) الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن هذا من كلام الحسن أو ممن دونه وليس من كلام رسول الله ﷺ. ثم وجدتُ المصنف يقول في فتاواه المسماة: «العيون الزلالية من الفتاوى الهلالية» (٢/ ق٥١٥): «قال راوي هذا الحديث، وهو الحسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة ﵄: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء، يعني: الذين يدخلون مسجد النبي ﷺ، ويشاهدون حجرته إذا صلّوا وسلّموا على النبي ﷺ».

(٣) انظر: «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم» لأحمد بن عيسى (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٦٧).

(٤) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٨ ـ ٤٣٦، ط. الصميعي).



سورة الجن

الباب الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٦]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يخبر قومه: إن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدَّقوه وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: يهدي[1] إلى السداد والنجاح، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: عظمته[2] وأمره وقدرته ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي: قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ سفيهنا يعنون إبليس، ﴿شَطَطًا﴾، أي: جوراً، [ولهذا قالوا][3]: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[4] ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال قتادة: تعالى جلاله وعظمته..».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل بدل ما بين المعقوفين: «وقوله تعالى».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي[1]: إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، كما كانت[2] عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه[3] وخفارته.

فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم، وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه، أو مالي أو ولدي، أو ماشيتي قال[1]: فإذا عاذ بِهِم من دون الله رَهَقتهم الجن الأذى عند ذلك»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: المراد بالجور الذي قاله إبليس أن الله ظلمه حين أمره بالسجود لآدم، مع أن إبليس مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين، والنار بزعمه أفضل من الطين.

قال محمد تقي الدين: العوذ: طلب الحماية، ولم يزل الجهال في كل زمان ومكان يخافون الجن ويتملّقون لهم دفعاً لشرهم، وفي هذا الزمان يعتقد الجهال من المنتمين إلى الإسلام في الشرق والغرب أن الشخص إذا بنى بيتاً جديداً يجب عليه أن يذبح ذبيحة للجن الذين يسكنون في ذلك المكان، ليكفّوا عن أذاه، ويأخذ شيئاً من تلك الذبيحة ويطبخه في ماء بلا ملح ويرش ذلك الماء في جوانب البيت.

ولما بنيتُ بيتاً في بغداد وانتهى رئيس البنّائين من بنائه، قال لي: ينبغي أن تسيل عليه الدم قبل أن تسكنه، قلتُ: ولماذا؟ قال لي: ليكفّ سكان هذه الأرض

---

(١) غير موجود في الأصل. (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وذمّته».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، و«تفسير السدي الكبير» (٤٦٣).

عن أذاك، فقلت: وهل يسكن هذا البيت غيري مع أهل بيتي؟ فقال لي: نحن نعتقد أن الجن يسكنون تحت الأرض. فقلت: لا تظن أني أبخل عليك وعلى البنائين والعملة بذبيحة وطعام، ولكني أريد أن أثبت لك أنه لا سلطان للجن على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانهم على الذين يتولونهم بالذبح والخوف والتعوذ بهم من دون الله، ولذلك سأسكن هذا البيت، وأتحدى الجن أن يجهدوا جهدهم في إلحاق الضرر بي وبأهل بيتي إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وبعد أن أسكن شهراً كاملاً ويظهر له ولأمثاله أن الجن لا يستطيعون أن يؤذوا من يوحد الله حينئذٍ أذبح ذبيحة وأدعوه مع أصحابه للغداء.

وكذلك فعلت، فلما مضى الشهر الأول، وتبين له فساد اعتقاده دعوته للغداء. وكذلك وقع لي في مكناس حين أردت أن أشتري هذا البيت الذي أسكن فيه الآن، قالت لي المرأة التي كانت هناك: إنَّ سكان هذا البيت طيبون، لا يضرون أحداً، فقلت لها: وهل يسكن فيه غيركم؟ فقالت: أقصد الذين تحت الأرض، فضربت الأرض بقدمي، فقلت لها: إن سمحتم لهم بالسكنى معكم فأنا لا أسمح لهم أن يدخلوا بيتي لا فوق الأرض ولا تحت الأرض، فهل يدفعون معي شيئاً من الثمن أو يستأجرون جزءاً من البيت؟! فضحكت المرأة وتعجبت من كلامي.

وكان في بلد مغربي لا أسميه ستراً على من سأحكي عنه، فقيه قاضٍ من كبار القضاة كانت ابنته مريضة، فدعا لها ساحراً ليخرج منها الجن ويكتب لها تعويذاً (حجاباً) ليكف عنها أذى الجن فكان يخلو بها في غرفة واحدة ليلاً ونهاراً، وهذا العمل لا يرضى به إلا ديوث جاهل[1]، وكان هذا الفقيه السفيه إذا أراد أن يدخل الحمام يستأجره ساعتين ليلاً ويستخدم شابّاً أعمى يناوله الماء ويغسل جسمه ولا يرى عورته.

ومن شدة خوفه من الجن كان يتملق لهم عند دخول الحمام، ويقول: يا سادتي نسألكم الضيافة لوجه الله، ونسألكم أن لا تؤذونا جزاكم الله خيراً، وحاشاكم أن تؤذوا من يستجير بكم، فكان الأعمى يسمع ذلك ويفهمه فإذا جلس الشيخ وشعر بحرارة الحمام واستراح ينصب له الأسطال سطلاً فوق سطل حتى

---

(١) انظر ما قدمناه قريباً من حال الراقين، وتجاوزاتهم الشرعية.

تصير كالبرج، ثم يأخذ السطل الأسفل فتسقط الأسطال وتحدث دوياً عظيماً فيصرخ الشيخ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ١٤ ـ ٢٢]

قال (ك): «﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحقّ والناكب[1] عنه، بخلاف المقسط، فإنه العادل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ أي: وقوداً تسعر بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين؛ (أرجحهما): وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، كما قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم، لنعلم[2] من يستمر على هذه[2] الهداية ممن يرتد إلى الغواية[3].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الناكب»، دون واو في أوله.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) انظر: «الإمام مالك مفسراً»: (٣٩٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذاباً شديداً شاقّاً[١] موجعاً مؤلماً»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾: قال (ك): «يقول تعالى آمراً عباده أن يوحدوه في محال عبادته ولا يدعى معه أحد، ولا يشرك به، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ قال قتادة[٣]: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه[٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ أي: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، وعبد من عباد الله ليس لي[٥] من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد، أي: لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، [أي: ملجأ][٦].اهـ[٧]».

«فصل»

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام خمسة أمور:

الأول: إنَّ كل أمة وحدت الله واتَّبعت رسوله بالاعتقاد والقول والعمل يوسع الله رزقها ويجعل يدها هي العليا، فإذا ارتدت وأشركت بالله وخالفت

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شاقاً شديداً».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٥٢ ـ ١٥٣).
(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٤) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣٢٣) وابن جرير (٢٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٥).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليّ».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد وقتادة والسدي: لا ملجأ».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

رسوله يضيق الله عليها الرزق ويعذبها عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

الثاني: إن المسجد الحرام الذي كان موجوداً في زمان نزول هذه الآية كان مجتمعاً لعبادة الأوثان، وإنما بني ليعبد الله فيه وحده لا شريك له، وبذلك يكون عامراً، وهكذا كل مسجد بني أو يبنى إلى يوم القيامة عمارته التوحيد واتباع السنة، وإن كان من قصب، وخرابه الشرك والبدعة وإن كان من ذهب، فقد جاء في الحديث النهي عن زخرفة المساجد، وجاء فيه أن المسلمين المنحرفين سيزخرفونها كما زخرفتها اليهود والنصارى وفي ذلك خرابها[1].

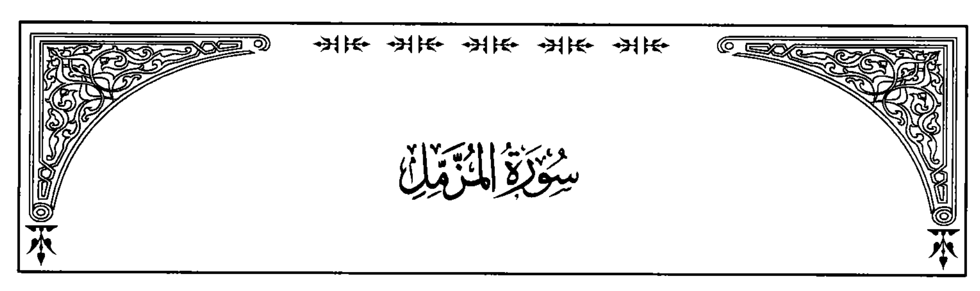
الثالث: إن أول داعٍ إلى الإسلام تلبد عليه أعداء الإسلام وتألبوا عليه، وهكذا كل داعٍ يدعو إلى اتباعه في زمان غربة الإسلام.

الرابع: إن النبي ﷺ أمره الله تعالى أن لا يدعو إلا الله ولا يشرك به أحداً، وهو أمر لكل من اتبعه إلى قيام الساعة.

الخامس: إن الله تعالى أمره أن يعلن أنه - وإنْ كان أفضل خلق الله - لا يملك للناس ضرّاً ولا نفعاً. اهـ.

---

(١) الأحاديث التي تنهى عن زخرفة المساجد كثيرة. منها: ما علقه البخاري: كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد (قبل رقم ٤٤٦)، ووصله أبو داود (٤٤٨)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٥٩) وغيرهما عن ابن عباس قال: «لتُزَخرفنها كما زخرفتها اليهود والنصارى» **وإسناده صحيح**. وانظر: «فتح الباري» (١/ ٥٣٩)، «المجموع» (٢/ ١٨٣)، «الفروع» (٤/ ٦٣)، «إعلام الساجد» (٣٣٥ - ٣٣٧) للزركشي، «أحكام المساجد» للخضيري (١/ ٣٣٢)، «المسجد في الإسلام» لأخينا خير الدين وانلي رحمه الله (ص١٥ - ١٩)، وللسيد عبد المقصود عبد الرحيم «تحذير الراكع والساجد من بدعة زخرفة المساجد»، وهو مطبوع.



سُورَةُ المُزَّمِّلِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل٩ ـ ١١]

قال (ك): «﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ أي: هو المالك المتصرِّف في المشارق والمغارب الذي[1] لا إله إلا هو، وكما[2] أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥] وآيات[2] كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة، والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ يقول آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه أن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه.

ثم قال له متهدداً[3] لكفار قومه ومتوعداً[4] وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر[5] من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل دون واو في أوله.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متوعداً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومتهدداً».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أقدر على الطاعة».

ليس عند غيرهم، ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويداً كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث جامعة مانعة، جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

فقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ يدل على توحيد الربوبية، فرب المشرق والمغرب هو رب الشمس التي تطلع من المشرق وتغرب في المغرب بالنسبة إلى جميع أهل الأرض، حتى الأراضي القطبية التي يستمر فيها النهار ثلاثة أشهر عجمية والليل مثل ذلك، لها مشرق[2] ومغرب، هذا في الإجمال، وفي التفصيل لها مشارق ومغارب، كما قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] في سورة المعارج، فإن الشمس تطلع في كل يوم من مكان ولكنها لا تخرج عن المشرق وتغرب كل يوم في مكان، ولكنها لا تخرج عن المغرب، فباعتبار التزامها لجهة واحدة في طلوعها وغروبها نقول: لها مشرق ومغرب.

ولما كانت الشمس هي أعظم الكواكب في عالمنا هذا القريب المنظور، وهي سبب حياة الحيوان والنبات، نبه الله سبحانه أهل العقول والبصائر أن يستدلوا بمشارقها ومغاربها على أنه رب كل شيء ومالك كل شيء، وإليه يرجع الأمر كله، ولذلك يجب على جميع العقلاء أن يعبدوه وحده ويتوكلوا عليه وحده.

فائدة ثانية: النَّعمة ـ بفتح النون ـ: سعة العيش ورغدُه، والتمتع بزهرة الحياة الدنيا، والنِّعمة ـ بكسر النون ـ أعم من ذلك، فكل واحد من الناس قد أنعم الله عليه بنِعم ـ بكسر النون ـ منها نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، فهاتان النعمتان لا يخلو منهما أحد من الناس.

وأما النَّعمة ـ بالفتح ـ فهي خاصة بأهل الجاه والمال، وهؤلاء الرؤساء المتبوعون عليهم من الواجبات ما ليس على غيرهم، فإن استقاموا استقام أتباعهم، وإن انحرفوا انحرف أتباعهم.

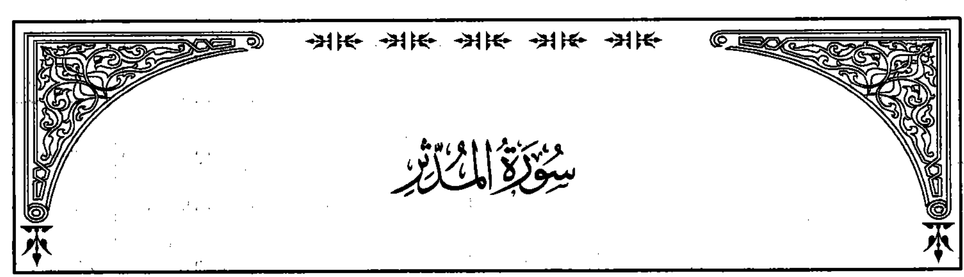
---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

(٢) في الأصل: «شرق»!

أول ما دعوت في صعيد مصر إلى توحيد الله تعالى واتباع سنة رسوله ﷺ، ونبذ البدع والمحدثات، ألقيت ستة دروس في آخر الدرس السادس منها استجاب لي شيخ البلد، وهو الشيخ يوسف عبد العال رحمه الله رحمة واسعة وبارك في ابنه الشيخ محمد، أعني بلد الريرمون في مديرية أسيوط، فتبعه أهل البلد كلهم ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا[1]، وقد مضى عليهم أربع وخمسون سنة، لم تستطع فتنة الاشتراكية أن تنال من عقيدتهم مثقال ذرة، فلما زرتهم قبل ثلاث سنين، وجدت شيخ البلد منهم كما كان الأمر قبل أربع وخمسين سنة، ووجدت وكيل الحزب منهم، وإذا رسخت عقيدة التوحيد في القلوب لا يستطيع أحد أن يزلزلها.

(١) انظر تفصيل دعوة الشيخ الهلالي لهم في كتابه: «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» (ص١٨، ٢٢).



الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]

المدثر، معناه المتلفِّف بالثياب.

قال (ك): «روى (ق) بسندهما عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «**فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فخشيت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت: زمِّلوني زمِّلوني فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾** إلى: ﴿فَاهْجُرْ﴾»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ أي: شمِّر عن ساق العزم وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بأول النبوة، [﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾][(٢)] أي: عظِّم، وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدْرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة[(٣)] الثقفي:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الذي يقتضيه السياق. ووقع في الأصل بدلاً منه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾!

(٣) في الأصل: «مسلمة»! وهو خطأ، صوابه المثبت ـ كما في «تفسير ابن كثير» ـ ومصادر التخريج.

فـإنـي بـحـمـد الله لا ثـوبَ فـاجـر لـبـسـتُ ولا مـن غَـدرة أتـقَـنّـعُ[(١)]

وقال الشاعر[(٢)]:

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللُّؤم عِرْضُه فكُلّ رِداء يَرتَديه جَميلُ

والمراد: طهِّر نفسك وقلبك ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ عن ابن عباس[(٣)]: «الرجز»: الأصنام»»[(٤)].

قال محمد تقي الدين: ويؤيده قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١] وقد كان النبي ﷺ طاهر النفس والعرض والخلق، هاجراً للأصنام، فالأمر هنا للزيادة والاستمرار، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] أي: زد في تقوى الله واستمر عليها، وكما تقول للضيف: كل، وهو يأكل، هكذا قال علماء النحو وهو صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ عن ابن عباس معناه: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها[(٥)]، وقال الحسن: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره[(٦)].

واختاره (ج)[(٧)].

---

(١) عزاه لغيلان: ابن جرير (٢٣/ ٤٠٥)، وابن العربي في «أحكام القرآن» (١٨٧٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٦٣).
وأسند تمثل ابن عباس مع الأثر: ابن جرير (٢٣/ ٤٠٥)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ١٣٥)، والبيهقي في «الخلافيات» (١/ ١٣٠ ـ بتحقيقي)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٢/ ٢٣٦) وابن حجر في «الإصابة» (٣/ ١٩٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨١) لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن الأنباري في «الوقف والابتداء».

(٢) وهو السموأل بن عادياء ضمن قصيدة أوردها أبو علي القالي في «الأمالي» (١/ ٢٦٩).

(٣) خرجته مفصلاً في تعليقي على كل من «المجالسة» (١٥٢٩، ٢٨٧٢، ٣٠٤٣)، و«الخلافيات» (٢/ ١/ ١٣٠، ١٣١ ـ ١٣٢)، فانظره غير مأمور.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ١٧٧ ـ ١٧٨) بتصرف.

(٥) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٤١٢)، والطبراني (١٢٦٧٢)، والبيهقي (٧/ ٥١) **بسندٍ ضعيف**. انظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣١).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٥٢)، وابن جرير (٢٣/ ٤١٥) وعزاه في «الدر» (١٥/ ٦٨) لعبد بن حميد.

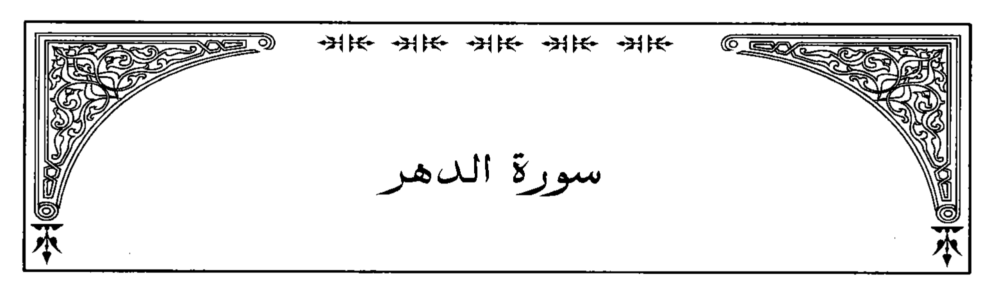
(٧) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٣/ ٤١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﷻ»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: بعدما أنزل على النبي ﷺ أول سورة العلق في غار حراء حيث كان يتعبد[2] صار نبيّاً ولم يكن رسولاً، إذ لم يأمره الله تعالى بالتبليغ ولا بالإنذار ولا بالصدع بما يؤمر وفتر الوحي، أي: توقف، وبعد فترة الوحي نزل أول سورة المدثر، كما في حديث جابر: **«ثم حمي الوحي وتتابع»**[3]. اهـ.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ١٧٨) بتصرف.
(٢) ذكرت ذلك عائشة كما في «صحيح البخاري» (٣)، ومسلم (١٦١).
(٣) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).



سورة الدهر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٧ ـ ٩]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ أي: يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل[1] الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر.

روى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[2]. ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رحم الله، قال الأعشى[3]:

فبَانَتْ وقد أثرت[4] في الفؤا ... د صَدْعاً على نأْيِها مُسْتطيرا

يعني: ممتدّاً فاشياً.

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ الضمير عائد على الطعام أي: ويطعمون الطعام، في حال محبتهم وشهوتهم له، كقوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، ومالك في «الموطأ» (١/ ٣٧٩).
(٣) في «ديوانه» (ص١٥٨، ط. دار الكتاب العربي).
(٤) كذا في الأصل، في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أسأرت»، وفي «الديوان»: «وبانت وقد أورثت».

وروى البيهقي بسنده عن نافع قال: «مرض ابن عمر فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب، فأرسلت صفية ـ يعني: امرأته ـ فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول سائل، فلما دخل به سأل السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه فأرسلت بدرهم آخر، فاشترت عنقوداً فاتبع الرسول السائل فلما دخل سأل السائل فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه، فأرسلت صفية إلى السائل فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به»[(١)].

وفي «الصحيح»: «**أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر**»[(٢)]. في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧﴾.

أما: المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما، وأما الأسير، فهو الكافر الذي يأسره المسلمون في الحرب ويشهد لذلك أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى[(٣)] فكانوا يقدِّمونهم على أنفسهم عند الغداء، أي: يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أن تشكرونا عند الناس»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: النذر هو التزام شيء من عبادة الله لم يكن لازماً من قبل، إذا حصل المشروط كأن يقول الناذر: لله عليَّ أن أذبح لله شاة وأطعم الفقراء إن شفي مريضي أو رجع غائبي بسلامة أو نجحت في الامتحان أو

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٩١)، والطبراني في «مكارم الأخلاق» (١٧٧، ١٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٩٧)، وجزم به السخاوي في «الجواهر المجموعة» رقم (٧٧٤، ٧٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) ورد ذلك في أخبار، منها: ما أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ١٤٦)، و«الكبير» (٢٢/ رقم ٩٧١) من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب، **وإسناده حسن**، وانظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٩).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٢٠٩ ـ ٢١٠) بتصرف.

وضعت الحبلى حملها بسلامة إلى غير ذلك من الأغراض، أو ينذر صوماً أو حجّاً أو عمرة أو صدقة، فإن ذلك عبادة لله يجب الوفاء به.

فإن نذر شيئاً مما يعبد الله تعالى به كالذبح والصدقة لغير الله تعالى من الملائكة والأنبياء والصالحين وغير الصالحين فلا يجوز الوفاء به، ويجب على الناذر أن يتوب إلى الله ويعود إلى الإسلام، ولهذا ذكرت هذه الآية.

فائدة ثانية: ثناء الله تعالى وترغيب رسوله ﷺ في إكرام الأسير الكافر الذي كان بالأمس يقاتل المسلمين يسفك دماءهم، ولا يزال حريصاً على قتلهم إلا أنه عاجز مغلوب على أمره، من أعظم الأدلة على فضل الإسلام على جميع الشرائع والقوانين الوضعية، فإننا لم نر قانوناً لدولة يحث على إكرام الأسير، بل بالعكس رأينا الحلفاء لما انتصروا في الحرب العالمية الأخيرة يهينون الأسرى ويحاكمونهم محاكمة كاذبة خاطئة ظالمة وحشية، كمحاكمة الهر للفأر، فيزعمون أنهم ارتكبوا جرائم في الحرب، ولا يرون فظاعة هذه الجريمة التي يرتكبونها بقتل الأسرى الذين لا يملكون أي وسيلة يدافعون بها عن أنفسهم، فهم كما قال «الإنجيل»: «يرى أحدكم القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع المعترض في عين نفسه».

فهذه القوانين التي تستندون إليها بقتل أساراكم من وضعها؟ فهل اتفقتم على وضعها مع أعدائكم قبل أن تقدموا على الحرب؟ أرأيتم لو انتصر عليكم أعداؤكم أكنتم ترضون بمثل هذه المحاكمة؟ أنتم واضعو القانون، وأنتم الخصوم، وأنتم الحكام، كما قال الشاعر(١):

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقال البوصيري(٢):

ولا تطعْ منهما خَصْماً ولا حَكَماً ... فأنتَ تعرف كيدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

فهؤلاء الحلفاء المتعسفون فداء لصلاح الدين الأيوبي الذي لما سمع أن عدوه (رشارد) الملقب بقلب الأسد قد جرح بعث إليه طبيبه الخاص فعالجه حتى برأ، و(رشارد) هذا هو ملك بريطانية، وقائد جيشها في الحروب الصليبية،

---

(١) هو المتنبي، والمذكور عجز بيت ضمن قصيدة في «ديوانه» (٣٢٣ ـ ٣٢٥) وصدره: يا أعدل الناسِ! إلا في معاملتي.

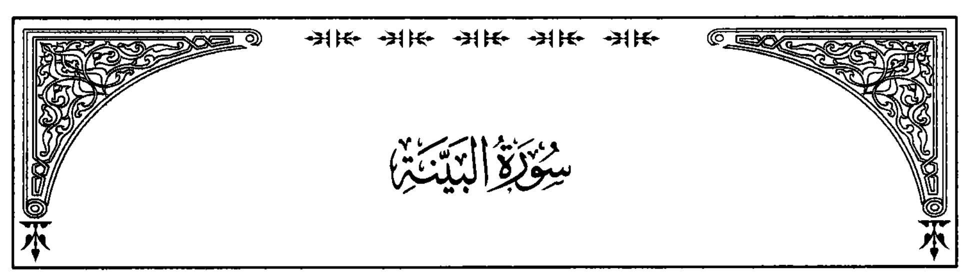
(٢) في «بردته»: (ص١٧ ـ مع «حاشية الباجوري»).

فكانت هذه المعاملة التي تجاوزت الحد في الكرم والحكمة والمروءة والشهامة سبباً لكراهية الملك الإنجليزي الاستمرار في محاربة ولي نعمته، فلّله در صلاح الدين الأيوبي، تجاوز إكرام الأسرى إلى إكرام المحاربين عند عجزهم وحاجتهم، وهذه الحكاية قرأتها في «مختصر تاريخ أوروبة»، وهو مقرر لتلَامِذِ المدارس الثانوية الإنجليزية، والكتاب طبع بالإنجليزية.

أولئك آبائي فجِئْني بمثْلهِم   إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المَجَامِعُ[1]

---

(١) البيت من شهير شعر الفرزدق.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٥ ـ ٨]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولهذا قال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: متحنفين عن الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾، وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: أنّ الملةَ القائمةَ العادلةَ، أو الأمةَ المستقيمةَ المعتدلةَ، وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن **الأعمال داخلة في الإيمان**، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾»(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ . . .﴾ إلخ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٤٢٤).

قال (ك): «يخبر تعالى عن[1] مآل الفجار من كفار أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة، وأنبياء الله المرسلة أنهم يوم القيامة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها[2] لا يحولون عنها[3] ولا يزولون، ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: من شر الخليقة، التي برأها الله وذرأها، ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين[4] آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة[5] لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

[ثم][6] قال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه[7] من النعيم المقيم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم[8].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء حاصل لمن اتقى الله[9] حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فهو يراه، وقال الإمام أحمد

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «في».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيها»!
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والذين».
(٥) قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠) بعد كلام: «وأقل ما في هذه الآثار أن السلف كانوا يتناقلون بينهم أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء، وتفرُّق الآراء، فقد كان ذلك المستقرّ عندهم». وقال (٤/ ٣٧١): «وقد كان السلف يحدِّثون الأحاديث المتضمنة فضل صَالِح البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس، ولو كان هذا منكراً؛ لأنكروه، فدل على اعتقادهم ذلك». وانظر في المسألة: «بدائع الفوائد» (٣/ ١٦٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٢٧٨ ـ ٢٧٩)، و«طبقات الحنابلة» (٤/ ٢٠٧)، و«مباحث المفاضلة في العقيدة» (ص٣٥٤ ـ ٣٦٠).
(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أوتوا».
(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «العظيم».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خشي الله واتقاه».

بسنده[١] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بخير البرية؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«رجل في ثلة من غنم يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية؟»** قالوا: بلى، قال: **«الذي يسأل بالله ولا يعطي به»»**[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «وقد استدل كثير من الأئمة...» إلخ.

اعلم أن أهل السنة كلهم متفقون على: أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، تزيد الأعمال بزيادته وتنقص بنقصانه، إلا أبا حنيفة ومن تبعه فإنهم يقولون: إن الإيمان نطق باللسان واعتقاد بالقلب، والعمل لازم له، لكنه غير داخل فيه[٣]، والماتريدية منهم يقولون: إن الإيمان هو الاعتقاد وحده، ولا يزيد ولا ينقص[٤]، وعامتهم يقولون أن إيمانهم كإيمان أبي بكر الصديق بل كإيمان الأنبياء والملائكة، وقد رجع أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ عن القول بعدم دخول العمل في الإيمان، انظر قصته مع حماد بن زيد في «شرح الطحاوية»[٥] لكن مقلِّديه في

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٩٦) وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/٢٨٢): «رواه أحمد؛ وأبو معشر ـ نجيح ـ ضعيف».
قلت: وفيه أيضاً أبو وهب مولى أبي هريرة مجهول، **وللحديث أصل صحيح بنحوه عند البخاري** (١٩، ٣٣٠٠، ٣٦٠٠، ٦٤٩٥، ٧٠٨٨) من حديث أبي سعيد، وهو عن أبي هريرة دون ذكر (خير البرية) و(شر البرية)، عند مسلم (١٨٨٩) وغيره، وخرجته بتفصيل في تعليقي على «العزلة والانفراد» رقم (١٦، ١٧، ١٨، ١٨٠، ١٩٥) لابن أبي الدنيا.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٤٢٥).

(٣) انظر: «الفقه الأكبر» المنسوب لأبي حنيفة (٣٠٤) و«الوصية» (ص٢، ٦ مع «شرحها»)، و«رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي» (ص٣٥).

(٤) انظر مذهبهم في: «شرح المقاصد» (٥/٢١١)، «شرح المواقف» (٨/٣٩٧)، «التمهيد» للنسفي (١٠٢)، «بحر الكلام» (٤١)، «المسامرة بشرح المسايرة»: (ص٣١٧)، «شرح العقيدة الطحاوية» للميداني (ص٩٩).

(٥) قال ابن أبي العز الحنفي في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣٩٥) بعد ذكره لمعارضات الحنفية في دخول العمل في مسمى الإيمان:
«والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبي حنيفة رضي الله عنه، وإنما هي من الأصحاب، فإن غالبها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة! وقد حكى الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن =

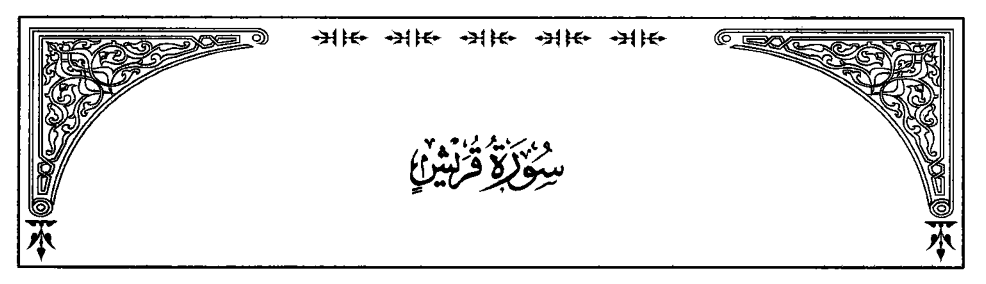
الفروع المتعصبين لمذهبه أبوا أن يرجعوا[١]. اهـ.

فائدة ثانية: فهم من حديث أبي هريرة أن أفضل الناس من جاهد في سبيل الله، والهيعة: الفزع الذي يحصل بغزو العدو بلاد الإسلام، فإن لم يكن هناك سبيل إلى الجهاد ووقعت الفتنة بين المسلمين وصار بأسهم بينهم يقتل بعضهم بعضاً، فأفضل المسلمين هو الذي يهرب من الفتن، ولو لم يجد إلا أن يسكن وحده ومعه غنيمة يعيش بلبنها ويفر بدينه من الفتن، وأصل هذا الحديث في «الصحيحين»، ولفظه: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنيمة يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»[٢]. اهـ.

= زيد، وأن حماد بن زيد لما روي له حديث: «أي الإسلام أفضل؟» إلى آخره، قال له: ألا تراه يقول: أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان؟ فسكت أبو حنيفة، فقال بعض أصحابه: ألا تجيبه يا أبا حنيفة؟ قال: بم أجيبه؟ وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ».

(١) انظر لهم ـ على سبيل المثال ـ: «شرح العقائد النَّسفيَّة» (ص١١٩ ـ ١٢٣)، «التوحيد» (٣٧٣ ـ ٣٧٧) للماتريدي.

(٢) مضى تخريجه.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: ٣ ـ ٤]

قال (ك): «أي: فليوحِّدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ [النمل: ٩١].

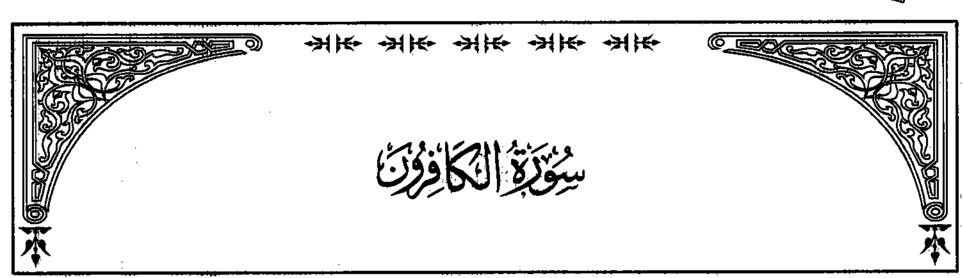
وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع، ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: تفضَّل عليهم بالأمن والرخص؛ فلْيفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝١١٣﴾ [النحل: ١١٢ ـ ١١٣]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: معنى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾، فليفردوه بالعبادة ولا يعبدوا معه أحداً لا ملكاً ولا نبيّاً ولا صالحاً ولا تمثالاً ولا قبة تنسب لأحد منهم، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له خالياً من الشرك، وسيزداد ذلك وضوحاً في سورة (الكافرون) إن شاء الله.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦).



الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]

ما جاء في فضلها:

١ ـ في «صحيح مسلم» عن جابر: «إن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في ركعتي الطواف»(١).

٢ ـ وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «إن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر»(٢).

٣ ـ قال (أ) بسنده عن عبد الله بن عمر قال: «رمقت النبي ﷺ أربعاً وعشرين أو خمساً وعشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»(٣). وقد تقدم في الحديث: «**إنها تعدل ربع القرآن**»(٤).

٤ ـ وقال الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن جَبَلَة قال: «قلت: يا رسول الله علِّمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: **إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ**: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، **فإنها براءة من الشرك**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨). (٢) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٩٩) **وإسناده صحيح غاية**.

(٤) مضى تخريجه، **والحديث صحيح**.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» ـ وهو ساقط من الطبعة الميمنية، وموجود في «أطراف المسند» لابن حجر (٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) ـ ثم وجدته في طبعة مؤسسة الرسالة (٣٩/ ٤٤٠، رقم =

قال (ك): «هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ شمل[١] كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين[٢] بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة[٣] وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾؛ يعني: من الأنداد والأصنام[٤] ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ وهو الله وحده لا شريك له، فـ﴿مَآ﴾ هٰهنا بمعنى «من».

ثم[٥] قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي: لا تقتدون

= ٥/٢٤٠٠٩) قال: ثنا حجاج: ثنا شريك عن أبي إسحاق عن فروة بن نوفل عن الحارث بن جَبَلة به.
وذكر أحمد على إثره أن الأسود رواه عن شريك هكذا، قال: «قال جبلة: ولم يشك»، وقال: «وقال علي ـ يعني: ابن المديني ـ جبلة بن الحارث الكلبي».
ورواه جمع من الثقات عن أبي إسحاق به، وجعلوا صحابيه (فروة بن نوفل الأشجعي) وهو الصواب، هكذا أخرجه أحمد (٥/٤٥٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ١٠٨)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٠١، ٨٠٢)، وابن أبي شيبة (٩/ ٧٤ و١٠/ ٢٤٠)، والدارامي (٣٤٢٧)، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» (٢٦٥٤)، وابن قانع (٣/ ١٥٦)، وابن حبان (٧٩٠، ٥٥٢٦)، والطبراني في «الدعاء» (٢٧٧، ٢٧٨)، والحاكم (١/ ٥٦٥ و٢/ ٥٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢٥١٩ ـ ٢٥٢١) وفي «الدعوات الكبير» (٣٥٨)، **والحديث حسن**. وانظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٤٠٨) لابن حجر، وعزاه للبزار في «مسنده».

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يشمل».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «المواجهون»!

(٣) ورد ذلك موصولاً عن ابن عباس عند ابن جرير (٣٠/ ٢١٤) **بسند ضعيف**، ونسبه في «الدر» (٨/ ٦٥٤) لابن أبي حاتم والطبراني، وعزاه بنحوه (٨/ ٦٥٥) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه، وفي الباب عن وهب رفعه، عند عبد الرزاق (٢/ ٤٠٣)، وابن المنذر، ـ كما في «الدر» ـ، وعن سعيد بن ميناء مولى البحتري عند ابن جرير (٣٠/ ٢١٤)، وعزاه في «الدر» (٨/ ٦٥٥) لابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» وإسناد ابن جرير لا بأس به، ولعله **يتقوى** بمجموع طرقه، والله أعلم.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كانت[١] كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما[٢] جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها[٣]، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس: ٤١] وقال: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]»[٤].

فصل

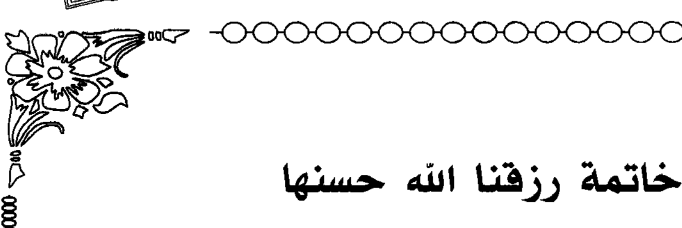
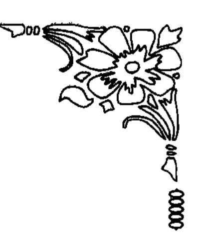
قال محمد تقي الدين: فائدة: التكرار الواقع في هذه السورة بليغ، والغرض منه التوكيد، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦] وكقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٦ ـ ٧] وكقول النبي ﷺ حين استأذنه عكرمة بن أبي جهل في إنكاح علي بن أبي طالب أخته: **«لا آذن ثم لا آذن»**[٥].

وهذه طريقة معروفة في اللغة العربية وفي سائر اللغات السامية، وهذه السورة يجب على كل مسلم أن يعتقد ما دلت عليه ويعمل به، فيتبرأ من جميع المشركين، ولا يتحقق توحيد إلا بذلك، وقد تقدم هذا المعنى في مواضع من هذا الكتاب، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهله.اهـ.

وكان الفراغ منه يوم الجمعة سابع عشر صفر سنة ١٣٩٥ بدار السَّلفي الصالح الحاج محمد الفلالي بمدينة فاس، أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وبمحبتنا واتباعنا لحبيبه وخليله محمد ﷺ أن يعيننا، ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، ويختم لنا بالحسنى.اهـ.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ما»!
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بها الله».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٨٤، ٤٨٦ ـ ٤٨٩).
(٥) أخرجه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة.

خاتمة رزقنا الله حسنها

في تحذير النبي ﷺ أمته الغلو في قبور الأنبياء والصالحين

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب «التوحيد» ما نصه: «في «الصحيح» عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣] قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت[(١)].

وقال ابن القيم[(٢)]: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم». وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**[(٣)]. أخرجاه.

قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**[(٤)]. ولمسلم[(٥)] عن ابن مسعود: إن رسول الله ﷺ قال: **«هلك المتنطعون»**»[(٦)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٥)، ومسلم (١٦٩١).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي (٥/ ٢٦٨)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن سعد (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١)، وأبو يعلى (٢٤٢٧)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، وابن حبان (٣٨٧١)، والطبراني (١٢٧٤٧، ١٢٧٤٨)، والحاكم (١/ ٤٦٦) وغيرهم، **وهو صحيح**، وتكلمت على تخريجه بالتفصيل في تحقيقي الثاني لجزء السخاوي «الجواب الذي انضبط».

(٥) في «صحيحه» برقم (٢٦٧٠).

(٦) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٤٩ ـ ٥١).

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

في «الصحيح» عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»(١)، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين(٢): فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها: لما نُزلَ برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبْرِزَ قبرُه، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً(٣). أخرجاه.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»(٤).

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصد(٥) الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلَّى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»(٦).

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعاً: «**إن من شرار الناس من**

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٣) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قصدت».
(٦) سبق تخريجه.

تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[١]، ورواه أبو حاتم في «صحيحه»»[٢].

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تعبد من دون الله

«روى مالك في «الموطأ»، أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٣].

وعن ابن عباس [رضي الله عنه] قال: «لعن رسول الله ﷺ؟ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[٤]»[٥].

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

«وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التوبة: ١٢٨ ـ ١٢٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[٦]، رواه أبو داود[٧] بإسناد حسن ورواته ثقات.

وعن علي بن الحسين [رضي الله عنه] أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ؟ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً،**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، وأبو يعلى (٥٣١٦)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (٦٨٤٧)، والشاشي (٥٢٨)، والطبراني (١٠٤١٣) **وإسناده حسن** وعلق الجملة الأولى منه بصيغة الجزم البخاري (٧٠٦٧).

(٢) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٥٣ ـ ٥٦). (٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٥٧ ـ ٥٨) بتصرف.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) في «سننه» (٢٠٤٢).

وصلوا عليَّ فإنَّ تسليمكم يبلغني أين كنتم»[(١)]، رواه في «المختارة»[(٢)].

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

«وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[(٣)]، أخرجاه.

ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسَنَةٍ بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»[(٤)]، رواه البرقاني في «صحيحه»[(٥)] وزاد:

«وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع

---

(١) سبق تخريجه. (٢) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٦٠ ـ ٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٠، ٢٨٨٩).

(٥) وأخرجه هكذا: أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦، ٢٢٠٢، ٢٢١٩، ٢٢٢٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/٢٧٨)، وأبو عوانة (٧٥٠٩)، والطيالسي (٩٩١)، وابن أبي شيبة (١١/٤٥٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٨٧)، وفي «الآحاد والمثاني» (٤٥٦، ٤٥٧)، والقضاعي (٩١٤، ١١٦٦)، وابن حبان (٧٢٣٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٦٤)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٤، ٥٥، ٣٦٠، ٣٦١)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/٥٢٦ ـ ٥٢٧)، والبغوي (٤٠١٥) ومنهم من اختصره، وإسناده صحيح. وصححه شيخنا الألباني.

إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».»[(١)].

تفسير ما تقدم نقله من كتاب «التوحيد»

سأنقل هنا شرح ما تقدم نقله من كتاب «التوحيد» أنقل ذلك من «فتح المجيد» للعلامة الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن:

«قوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»**: الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه، قاله أبو السعادات[(٢)]، وقال غيره: أي: لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

قوله: **«إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»**، أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادَّعوا فيه الألوهية وإنما أنا عبد الله ورسوله[(٣)]، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، فقولوا: عبد الله ورسوله، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه، وعظموه[(٤)] بما نهاهم عنه وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة وضاهوا[(٥)] النصارى في غلوهم وشركهم ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده، وصنفوا فيه مصنفات[(٦)].

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله، وصنف في ذلك مصنفاً رده شيخ الإسلام ورده موجود بحمد الله ويقول: إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وذكر عنهم أشياء من هذا النمط نعوذ بالله من عمى البصيرة، وقد اشتهر في نظم البوصيري[(٧)] قوله:

(١) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٦٤ ـ ٦٨). (٢) في كتابه «النهاية» (٣/ ١٢٣).
(٣) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد». (٤) في مطبوع فتح المجيد: «فعظموه».
(٥) في الأصل: «ضاهوا» من غير واو في أوله.
(٦) في مطبوع «فتح المجيد»: «المصنفات».
(٧) انظر: «البردة» (٧٤ ـ مع «حاشية الباجوري»).

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذُ به سواك عند [حُدُوثِ][(١)] الحَادِثِ العَمِمِ

وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات وأعظم الاضطرار لغير الله، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب[(٢)] ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه[(٣)]، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه[(٤)].

وهؤلاء المشركون هم[(٥)] المتنقِّصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته فلم يعبؤوا بأقواله وأفعاله ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له، وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه والاهتداء بهديه واتباع سنته والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونصرته وموالاة من عمل به ومعاداة من خالفه، فعكس أولئك المشركون ما أراده[(٦)] الله ورسوله علماً وعملاً، وارتكبوا ما نهى الله ورسوله عنه[(٧)]، فالله المستعان»[(٨)].

الثاني: قوله: وقال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»: «هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه[(٩)]، وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس، وهذا لفظ رواية[(٩)] أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة جَمْع: «**هلمَّ الْقُط لي**». فلقطت له حصيات هن[(١٠)] حصى الخذف، فلما وضعهنَّ في يده، قال: «**نعم بأمثال هؤلاء [فارموا]**[(١١)]، **وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**»[(١٢)].

---

(١) في مطبوع «فتح المجيد»: «حلول».

(٢) في مطبوع «فتح المجيد»: «في ارتكاب».

(٣) من مطبوع «فتح المجيد» وسقطت من الأصل.

(٤) في مطبوع «الفتح»: «تنقصه».

(٥) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٦) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «أراد»!

(٧) في مطبوع «الفتح»: «عنه ورسوله».

(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢).

(٩) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «رواية»!

(١٠) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».

(١٢) سبق تخريجه.

قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبرى[(١)] ـ بناءً ـ على أنه أبلغ من الصغرى[(٢)]، ثم علله بما يقتضي مجانبة هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، فإن[(٣)] المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك»[(٤)].»[(٥)].

الثالث: قوله: «ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثاً. قال الخطابي[(٦)]: المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا[(٧)] تبلغه عقولهم». ومن التنطع: الامتناع من[(٨)] المباح مطلقاً، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب، قال الشيخ تقي الدين: «فهذا جاهل ضال»[(٩)].اهـ.

قوله: «قالها ثلاثاً» أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين»[(١٠)].

قوله: (باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟) أي: الرجل الصالح، فإن عبادته من الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر، هو أعظم الذنوب.

الرابع: قوله: «في «الصحيح»: إن أم سلمة»، هي: هند بنت أبي أمية[(١١)]

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «الكبار».
(٢) في مطبوع «الفتح»: «الصغار».
(٣) في مطبوع «الفتح»: «وأن».
(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).
(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٦) انظر: «معالم السنن» (٧/ ١٣، ط. المختصر).
(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم».
(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «عن»!
(٩) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥١١).
(١٠) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤) بتصرف.
(١١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية».

المخزومية، تزوجها رسول الله[١] ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ماتت سنة اثنتين وستين[٢].

قوله: «ذكرت لرسول الله ﷺ...» وفي «الصحيحين»: أنَّ أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ، (والكنيسة) بفتح الكاف وكسر النون، معبد النصارى، قوله: «**أولئك**» بكسر الكاف خطاباً للمراة، قوله: «**إذا مات فيهم الرجل [أو العبد]**[٣] **الصالح**» هذا ـ والله أعلم ـ شك من بعض رواة الحديث، هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا؟ ففيه التحري في الرواية[٤].

قوله: «**صوروا فيه تلك الصورة**» الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة. قوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**» وهذا[٥] يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لَعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتي.

قوله: «فهؤلاء جمعوا بين فتنتين، فتنة القبور، وفتنة التماثيل»، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذكره المصنف رحمه الله تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم: إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك.

فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا نجد[٦] أهل الشرك يتضرعون عندها[٧] ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه[٨] في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «النبي».
(٢) انظر: ما سيأتي في (٦/ ٢٤٣) فهناك عرف المصنف بها رضي الله عنها وسائر أزواجه ﷺ.
(٣) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.
(٤) في مطبوع «الفتح»: «وجواز الرواية بالمعنى».
(٥) في الأصل: «هذا» من غير واو في أوله. (٦) في مطبوع «الفتح»: «تجد».
(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ويخشعون». (٨) في مطبوع «الفتح»: «يرجون».

المقبرة مطلقاً[(١)] وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد.

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها[(٢)]، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون[(٣)] الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصدوا ما قصده المشركون سدّاً للذريعة، وأما إذا قصد الرجال الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله والمخالفة لدينه، وابتداع[(٤)] دين لم يأذن به الله.

فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد[(٥)]، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه[(٦)] وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن تحمل عليه كراهة التحريم، إحساناً للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعنُ فاعله والنهي عنه[(٧)]»[(٨)]. اهـ.

---

(١) ورد النهي في أحاديث عديدة شهيرة، سيورد المصنف قريباً قسماً منها، وقد ذكرتُ بعضها في كتابي «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص٧٢ ـ ٧٧)، وجمعها وتكلم عليها بما يدهش إمام الوقت شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «تحذير الساجد»، وهو مطبوع متداول.

(٢) هذا النهي ثابت في أحاديث كثيرة، بعضها في «صحيح البخاري» (٥٨١ ـ ٥٨٤)، و«صحيح مسلم» (٨٢٥ ـ ٨٣١).

(٣) في مطبوع «الفتح»: «المشركون فيها».

(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واتباع»!

(٥) كما في الأحاديث المتقدمة قريباً.

(٦) انظر: تواتر الأحاديث الواردة في ذلك (١/ ١٢٥).

(٧) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٤).

(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨). **(فائدة مهمة)**: في معنى ما تقدم من صور الحظر: أداء الصلاة والجنازة موضوعة وهي في قبلة المصلين، قال الشيخ القاري في «مرقاة المفاتيح» (٢/ ٣٧٢): «وهو مما ابتلي به أهل مكة، حيث يضعون الجنازة عند =

الخامس: «قوله: (ولهما)» أي: البخاري ومسلم وهو يغني عن قوله في آخره: «أخرجاه».

قوله: «لما نُزل» بضم النون وكسر الزاي، أي: نزل به ملك الموت والملائكة الكرام ﷺ.

قوله: «طفق» بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح، وبه جاء القرآن، ومعناه: جعل، قوله (خميصة) بالمعجمة والصاد المهملة: كساء له أعلام، قوله: «فإذا أغتم بها كشفها» أي: عن وجهه.

قوله: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١)، يبيِّن أن من فعل مثل ذلك حل عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى، قوله: «يحذِّر ما صنعوا» الظاهر أن هذا من كلام عائشة رضي الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود النصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء ومن أعظم الوسائل إلى الشرك.

ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قُربةً من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبي(٢) في معنى هذا الحديث: «وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام».اهـ. إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم. وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [يوسف: ٣٦] نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

قوله: «ولولا ذلك» أي: ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجداً

= الكعبة، ثم يستقبلون إليها». قلت: وهذا بلاء عام، انظر: «تحذير الساجد» (ص٣٥)، وكتابي «القول المبين» (٧٦ ـ ٧٧).

(١) مضى تخريجه.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم (ت٦٥٦هـ). شيخ صاحب «التفسير»، وهو المراد عند إطلاقه في «فتح الباري» وغيره من كتب الشروح الحديثية، خلافاً لكتب التفسير، ونحو المذكور في كتابه «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (١٢٨/٢).

لأبرز قبره وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع، قوله: «غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً» روي بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه، وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، [فلم يبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة][١]، غلوّاً وتعظيماً بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه ولعن فاعله.

قال القرطبي: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا[٢] حيطان تربته وسدوا المداخل[٣] إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يُتَّخذَ موضع قبره قبلة [إذا كان][٤] مستقبل المصلين، فتتصور[٥] الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال؛ حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره». انتهى[٦].

---

(١) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد».

(٢) كذا في مطبوع «الفتح» و«المفهم»، وفي الأصل: «فأغلقوا»!

(٣) كذا في «المفهم»، وفي الأصل و«الفتح»: «المدخل».

(٤) من مطبوع «الفتح» و«المفهم»، وسقط من الأصل.

(٥) كذا في مطبوع «فتح المجيد» و«المفهم»، وفي الأصل: «فتصور».

(٦) انظر: «المفهم» (٢/ ١٢٨)، «فتح المجيد» (١/ ٣٨٩ ـ ٣٩١). **(فائدة)** هذا الوصف يتوافق مع وضع القبر الشريف قديماً، ثم في القرنين السابع والثامن الهجريين طرأ عليه تعديل، وكذلك في العصر المملوكي، ثم العثماني، بحيث أصبح القبر ضمن حجرة مربعة تعلوه (القبّة الخضراء). وظفرتُ في «عمدة الأخبار في مدينة المختار» (ص١٢٤) و«تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» (ص٨١) أن هذه القبة بُنيت في أيام الملك المنصور قلاوون الصالحي، والذي بناها الكمال أحمد بن البرهان عبد القوي الربعي. وقال بعضهم: أساء الأدب بعلو النجارين ودقّ الحطب!

وذكر ابن تيمية في «الاقتضاء» هذه القبة، وعبارته بعد كلام: «ثم بعد ذلك بسنين متعددة، بنيت القبة على السقف، وأنكرها من أنكرها».

قلت: وأنكرها من المتأخرين جمع، منهم: الشيخ حسين بن مهدي النعمي في كتابه «معارج الألباب» (١٥٨ ـ ١٥٩)، والصنعاني في «تطهير الاعتقاد» (ص٨٤ ـ تعليق شيخنا العلامة عبد المحسن العباد)، وهذا نص كلام الصنعاني:

فإن قلتَ: هذا قبرُ رسول الله ﷺ قد عُمرت عليه قُبَّة عظيمةٌ أُنفقت فيها الأموال.

قلتُ: هذا جهلٌ عظيم بحقيقة الحال، فإنَّ هذه القبَّة ليس بناؤها منه ﷺ ولا من =

السادس: قوله: «عن جندب بن عبد الله». أي: ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور مات بعد الستين.

قوله: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل**»(١) أي: أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله، والخلة فوق المحبة، والخليل: هو المحبوب غاية الحب مشتق من (الخَلَّة) بفتح الخاء، وهي تخلل المودة في القلب، كما قال الشاعر:

قد تخلَّلت مسلكَ الرُّوحِ مني ... وبذا سُمِّيَ الخليلُ خَلِيلا(٢)

هذا هو الصحيح في معناه، كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير(٣).

قوله: «**فإن الله اتخذني خليلاً**» فيه بيان أن الخلة فوق المحبة، قال ابن القيم(٤) رَحِمَهُ اللهُ: «وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة وأن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله، فمن جهله، فإن المحبة عامة، والخُلّة خاصة، وهي نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبِّه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب [ومعاذ بن جبل](٥) وغيرهم. وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين،

= أصحابه، ولا مِن تابعيهم، ولا تابعي التابعين، ولا مِن علماء أمَّته وأئمَّة مِلَّتِه، بل هذه القبَّة المعمولةُ على قبره ﷺ مِن أبنية بعض مُلوك مصر المتأخرين، وهو قَلَاوُون الصالحي المعروف بالملك المنصور، في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة»، فهذه أمورٌ دولية لا دليلية، يتبع فيها الآخرُ الأول.

وهذا آخرُ ما أردناه مِمَّا أوردناه لَمَّا عمَّت البلوى، واتُّبعت الأهواء، **وأعرض العلماء عن النكير، الذي يجب عليهم، ومالوا إلى ما مالت العامَّة إليه**، وصارَ المنكرُ معروفاً والمعروف منكراً، ولَم نجد من الأعيان ناهياً عن ذلك ولا زاجراً».

(١) مضى تخريجه.

(٢) البيت من غير نسبة في «محاضرات الأدباء» (٣/ ١٣ ـ مكتبة الحياة)، و«روضة المحبين» (ص٨٢، ط. دار ابن كثير).

(٣) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وغيرهم».

(٤) انظر: «الجواب الكافي» (ص٢٠٠).

(٥) أما إخباره بحب عائشة وأبيها وعمر: فقد أخرج البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص قال: «قلت: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال ﷺ: «**عائشة**». فقلت: من الرجال؟ فقال: «**أبوها**». قلت: ثم من؟ قال: «**ثم عمر بن الخطاب، فعدّ رجالاً**».

وأما إخباره بحب معاذ: فهو مشهور في حديث الأذكار التي بعد الصلاة، وأوله: =

ويحب الصابرين[١] وخلته خاصة بالخليلين».

قوله: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة، وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شر أهل البدع، وأخرجهم بعض السلف من الثلاث وسبعين فرقة[٢]، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد، قاله المصنف رحمه الله، وهو كما قال بلا ريب.

وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره، وقد استخلفه على[٣] الصلاة بالناس[٤]، وغضب ﷺ لما قيل: يصلِّي بهم عمر، وذلك في مرضه الذي توفي فيه ﷺ[٥]. واسم أبي بكر عبد الله بن عثمان[٦] الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم، مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة.

قوله: **«ألا»** حرف استفتاح **«وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد»** الحديث. قال [الخطابي[٧]: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مُخرَّج[٨] على وجهين:

= **«يا معاذ إني أُحبك»**.
أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٠)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣) وفي «عمل اليوم والليلة» (١٠٩)، وأحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧)، وعبد بن حميد (١٢٠ ـ «المنتخب»)، والشاشي (١٣٤٣) في «مسانيدهم»، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠، ٢٠٢١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٥٤)، وفي «المعجم الكبير» (٢٠/رقم ١١٠)، والحاكم (١/ ٢٧٣ و٣/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤)، وأبو نعيم (١/ ٢٤١ و٥/ ١٣٠) وغيرهم.
وإسناده صحيح.
وما بين المعقوفتين غير موجود في مطبوع «الفتح».

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الطاهرين».
(٢) يريد: إن الثلاث والسبعين من أهل البدع والضلال، وليس بكفار، وإنْ توعّدوا بالنار، والرافضة والجهمية خارجتان من هذه إلى الكفر.
(٣) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «في».
(٤) ثبت ذلك عند البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).
(٥) انظر: «صحيح مسلم» (٤١٨) (٩٥).
(٦) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة».
(٧) في مطبوع «الفتح»: «الخلخالي»!!
(٨) في مطبوع «الفتح»: «يخرج».

أحدهما: إنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً[(١)].

الثاني: إنهم يجوّزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأول هو الشرك الجلي، والثاني الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته» أي: كما في حديث جندب، وهذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا ما بعده.

قوله: «ثم إنه لعن، وهو في السياق من فعله» كما في حديث عائشة.

قلت: فكيف يسوغ بعد[(٢)] هذا التغليظ من سيد المرسلين أنْ تُعظَّم القبور ويبنى عليها ويصلى عندها وإليها؟ هذا أعظم مشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعقلون.

وقوله: «والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبنِ مسجد» أي: من اتخاذها مساجد، الملعون فاعله، وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

السابع: وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعاً: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام**»[(٣)]. رواه أحمد وأهل «السنن» وصححه ابن حبان والحاكم، قال ابن القيم[(٤)] رحمه الله: «وبالجملة؛ فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه[(٥)]: صيغة (لا تفعلوا) وصيغة «**إني أنهاكم عن ذلك**». ليس لأجل

---

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «لهم». (٢) في مطبوع «الفتح»: «مع».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٨٣، ٩٦)، والترمذي (٣١٧)، وأبو داود (٤٩٢)، وابن ماجه (٧٤٥)، والدارمي (١/ ٣٢٣)، وأبو يعلى (١٣٥٠)، وابن خزيمة (٧٩١)، وابن حبان (١٦٩٩، ٢٣١٦، ٢٣٢١)، والحاكم (١/ ٢٥١)، والبيهقي (٢/ ٤٣٥) عن أبي سعيد مرفوعاً، وروي عن عمرو بن يحيى عن أبيه مرسلاً، كما عند ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٩)، وعبد الرزاق (١٥٨٢)، وابن ماجه (٧٤٥)، وأبو يعلى (١٣٥٠)، والبيهقي (٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥).

ووصله خمسة - وأكثرهم ثقات - وأرسله الثوري وحده، ومع هذا قال الدارقطني في «العلل» (٤/ ق٣): «والمرسل المحفوظ». وهذا الذي رجحه الترمذي، إلا أن **الحديث صحيح بشواهده**، انظر: «نصب الراية» (٢/ ٣٢٤) و«التلخيص الحبير» (١/ ٢٧٧).

(٤) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٨).

(٥) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بصيغته».

النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقلَّ نصيبه أو عدم من لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له، وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلوّاً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله! من هذا الباب دخل الشيطان(١) على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عُبّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم».

قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً»، أي: لما علموا من تشديده في ذلك، وتغليظه [النهي عنه](١) ولعن من فعله.

قوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً»: أي: وإن لم يُبن مسجد، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، يعني: وإن لم يُقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلي فأوقع الصلاة [في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة](٢) عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً.

قوله: كما قال: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»(٣) أي: فسمى الأرض مسجداً تجوز الصلاة في كل بقعة منها، إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها، قال البغوي في «شرح السنة»(٤): «أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيَعهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا؛ تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس»(٥). اهـ.

الثامن: قوله: «ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعاً: «**إن من شرار**

---

(١) غير موجود في مطبوع «الفتح».
(٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.
(٣) مضى تخريجه.
(٤) (٢/ ٤١٢).
(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٧).

الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[(١)]». قوله: «**إن من شرار الناس**» بكسر الشين، جمع شرير، قوله: «**من تدركهم الساعة وهم أحياء**» أي: مقدماتها، كخروج الدابة؛ وطلوع الشمس من مغربها؛ وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: «**والذين يتخذون القبور مساجد**» معطوف على خبر (إن) في محل نصب على نية تكرار العامل، أي: وإن من أشرار[(٢)] الناس الذين يتخذون القبور مساجد، أي: بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها.

وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من اليهود والنصارى، وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك؛ تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى، فما رفع أكثرهم بذلك رأساً، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قُربة إلى الله، وهو مما يُبعدهم عنه ويطردهم عن رحمته ومغفرته، **والعجب أن أكثر من يدَّعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.**

قال شيخ الإسلام [رحمه الله]: «أما بناء المساجد على القبور، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه» قال: «ولا ريب في القطع بتحريمه» ثم ذكر الأحاديث في ذلك إلى أن قال: «وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدمٍ أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين»[(٣)].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «يجب هدم هذه القباب التي بنيت على القبور؛ لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ»[(٤)].

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرّافة من الأبنية، منهم: ابن الجُمَّيزي والظهير التَّزْمَنْتِي[(٥)] ....

---

(١) سبق تخريجه. (٢) في مطبوع «الفتح»: «شرار».

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٧).

(٤) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٨).

(٥) كذا في مطبوع «الفتح». وهو نسبة إلى (تزمنت) بفتح التاء وسكون الزاي، قاله =

وغيرهما[(١)]. وقال القاضي ابن كج: «ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب [ولا غير قباب][(٢)]، والوصية بها باطلة»[(٣)]. وقال الأذرعي: «وأما بطلان الوصية ببناء [القباب وغيرها من][(٢)] الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة؛ فلا ريب في تحريمه»[(٤)]. وقال القرطبي في حديث جابر: «نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه»[(٥)]: «وبظاهر هذا الحديث قال مالك وكره البناء والجصَّ على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه»[(٦)].

وقال ابن رشد: «كره مالك البناء على القبر وجَعْل البلاطة المكتوبة»[(٧)].

= ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ١٣٩)، وابن قاضي شهبة في «طبقاته» (٢/ ١٧٢)، ويكسر التاء قاله ياقوت في «معجم البلدان» (٢/ ٢٩)، وابن العماد في «الشذرات» (٩/ ٣٨٠) وهي بلدة من صعيد مصر من عمل البهنسا، وتحرف في الأصل إلى «الترميني»!

(١) نقله عنهما الدَّميري في «النجم الوهاج في شرح المنهاج» (٣/ ١١١) وغيره من متأخري الشافعية. انظر: «حواشي الشرواني والعبادي على تحفة المحتاج» (٣/ ١٩٨).

(٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٣) قال الشافعي في «الأم» (١/ ٢٧٧): «ورأيت الولاة عندنا بمكة يأمرون بهدم ما يبنون منها ـ أي: القباب على القبور ـ ولم أر الفقهاء يعيبون ذلك عليهم، وإن كان ذلك في ملكه، فإن لم يكن محظوراً لم يكن مختاراً».
ونقله عنه جمع، مثل: الماوردي في «الحاوي الكبير» (٣/ ١٩٣) ـ وفيه: «وأما البناء على القبور كالبيوت والقباب فإن كان في غير ملكه لم يجز» ـ ونحوه في «البيان» (٣/ ١١٠) للعمراني، و«شرح الرافعي على الوجيز» (٢/ ٤٥٢) وصاحب «العباب المحيط» (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)، والروياني في «بحر المذهب» (٣/ ٣٢٢). ويريد بالكراهة التحريم ـ كما هو معلوم في كلامه ـ. والصواب ما اقتضاه إطلاق ابن كج من التحريم من غير فرق بين ملك وغيره للنهي العام، ولما فيه من الابتداع القبيح وإضاعة المال والشرف، ولمضاهاة الجبابرة والكفار، والتحريم يثبت بدون ذلك. وأما الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية العظيمة، وإنفاق الأموال الكثيرة عليها فلا ريب في تحريمه، والعجيب كل العجب من يلزم ذلك الورثة من حكام العصر ويعمل بالوصية بذلك، مع قول الأصحاب: لا تنفذ الوصية، حيث لا حاجة إليه، أفاده ابن أبي زهرة في «تعليقة له على روضة الطالبين» (١/ ٦٥٣، ط. دار الكتب العلمية).

(٤) نقله عنه ابن حجر الهيتمي في «تحفة المتحاج» (٣/ ١٩٨ ـ مع «حواشي الشرواني والعبادي»).

(٥) أخرجه مسلم (٩٧٠).

(٦) انظر: «المفهم» (٢/ ٦٢٦).

(٧) انظر: «المقدمات الممهدات» (١٧٤)، و«البيان والتحصيل» (٢/ ٣٤٨)، كلاهما لابن رشد.

وهيَ[١] من بدع أهل الطَّول، أحدثوه إرادةَ الفخرِ والمباهاةِ والسُّمعةِ، وهو مما لا اختلاف فيه.

وقال الزيلعي في «شرح الكنز»: «ويكره أن يبنى على القبر»[٢] وذكر قاضي خان: «إنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه؛ لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر[٣]، والمراد بالكراهة عند الحنفية رحمهم الله كراهة التحريم، وقد ذكر ذلك[٤] ابن نجيم في «شرح الكنز»، وقال الشافعي ﵀: «أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس»[٥]، وكلام الشافعي ﵀ يبين أن مراده بالكراهة كراهة التحريم.

قال الشارح ﵀: «وجزم النووي ﵀ في «شرح المهذب»[٦] بتحريم البناء مطلقاً، وذكر في «شرح مسلم»[٧] نحوه أيضاً، وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار، كـ«المغني» و«الكافي» [وغيرهما، ـ رحمه الله تعالى ـ][٨]: «ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور، لأن النبي ﷺ، قال: «**لعن الله اليهود والنصارى**»[٩] الحديث، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات واتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها». انتهى[١٠].

قال شيخ الإسلام [ابن تيمية][٨] ﵀: «أما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة. انقلبت تربتها أو لم تنقلب، ولا فرق بين أن يكون بينه و[بين الأرض][١١] حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي ﷺ لعن الذين

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «وهو».

(٢) انظر: «تبيين الحقائق» (١/ ٢٤٦). والمنع مشهور جدّاً في كتب الحنفية، انظر: «المبسوط» (٢/ ٦٢)، «بدائع الصنائع» (١/ ٣٢٠)، «تحفة الفقهاء» (٢/ ٢٥٦)، «حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح» (٣٣٥)، «البحر الرائق» (٢/ ١٩٤)، «الفتاوى الهندية» (١/ ١٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٠) من حديث جابر.

(٤) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٥) نقله الروياني في «بحر المذهب» (٣/ ٣٢٢) عن الشافعي، ثم وجدته في كتابه «الأم» (١/ ٢٧٨).

(٦) هو «المجموع» (٥/ ٢٧٠).

(٧) (٧/ ٣٧).

(٨) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد».

(٩) سبق تخريجه.

(١٠) انظر: «المغني» (٢/ ٥٠٨).

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بينه وبينها».

اتخذوا قبور أنبيائهم[(١)] مساجد[(٢)]، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة، فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد[(٣)] بني عليه مسجد فلا يصلى في هذا المسجد، سواء كان[(٤)] خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب، لأن النبي ﷺ قال: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[(٥)]، وخص قبور الأنبياء [والصالحين][(٣)] لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم واتخاذها [مساجد][(٣)] أشد.

وكذلك إن لم يكن بني عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[(٦)]، وإن كان موضع قبر أو قبرين[(٧)]، وقد تقدم عن علي أنه قال: «لا أصلي في حمام ولا عند قبر»[(٨)]، فعلى هذا [ينبغي أن][(٩)] يكون النهي متناولاً تحريم القبر وبنائه[(١٠)] ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور، أو كان مكشوفاً»[(١١)].

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق، فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بيَّنوا أن علة النهي ما يؤدِّي إليه ذلك من الغلوِّ فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع، والله المستعان.

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «الأنبياء».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) من مطبوع «الفتح»، وسقط من الأصل.
(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «صلى»!
(٥) مضى تخريجه.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها، لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر».
(٨) انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١/ ٤٠٥)، «الأوسط» لابن المنذر (٢/ ١٨٣).
(٩) غير موجود في مطبوع «الفتح».
(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وفنائه».
(١١) انظر: «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (٢/ ٦٧٢).

وقد حدث بعد الأئمة الذين[١] يعتد بقولهم الناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلُظَ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت[٢] الانقياد، وغيروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراده، فقال بعضهم: النهي عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة والنهي عن الصلاة فيها لتنجّسها بصديد الموتى[٣]، وهذا كله باطل من وجوه[٤]:

منها: إنه من القول على الله بلا علم، فهو[٥] حرام بنص الكتاب.

ومنها: إنّ ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه[٦] وما المانع له أن يقول: من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله؟ ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي ﷺ لم يبين العلة، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة، وهذا باطل قطعاً وعقلاً وشرعاً لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصَّر في البلاغ، وهذا من أبطل الباطل، فإن النبي ﷺ بلّغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد[٧]، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

ويقال أيضاً: هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يعمُّ الأنبياء وغيرهم، فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء لكون أجسادهم طرية، لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»[٨].

التاسع: قوله: (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله):

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «ومن».
(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واهنت»!
(٣) في مطبوع «الفتح»: «الأموات».
(٤) في مطبوع «الفتح»: «لوجوه».
(٥) في مطبوع «الفتح»: «وهو».
(٦) غير موجود في مطبوع «الفتح».
(٧) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واحد»!
(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٩٧ ـ ٤٠٤).

روى مالك في «الموطأ» أن رسول الله ﷺ، قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[(١)].

هذا الحديث رواه مالك مرسلاً، والبزار[(٢)] موصولاً.

قوله: «رواه مالك في «الموطأ»» هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وأحد المتقنين للحديث، حتى قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين، وقيل: أربع وتسعين، وقال الواقدي بلغ تسعين سنة.

قوله: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»** قد استجاب الله دعاءه، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

فأجاب ربُّ العالمينَ دُعاءَه   وأحاطَهُ بثلاثةِ الجُدرانِ
حَتَّى غَدَت[(٣)] أرجاؤُه بدعائِه   في عِزَّةٍ وحِمَايةٍ وصِيَانِ[(٤)]

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثناً، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس، فلا يوصل إليه، ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره[(٥)] العابد من القبور والتوابيت التي عليها، وقد عَظُمَتْ الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد الله بن مسعود: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس يتخذونها سنة إذا غيرت؛ قيل: غيرت السنة»[(٦)]. اهـ[(٧)].

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ، قال ابن وضاح: «سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البزار في «المسند» (رقم ٤٤٠ ـ «كشف»). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٨): «رواه البزار وفيه عمر بن صهبان وقد أجمعوا على ضعفه» وعزاه الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٤٢) إلى البزار من طريق عمر بن محمد القمري وصححه، وسبق بيان ذلك، والحمد لله وحده.

(٣) في مطبوع «النونية»: «اغتدت».

(٤) انظر: «الكافية الشافية» (ص٢٩٢).

(٥) في مطبوع «الفتح»: «يباشر».

(٦) سبق تخريجه.

(٧) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٤٠).

النبي ﷺ، فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة»[١].

وقال المعرور بن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة في المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها»[٢].

وفي «مغازي ابن إسحاق» من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة بن دينار حدثنا أبو العالية قال: «لما فتحنا تُسْتَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب قرأته مثل ما أقرأ القرآن فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان الليل دفناه وسوَّينا القبور كلها لنعمِّيه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به[٤]، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله»[٥].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارع قصدها، فهو من المنكرات وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها[٦] أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به».
(٥) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٢).
(٦) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

عندها[١] أو لينسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي[٢] لم يشرع تخصيصها به، لا نوعاً ولا عيناً، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها، كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة[٣].

وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره فهذا هو المنهي عنه»[٤]. اهـ. ملخصاً.

قوله: **«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** فيه[٥] تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر و[في «القرى»][٦] للطبري عن[٧] أصحاب مالك عن مالك «أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، وعلل ذلك بقوله: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»** الحديث، كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر، لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سدّاً للذريعة»[٨].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ومالك قد أدرك التابعين وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ. . .» إلى أن قال: «وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريدون[٩] به الزيارة البدعية، وهو[١٠] قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة، فكره[١١] مالك

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «فيها».

(٢) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل. (٣) في مطبوع «الفتح»: «السنة به».

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨١ ـ وما بعدها).

(٥) في مطبوع «الفتح»: «ففيه».

(٦) من مطبوع «الفتح» وبدله بياض في الأصل!

(٧) في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».

(٨) انظر: «القِرى لقاصد أم القرى» (٦٢٩)، «الصارم المنكي» (٢٩٠)، «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٤٢)، «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٣٩، ٣٥٥، ٢٧/ ٣٠١، ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، «المدخل» (١/ ١٦٢) لابن الحاج، «الشفا» (٢/ ٦٦٧)، «غاية الأماني» (١/ ١٧٨) للآلوسي. والحديثان مضى تخريجهما.

(٩) في مطبوع «الفتح»: «يريد». (١٠) في مطبوع «الفتح»: «وهي».

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وكره»!

أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد بخلاف الصلاة عليه والسلام[(١)]، فإن ذلك مما أمر الله به.

أما لفظ الزيارة في عموم القبور؛ فلا يفهم منها مثل هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله: «**فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**»[(٢)]، مع زيارته لقبر أمه[(٣)]؟ فإن هذا يتناول قبور الكفار، فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع، بخلاف ما إذا كان المزور معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيراً ما يُعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية، فلهذا كره مالك ذلك في مثل[(٤)] هذا وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة»[(٥)]. اهـ.

وفيه: «إن النبي ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه». ذكره المصنف رحمه الله[(٦)]

وقوله «عن سفيان»؛ الظاهر أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري[(٧)]، أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهداً، وله أتباع يتفقهون على مذهبه، مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة.

قوله: «عن مجاهد» هو ابن جبر بالجيم والموحدة، أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة إمام في التفسير، أخذه[(٨)] عن ابن عباس وغيره، مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان، وقال ابن حبان[(٩)]: مات سنة اثنتين أو ثلاثة

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بخلاف الصلاة والسلام عليه».

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة بلفظ: «**نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**». وبرقم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة بلفظ: «**فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**». واللفظ المذكور لابن ماجه (١٥٧١)، وابن حبان (٩٨١) من حديث ابن مسعود.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧٦) من حديث أبي هريرة.

(٤) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٥٨)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٦٢).

(٦) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٠٥ ـ ٤١٠).

(٧) هو أوثق الناس في منصور الذي روى هنا، ومنصور يروي عنه السفيانان: الثوري وابن عيينة، وروايتها عنه في «الصحيحين». وأورد ابن جرير أثر مجاهد من طرق عدة عن سفيان، رواه عنه من طريق مؤمل ومهران بن أبي عمر الرازي وعبد الرحمن بن مهدي، ومؤمل ومهران لا يرويان إلا عن الثوري، فصح ما استظهره صاحب «فتح المجيد».

(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «أخذ».

(٩) في كتابه «الثقات» (٥/ ٤١٩).

ومائة وهو ساجد، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر»[١].

قلت: وفي الباب حديث أبي هريرة، وحديث حسان بن ثابت، أما[٢] حديث أبي هريرة، فرواه أحمد والترمذي وصححه[٣].

قلت: ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصاً بالرجال، خص بقوله: «**لعن الله زوارات القبور**»[٤] الحديث، فيكون من العام المخصوص، قوله: «والسرج» قال أبو محمد المقدسي: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يُلعن من فعله، لأن فيه تضييعاً للمال في غير ما[٥] فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام.

قوله: «رواه أهل «السنن»» يعني: أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط[٦].

قوله: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك).

الجناب: هو الجانب، والمراد حمايته عما يقرب إليه[٧] ويخالطه من الشرك وأسبابه.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ إلى آخره»، قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله[٨] ﷺ في حق

---

(١) من «فتح المجيد» (١/ ٤١١ ـ ٤١٢) بتصرف.

(٢) في مطبوع «الفتح»: «فأما».

(٣) يريد حديث: «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور». أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، والطيالسي (٢٣٥٨)، والترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وأبو يعلى (٥٩٠٨)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» (٣٠٦)، وابن حبان (٣١٧٨)، والبيهقي (٤/ ٧٨) **وإسناده حسن**، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه البغوي (٢/ ٤١٧)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٦٠). وأما حديث حسان بن ثابت، فقد أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، وأحمد (٣/ ٤٤٣)، وابن ماجه (١٥٧٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٧١)، والطبراني (٣٥٩١، ٣٥٩٢)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» رقم (٣٠٨)، والحاكم (١/ ٣٧٤)، والبيهقي (٤/ ٧٨) بسندٍ فيه عبد الرحمٰن بن بهمان، لم يوثقه غير ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عثمان بن خُثيم، ولذا قال ابن المديني: «لا نعرفه»، **إلا أن الحديث حسن**.

(٤) انظر: الهامش السابق.

(٥) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٦) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤١٣ ـ ٤٢١) بتصرف.

(٧) في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «منه».

(٨) في مطبوع «الفتح»: «رسوله».

أمته أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبيَّن لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها واليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث(١)»(٢).

العاشر: قوله: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»**(٣)، قال شيخ الإسلام: «أي: لا تعطِّلُوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحرِّي العبادة في البيوت ونهى عن تحرِّيها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة. وفي «الصحيحين» عن ابن عمر مرفوعاً: **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»**(٤). وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر مرفوعاً: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه(٥)»**(٦).

قوله: **«ولا تجعلوا قبري عيداً»**، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً(٧)؛ إما يعود السنة أو يعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك»(٨).

وقال ابن القيم رحمه الله: «العيد: ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان مأخوذ من المعاودة أو الاعتياد، فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة [أو لغيرها](٩)، كما كان المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام [التعبد فيها](١٠) عيداً. وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم

---

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «الباب».
(٢) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٥) بتصرف.
(٣) مضى تخريجه.
(٤) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).
(٥) أخرجه مسلم (٧٨٠)، والترمذي (٢٨٨٠).
(٦) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٧).
(٧) في مطبوع «الفتح»: «عائد».
(٨) انظر: «الاقتضاء» (١/ ٤٤١).
(٩) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وغيرها».
(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدله في الأصل: «العيد فيه»!

عن[١] أعياد المشركين المكانية بالكعبة[٢] ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر»[٣].

قوله: «**وصلوا عليّ[٤] فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[٥]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قُربكم من قبري وبُعدكم، فلا حاجة بكم[٦] إلى اتخاذه عيداً[٧]»[٨].

[قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**»[٤]. تقدم في كلام شيخ الإسلام في معنى الحديث قبله. اهـ][٩].

قوله: «وعن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**»[٤]، رواه في «المختارة».

هذا الحديث والذي قبله جيدان حَسَنا الإسنادين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط»[١٠]. اهـ[١١].

الحادي عشر: «قوله: علي بن الحسين» أي: ابن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم، قال الزهري: «ما رأيت قرشياً أفضل منه». مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح، وأبوه الحسين سبط رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة.

قوله: «إنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجة». بضم الفاء وسكون الراء، وهي

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».
(٢) في مطبوع «الفتح»: «الكعبة». (٣) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٩).
(٤) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل. (٥) مضى تخريجه.
(٦) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «لكم».
(٧) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٧).
(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧).
(٩) غير موجود في «مطبوع «فتح المجيد».
(١٠) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٠).
(١١) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩) بتصرف.

الكُوة في الجدار والخوخة ونحوهما[١].

قوله: «فيدخل فيها فيدعو فنهاه» هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: ما علمت أحداً رخّص فيه، لأن ذلك[٢] من اتخاذه عيداً، ويدل أيضاً على[٣] أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه، لأن ذلك لم يشرع. وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك. قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل[٤].

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة أو الدعاء[٥] فلم يشرعه لهم بل نهاهم عنه[٣] في قوله: **«لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني»**[٦]، فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذ[٧] كانت عائشة فيها وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه[٨] لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء[٩] لأنفسهم ولا لغيرهم ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث أو أنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم، فأضلهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدِّثهم في الظاهر وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر، ويظنون

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «عندها»!

(٢) بعدها في مطبوع «الفتح»: «نوع». (٣) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٤) انظر كلام الإمام مالك في: «المدخل» (١/ ٦٢) لابن الحاج.

(٥) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «والدعاء»!

(٦) مضى تخريجه. (٧) في مطبوع «الفتح»: «إذا».

(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «عليه».

(٩) في مطبوع «الفتح»: «لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء».

أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلّمهم، وأن روح الموتى تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود أن الصحابة لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلّم عليه[1] إذا قدم من سفره كما كان ابن عمر يفعله، قال عبيد الله بن عمر عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف[2]. قال عبيد الله: ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر، وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة فكان بدعة محضة[3]. وفي «المبسوط»: قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يسلم ويمضي. ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره[4].

وبالجملة، فقد[5] اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟»[6].

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها،

---

(١) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦٧٢٤) وابن بطة في «الإبانة» بإسناد صحيح، كما في «الاقتضاء» (٢/ ٦٦٣)، وسعيد بن منصور في «السنن»، كما في «الاقتضاء» أيضاً (٢/ ٧١٨)، ومالك في «الموطأ» (باب الصلاة، رقم ٢٤٤ ـ رواية يحيى، ورقم ٥٠٦ ـ رواية أبي مصعب الزهري، وص١٤٥ ـ رواية سويد ص٣٣٤ ـ رواية محمد بن الحسن)، وعنه القاضي إسماعيل في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (٩٨) بغير هذا اللفظ ولفظ يحيى بن يحيى مُعلّ، بسط ذلك ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص٥٦١ ـ ٥٦٢، ٦٤٩، ٦٥٨ ـ ٦٦١ ـ بتحقيقي)، وانظر ـ لزاماً ـ: «الاستذكار» (٦/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣)، و«التمهيد» (١٧/ ٣٠٤)، و«البيان والتحصيل» (١٨/ ٦٠٤) لابن رشد، و«الصارم المنكي» (١١٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٩٦).

(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «يستدبرها».

(٥) في مطبوع «الفتح»: «قد».

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٣٠).

وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أعني: من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين ـ ونقل فيها[1] اختلاف العلماء، فمن مبيح لذلك كالغزالي وأبي محمد المقدسي ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي محمد الجويني[2] والقاضي عياض، وهو قول الجمهور، نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة وهو الصواب، لما في «الصحيحين» عن أبي سعيد عن النبي ﷺ، قال: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[3]. فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نفياً.

وجاء في رواية بصيغة النهي، فتعين أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصحابة المنع، كما في «الموطأ» و«المسند» و«السنن»، عن بصرة[4] بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة وقد أقبل من الطور: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تُعْمَل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[5]. وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في «أخبار المدينة» بإسناد جيد عن قَزَعَة قال: «أتيت ابن عمر، فقلت: إني أريد الطور، فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، فدع عنك الطور ولا تأته»[6].

---

(١) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل!

(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الجوني»!

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٧)، ومسلم (٨٢٧).

(٤) كذا رواية مالك وغيره، وصوابه «لقيتُ أبا بصرة. . .» بيّن ذلك ابن عبد البر، كما سيأتي في التخريج، وهو كذلك عند أحمد في الموطن الثاني، ومن طريقه الطبراني (٢١٦١).

(٥) أخرجه مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة، باب الصلاة رقم (٩٣)، ـ ومن طريقه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٩٤)، والطحاوي في «المشكل» (٥٨١، ٥٩٠)، وابن حبان (٢٧٧٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٢٣٧)، والضياء في «فضائل بيت المقدس» (٣) ـ، وأحمد (٦/ ٧، ٣٩٧ ـ ٣٩٨)، والنسائي (٣/ ١١٣)، والحميدي (٩٤٤)، والفسوي (٢/ ٢٩٤)، والطيالسي في «المسند» رقم (١٣٤٨)، **وإسناده صحيح على وهم فيه**، بيّنه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٣/ ٣٨)، و«الاستيعاب» (٢/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٣٦٥)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ١٣٥)، وأحمد (٣/ ٤٥) وهو مختصراً عند مسلم (٨٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٢٧٩١)، والطحاوي في «المشكل» (٥٧٨).

فابن عمر وبَصْرة بن أبي بصرة جعلا الطور مما نُهي عن شد الرحال إليه.

لأن اللفظ الذي ذكراه في(١) النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القُربة، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصّاً بالمساجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث، والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة، فإن الله سماه (الوادي المقدس)، و(البقعة المباركة) وكلم كليمه موسى عليه السلام هناك.

وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الأخنائي(٢) فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث [الصحيحة](٣) وأخذ به العلماء(٤) وقياس الأولى، لأن المفسدة في ذلك ظاهرة.

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال ولا مزية تدعو إليه. وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب «الصارم المنُكي» في ردّه على السبكي، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ، وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه مع أنها لا تدل على محل النزاع، إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة.

قوله: «رواه في «المختارة»»، «المختارة»: كتاب جمع فيه مؤلِّفُه الأحاديثَ الجياد الزائدة على «الصحيحين». ومؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام، قال الذهبي: «أفنى عمره في

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «ذكر فيه»!

(٢) اسمه «الاستغاثة في الرد على البكري» طبع مرات، وحققه غير واحد كل على حدة، منهم عبد الله السهيلي عن دار الوطن في مجلدين، ومحمد عجال عن الغرباء في مجلدين، وطبع قديماً دون تحقيق.

(٣) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد».

(٤) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وفي «الجواب الباهر» الذي نقل عنه ابن عبد الهادي ـ رحمه الله تعالى ـ».

هذا الشأن مع الدين المتين والورع والفضيلة التامة والإتقان، فالله يرحمه ويرضى عنه»[(١)]. وقال شيخ الإسلام: «تصحيحه في «مختارته»[(٢)] خير من تصحيح الحاكم بلا ريب»[(٣)]. مات سنة ٦٤٣[(٤)].

باب قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

قال (ك): «قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ﴾ أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم[(٥)] متصفون بهذه الصفات [المفسرة بقوله تعالى][(٦)]: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ روى سفيان الثوري[(٧)] عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لا يهلك قوماً ـ أو قال: إن الله لم يمسخ قوماً ـ فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك**»[(٨)] وقد رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، وقرئت قراءات أخرى[(٩)] يرجع معناها كلها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا

---

(١) انظر: «السير» (٢٣/ ١٢٦).

(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «مختاراته»، وطبع القسم الموجود من الكتاب!

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٥).

(٤) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٣٠ ـ ٤٣٦).

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القصيرة، فقوله».

(٧) بينه وبين ابن مسعود مفاوز، وهذا تصرف من المصنف لحذف السند بعبارة غير دقيقة، فالذي عند ابن كثير: «وقد قال سفيان الثوري: عن علقمة بن مرثد عن المغيرة بن عبد الله عن المعرور بن سويد عن ابن مسعود..» وساق الحديث، ثم قال: «وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومسعر كلاهما عن مغيرة بن عبد الله اليشكري به».

(٨) أخرجه مسلم (٢٦٦٣)، وأحمد (١/ ٤١٣).

(٩) مثل: «وعَبَدَ الطاغوتِ» و«عَبَدَ الطاغوتَ» و«عَبُدِ الطاغوتِ» و«عبدوا الطاغوتَ» و«من عبدوا الطاغوت» و«عَبْدَ الطاغوتِ» و«عَبَدَةَ الطاغوت» و«عَبْدَ الطاغوتَ» و«عُبِدَ الطاغوتُ» و«عُبِدَت الطاغوتُ» و«عَبَدَةُ الطاغوت» و«عُبُدَ الطاغوتِ» و«عبادة الطاغوت» و«عُبَّدَ الطاغوتَ» و«عُبِّد الطاغوتُ» وكثير من هذه القراءات شاذة، انظر توثيقها مع توجيهها في: =

الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وقد وجدت فيكم جميع أنواع عبادة الطاغوت؟ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: مما تظنون بنا، ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر(١) مشاركة، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤]»(٢).

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله، لأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**»(٣). أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم(٤).

الثاني عشر: قوله: عن أبي سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**». قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**». أخرجاه(٥)، وهذا سياق مسلم.

قوله: «**سَنَن**» بفتح المهملة، أي طريق من كان قبلكم، قال المهلَّب: «الفتح أولى»، قوله: «**حذو القذة بالقذة**» بنصب «**حذو**» على المصدر و(**القُذَّة**) بضم القاف واحدة القذذ(٦) وهو ريش السهم، أي: لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة وقد وقع كما أخبر، وهو عَلَمٌ من أعلام النبوة، قوله: «**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»(٥) وفي حديث آخر: «**حتى لو كان فيهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك**»(٧). أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئاً مما كان

= «معجم القراءات» (٢/ ٣٠١ ـ ٣١١).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الطرق الأخرى»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٣ ـ ٢٧٥) بتصرف.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٣٩، ٤٤٢) بتصرف.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في مطبوع «الفتح»: «القذاذ».

(٧) قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨)، والعقيلي (٢/ ٢٦٢)، وابن نصر المروزي في «السنة» رقم (٦٢)، وابن وضاح في «البدع» رقم (٢٧٠)، والآجري في «الشريعة» (ص١٥ ـ ١٦)، و«الأربعين» رقم (٣)، والتيمي في «الحجة» رقم =

يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً، ولهذا قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى»[١].

قلت: فما أكثر الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في حديث ثوبان الآتي قريباً، قوله: «قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**» هو برفع (اليهود) خبر مبتدأ محذوف، أي: أهم اليهود والنصارى الذي نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف، تقديره: تعني اليهود[٢]؟ قوله: «قال: **فمن؟**» استفهام إنكاري، أي: فمن هم غير أولئك؟»[٣].

الثالث عشر: قوله: «ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة وأن لا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيسْتَبيحَ بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**»، ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق**

= (١٦، ١٧)، واللالكائي في «السنة» رقم (١٤٧)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ٢٦٥)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٦) من حديث عبد الله بن عمرو، ومن حديث أخرجه الدولابي في «الكنى» (٢/ ٣٠)، والحاكم (٤/ ٤٥٥) من حديث ابن عباس، **هو بهما ـ إن شاء الله تعالى ـ حسن**. وحسنه شيخنا الألباني. انظر: «الصحيحة» تحت (١٣٤٨) ونبه على أنه وقع محرفاً في «المستدرك» في حديث ابن عباس «امرأته» بدل «أمّه»، فلتنتبه لذاك، تولى الله هداك.

(١) نقل هذا الأثر ابن تيمية في «الاقتضاء» (١/ ٦٧).

(٢) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٣) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤) بتصرف.

منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»[١].

هذا الحديث رواه أبو داود في «سننه» وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف.

قوله: «عن ثوبان» هو مولى النبي[٢] ﷺ، صَحِبه ولازمه ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين، قوله: **«زوى لي الأرض»**، قال التوربشتي: «زَوَيْتُ الشيء: جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب»[٣]. وحاصله أنه طوى الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره، قال الطيبي: «أي: جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها»[٤].

قوله: **«وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»**، قال القرطبي: «هذا الخبر وجد مخبره كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة [بالنون والجيم][٥]، الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما [هو][٦] وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد[٧] السند والهند والصغد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه»[٨][٩].

قال محمد تقي الدين: هذا خطأ، فإن طنجة هي أول عمارة المغرب، وآخرها نهاية شنقيط عند حدود السنيغال، وكيف يرتكبه القرطبي وبلده قرطبة طال ما كان مع المغرب دولة واحدة وليس بين قرطبة وطنجة إلا نحو مائتي ميل. وكان القرطبي متبحراً في علوم كثيرة، ولكنه في تخطيط البلدان أبدى غاية الضعف، والكمال لله. اهـ.

---

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) انظر: «الفخر المتوالي فيمن انتسب للنبي ﷺ من الخدم والموالي» للسخاوي (رقم ٣٢ ـ بتحقيقي).

(٣) وهو في «شرح الطيبي على المشكاة» (١١/ ٣٦٣٧).

(٤) «شرح الطيبي على المشكاة» (١١/ ٣٦٣٧).

(٥) غير موجود في مطبوع «المفهم»، وهو كذلك في مطبوع «الفتح».

(٦) غير موجود في مطبوع «المفهم».

(٧) من مطبوع «المفهم»، وسقط من «فتح المجيد» والأصل.

(٨) انظر: «المفهم» (٧/ ٢١٧).

(٩) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٦).

قوله: «**زوى لي منها**» يحتمل أن يكون مبنيّاً للفاعل، وأن يكون مبنيّاً للمفعول.

قوله: «**وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض**»، قال القرطبي: «يعني به كنز كسرى وهو مَلِك الفرس، وكنز[1] قيصر وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما [وقد قال ﷺ][2]: «**والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[3] وعبّر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة، [ووجد ذلك في خلافة عمر][4]، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر»[5]. والأبيض والأحمر، منصوبان على البدل.

قوله: «**وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**» هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله «بعامة» بالباء، وهي رواية صحيحة في «صحيح مسلم» وفي بعضها بحذفها، قال القرطبي: «وكأنها زائدة؛ لأن «عامة» صفة السنة[6]، والسنة[7] والجدب[8] الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط: سنة، ويجمع على سنين، كما قال [تعالى]: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، أي: الجدب[9] المتوالي»[10].

قوله: «**من سوى أنفسهم**» أي: من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، كما هو مبسوط في التاريخ فيما قبل، وإلى[11] زماننا

---

(١) في مطبوع «المفهم»: «ومُلك».
(٢) في مطبوع «المفهم»: «وقد دلّ على ذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر حين أخبر عن هلاكهما:».
(٣) أخرجه البخاري (٦٦٢٩) ومسلم (٢٩١٩) من حديث جابر بن سمرة، وهو عند البخاري (٦٦٣٠) ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة.
(٤) في مطبوع «المفهم»: «وقد ظهر ذلك ووجد كذلك في زمان الفتوح في خلافة عمر رضي الله عنه».
(٥) انظر: «المفهم» (٧/ ٢١٧).
(٦) في مطبوع «المفهم»: «صفة لسنة، فكأنه قال: بسنة عامة».
(٧) في مطبوع «المفهم»: «ويعني بالسَّنة».
(٨) بعدها في مطبوع «المفهم»: «العام».
(٩) في مطبوع «المفهم»: «بالجدب».
(١٠) انظر: «المفهم» (٧/ ١٢٧).
(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «وفي»!

هذا، نسأل الله العفو والعافية، قوله: «**فيستبيح بيضتهم**»، قال الجوهري: «بيضة كل شيء: حوزته، وبيضة القوم: ساحتهم»[١] وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها، وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم وإن قلّوا.

قوله: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً**»، والظاهر أن «حتى» عاطفة أو تكون لانتهاء الغاية.

قال محمد تقي الدين: بل هي لانتهاء الغاية يقيناً، وقد سلط[٢] بعضهم على بعض كما هو الواقع وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم. قوله: «**وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد**» قال بعضهم: «إذا حكمتُ حُكماً مُبرماً نافذاً فإنه لا يُردُ بشيء، ولا يقدرُ أحد على رده» كما قال النبي ﷺ: «**ولا راد لما قضيت**»[٣].

قوله: «رواه البرقاني في «صحيحه»»، هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد الخوارزمي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة، قال الخطيب: «كان ثبتاً ورعاً[٤] لم نَرَ في شيوخنا أثبت منه[٥]، عارفاً بالفقه، كثير التصانيف صنف[٦] «مسنداً» ضمنه ما اشتمل عليه «الصحيحان»، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة»[٧]، وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه[٨].

---

(١) انظر: «الصحاح» (٣/١٠٦٨).　　(٢) في مطبوع «الفتح»: «يسلط».

(٣) قطعة من حديث أصله عند البخاري (٨٤٤، ١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة دون هذه اللفظة، وأخرجه من حديثه بها: عبد الرزاق (١٩٦٣٨)، وعبد بن حميد (٣٠٩٨)، وابن خزيمة (٧٤٢)، والطبراني في «الدعاء» (٦٨٦) **وسنده صحيح**، وانظر: «الترغيب في الدعاء» للمقدسي (٨٠)، و«العلل» للدارقطني (٧/١٢١ ـ ١٢٤).

(٤) بعدها عند الخطيب: «متقناً متثبتاً فهماً».

(٥) بعدها عند الخطيب: «حافظاً للقرآن».

(٦) عند الخطيب: «. . . بالفقه، له حظ من علم العربية، كثير الحديث، حسن الفهم له، والبصيرة فيه، وصنَّف. . .».

(٧) انظر: «تاريخ بغداد» (٦/٢٧، ط. دار الغرب).

(٨) سبق بيان ذلك، ولله الحمد والمنّة.

وروى في «سننه» أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح ويكثر الهرج**» قيل: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**القتل القتل**»(١).

قوله(٢): «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»، أي: الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم(٣) كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ونحو(٤) هذا، وهذا هو الضلال البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، ومن هذا الضرب من يدّعي أنه يصل مع الله إلى حال تسقط [فيها عنه](٥) التكاليف، ويدّعي(٦) أن الأولياء يُدعون أو يستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وإنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم أو يجوّز بناء المساجد على قبور الأولياء(٧) والصالحين وإيقادها بالسرج، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله، فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

[وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون**»(٨)، رواه أبو داود الطيالسي. وعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»(٩)، رواه الترمذي](١٠)، وقد بيّن الله

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٥)، وهو عند البخاري (٢٠٦١)، ومسلم (١٥٧).
(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «قال».
(٣) في مطبوع «الفتح»: «فيضلوهم». (٤) في مطبوع «الفتح»: «أو نحو».
(٥) بدلها في مطبوع «الفتح»: «عنهم». (٦) في مطبوع «الفتح»: «أو يدّعي».
(٧) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الأنبياء».
(٨) أخرجه الطيالسي (٩٧٥ أو ١٠٦٨، ط. هجر)، وأحمد (٦/ ٤٤١)، والدارمي (٢١١) بإسناد فيه مجهول، **والحديث صحيح له شواهد**. انظر: «الصحيحة» (١٥٨٢)، والحديث الآتي.
(٩) أخرجه الترمذي (٢٢٢٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨، ٢٨٤) والدارمي (٢٠٩، ٢٧٥٢) والقضاعي (١١٦٦). **وإسناده صحيح**.
(١٠) غير موجود في مطبوع «الفتح».

تعالى في كتابه صراطَه المستقيم، الذي هو سبيل المؤمنين، فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ، فهو ملعون وحدثه مردود، كما قال ﷺ: «**من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**»(١)، وقال: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»(٢)، وقال: «**كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»(٣) وهذه أحاديث صحيحة.

ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها، وقد بيّن الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية: ١٨]، ونظائرها في القرآن كثيرة.

وعن زياد بن حُدير قال: قال لي عمر: «هل تعرف ما يهدم الإسلام»؟ قلت: لا، قال: «يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين»(٤). رواه الدارمي.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧١) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والمروزي في «السنة» رقم (٦٩ ـ ٧٢)، والحاكم (١/ ٩٥) وهو قطعة من آخر حديث العرباض بن سارية، **وهو صحيح**، صححه جماعة من الحفاظ، وسيأتي بيان ذلك مع تخريج أوسع في (٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٤) أخرجه الدارمي في «السنن» رقم (٢٢٠)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (١٤٧٥)، والفريابي في «صفة المنافق» (ص٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٦)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٨٦٧، ١٨٦٩، ١٨٧٠)، والآجري في «تحريم النرد والشطرنج» رقم (٤٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٣٤)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٨٣٣)، واللالكائي في «السنة» رقم (٦٤١، ٦٤٣) من طرق عن عمر **بعضها إسناده صحيح**.

قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٦٦٢)، بعد أن ساق طرقه: «فهذه طرق يشدّ القوي منها الضعيف، فهي صحيحة من قول عمر رضي الله عنه، وفي رفع الحديث نظر، والله أعلم».

والأثر معزو لآدم بن أبي إياس في «العلم»، والعسكري في «المواعظ»، والبغوي والإسماعيلي ونصر المقدسي في «الحجة»، كما في «كنز العمال» رقم (٢٩٤٠٥، ٢٩٤١٢)، و«مسند الفاروق» (٢/ ٦٦٠ ـ ٦٦١).

وقال يزيد بن عَميرة[١]: كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا ويقول[٢]: «الله حكم قسط، هلك المرتابون. ـ وفيه ـ: فاحذروا زيغة الحكيم،

بالمشركين»[(١)]، والمعنى: إنهم[(٢)] يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ويلحقون[(٣)] بأهل الشرك.

قوله: **«حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»** (الفئام) [بكسر الفاء][(٤)] مهموز: الجماعات الكثيرة، قاله أبو السعادات[(٥)] وفي رواية أبي داود[(٦)]: **«وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»** وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان، وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد.

فالتوحيد هو أعظم مطلوب والشرك هو أعظم الذنوب، وفي معنى هذا الحديث: ما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيَاتُ نساء دَوْسٍ على ذي الخَلَصة»** قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية[(٧)].

وروى ابن حبان عن معمر قال: «إن عليه الآن بيتاً مبنيّاً مغلقاً»[(٨)]، قال العلامة ابن القيم[(٩)] رحمه الله في قصة هدم اللات، لما أسلمت ثقيف: «فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، وكذلك[(١٠)] حكم المشاهد التي بنيت على القبور والتي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك[(١١)] والنذر، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم[(١٢)] شركاً عندها وبها، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم وصار[(١٣)] المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة،

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.
(٣) في مطبوع «الفتح»: «ولحوقهم».
(٤) غير موجود في مطبوع: «الفتح».
(٥) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٤٠٦).
(٦) سبق تخريجه.
(٧) أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).
(٨) أخرجه ابن حبان (٨/ ٢٦٤)، وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٧٩٥) **وإسناده صحيح**.
(٩) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٦).
(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وكذا».
(١١) في مطبوع «الفتح»: «للشرك».
(١٢) في مطبوع «الفتح»: «وأعظم».
(١٣) في مطبوع «الفتح»: «فصار».

وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العلماء وغلب السفهاء وتفاقم الأمر واشتد البأس و﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين»[١].

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع، وقال الحافظ: «وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله[٢] ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم[٣]، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر [قتله وحشي قاتل حمزة يوم أحد، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار][٤]، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه، ونقل أن سجاح تابت أيضاً، ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، وأعان عليه فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه، ومنهم الحارث الكذاب[٥]، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل وخرج في خلافة بني العباس جماعة، وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً، فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته[٤] عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا، وقد أهلك الله تعالى من وقع له[٤] منهم ذلك، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر»[٦].

قوله: **«وأنا خاتم النبيين»**، قال الحسن، الخاتم[٧]: الذي ختم به، يعني[٨]:

---

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «انتهى ملخصاً»، أي: من كلام ابن القيم في «الزاد».

(٢) في مطبوع «الفتح»: «النبي».

(٣) انظر أخبار هؤلاء ـ بالترتيب ـ في: «المتنبئون نشأتهم أصولهم نهايتهم» (٢٨، ٢٢، ٢٦، ٣٢)، و«عقيدة ختم النبوة» (١٧٥، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١).

(٤) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٥) هو ابن سعيد، وكان مولى لابن الجلاس. انظر أخباره في: «تلبيس إبليس» (٤٢٩)، «البداية والنهاية» (٩/٢٨)، «المتنبئون» (١٣٧)، «عقيدة ختم النبوة المحمدية» (٢٢٨).

(٦) انظر: «فتح الباري» (٦/٦١٧).

(٧) في مطبوع «الفتح»: «خاتم».

(٨) في مطبوع «الفتح»: «أي».

أنه آخر النبيين كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته، فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة، قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فليكْسِرنّ الصليب، وليقتُلنّ الخنزير، وليضعن الجزية»**[١].

قوله: **«ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»**، قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»[٢].

قال ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري وغيرهم: «إنهم أهل الحديث»[٣].

قال النووي: «يجوز أن تكون الطائفة جماعة[٤] متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله»[٥].اهـ. ملخصاً مع زيادة فيه، قاله الحافظ[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) أما رواية يزيد فأخرجها الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» رقم (٢٧)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٦).
وأما رواية أحمد فأخرجها الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٨)، والحاكم في «المعرفة» (٢)، وابن الجوزي في «المناقب» (٢٣٤)، **وإسناده صحيح**، كما قال الحافظ في «فتح الباري» (١٣/ ٢٩٣).

(٣) أخرج رواياتهم ـ على الترتيب ـ الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٧، ٥٠، ٤٩، ٥١).

(٤) من مطبوع «الفتح»، وسقط من الأصل.

(٥) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٣/ ٩٧ ـ ٩٨ ـ ط. قرطبة).

(٦) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٢٩٥).

قال القرطبي: «[وفيه دليل على أن الإجماع حجة، لأن[١] الأمة إذا اجتمعت فقد دخلت فيهم الطائفة المنصورة][٢]»[٣].

قال المصنف رحمه الله: وفيه الآية العظيمة، أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وفيه البشارة[٤] بأن الحق لا يزول بالكلية، قلت: واحتج به الإمام أحمد[٥] على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة»[٦].

هذا ما قصدت إثباته من كتاب «التوحيد» و«شرحه»، رحمة الله على من ألفهما والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في مطبوع «المفهم»: «وفي هذا الحديث دلالة على صحة الإجماع لأن...».

(٢) في مطبوع «المفهم»: «هذه العصابة المختصة».

(٣) انظر: «المفهم» (٣/ ٧٦٤).

(٤) في مطبوع «فتح المجيد»: «والبشارة» دون «فيه».

(٥) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٦) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٤٨ ـ ٤٥٩) بتصرف.

الموضوعات والمحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الحج

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة النمل

سورة القصص

الموضوع | الصفحة

سورة العنكبوت

سورة الروم

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة الدهر

سورة البينة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة